من عرابي الى زغلول

أبلغ درس في الوطنية على يد الحب الطاهر

بقلم

نقولا الحداد

مؤلف روايات : فرعونة العرب عند الترك . وجمعية اخوان العهد . ووداعاً أيها الشرق . ونبية بنان . وحركات السيدات في الانتخابات . وثورة عواطف . والعالم الجديد . وحواء الجديدة . وآدم الجديد . والحقيبة الزرقاء . والصديق المجهول . و و و الخ . ومؤلف علم الاجتماع . وعلم أدب النفس . والحب والزواج . وذكراً وأنثى خلقهم الخ .

حقوق اعادة طبع هذه الرواية وحقوق تحويلها الى تمثيلية أو سينمائية
وحقوق ترجمتها وكل حق فيها محفوظة للمؤلف

شبرا . مصر . سنة ١٩٢٨

كلمة
الى القاريء الكريم

كانت النية معقودة على أن تكون رواية المجلة المسلسلة في هذا العام رواية جديدة الطراز مبتكرة الاسلوب لم يسبق لها ند في عالم الروايات الغربية على الاطلاق . يراد بها تصوير النفسانية الاجتماعية الحالية في العالم كله وأيلولة مصيرها الى نظام اجتماعي جديد توحيه قوة علوية صالحة .

وقد شرعنا بتأليف هذه الرواية . ولكننا رأينا أن الاجادة فيها تستلزم تفكيراً عميقاً وتأنياً في الوضع . فلم يمكن انجازها قبل دخول السنة العاشرة الحالية من مجلة السيدات والرجال، وقد لا ننتهي من تأليفها قبل الصيف القادم .

ولذلك رأينا أن نقدم للقراء الكرام رواية أخرى شيقة طلية كان قد اقترحها علينا أحد الاصدقاء على أن نضمنها صورة للروح الوطنية التي نشأت منذ ثورة عرابي وترعرعت في عهد فقيد الشرق سعد باشا زغلول . وها هي بجزالة أحاديثها وغرابة حوادثها . ونعتقد أنه متى اطلع القاريء على البضع عشرة صفحة الاولى منها أدرك ما فيها من جاذبية وطلاوة . والله المستعان

شبرا . مصر . نوفمبر سنة ١٩٢٨

نقولا حداد

الفصل الاول

طفل فى يد القضاء والقدر

فى مساء ٢٨ شوال أو ١١ سبتمبر سنة ١٨٨٢ كان محمد حسن الصنوبرى شيخ عزبة طنوف واقفاً أمام باب « دواره » ذاهلا لان في قلبه هموماً تكاد تخنقه ، اذ أقبل عليه فارس ينهب جواده الارض نهباً . فاشتد روعه واصطكت ركبتاه . وما هي الا هنيهة حتى وقف ذلك الفارس أمامه وناداه باسمه : محمد حسن الصنوبري

ـ نعم عبد سعادتكم يامولاى

ـ خذ هذا هو الغلام وهـذه هي المحفظة المختومة واحفظهما عندك . لاتدع أحداً يعلم شيئا عن الغلام . ان لم تستطع اخفاءه فادع أنه ابن أحد ذوى قربك . لاتسلمه الالمن يذكر لك كلمة السر بيننا وهى « متراس » أحفظها جيداً . ماهي ؟

ـ متراس ياسيدى . لكن . . . ماشأن...

ـ صمتاً . لاتسأل ولاتقل شيئا ، وليس عليك أن تفعل غير ما أمرتك . وأن عصيت حرفاً من الاوامر فتأكد أنك هالك أنت وأهلك . انى مستعجل الآن . اخبىء الغلام حالا . احذر أن تعترف به لاحد . أن حياتك وحياة ذويك رهن تحت حيـاة هذا الغلام وهـذه المحفظة الصغيرة المختومه . احذر أن تفتح المحفظة الا فتحت باب قبرك

ثم أنطلق الفارس في سبيله كالسهم المارق.

وما وجد الشيخ محمد حسن الصنوبرى نفسه الا وحده وفي يده محفظة صغيرة مختومة بالشمع الاحمر ويد غلام لايتجاوز الرابعة من العمر والغلام لاينبس ببنت شفة كأن الجزع أخذ منه كل مأخذ . ثم رأى من بعيد بضعة فرسان قادمين أيضاً فاسرع ودخل بالغلام الى داخل المنزل ووضعه على فراش وقال له : نم الآن يابنى لاتخف . ساتيك بطعام

ثم أخبأ المحفظة في مكان خفي . وما هي الا دقيقة حتى سمع وقع حوافر الخيل . وما لبث أن سمع منادياً ينـادى : من هنا ؟ يامن هنا هلموا

فخرج مسرعا فاذا اربعة فرسان قد وقفوا أمام باب منزله وقال له أحـدهم : هل مر بك فارس منذ بعض الساعة

ـ نعم منذ ربع ساعة تقريباً

ـ هل وقف هنا ؟

فانتفض محمد جزعا وحار ماذا يقول ولكنه ماعدم جواباً فقال : نعم طلب ماء فقدمت له. فشرب ووكز جواده فغار به

ـ ماذا كان معه ؟

فاجفل الشيخ الصنوبرى وانهلع فؤاده وقال متلعثما : لا أدرى

ـ أما كان معه غلام؟

ـ لم أر معه غلاماً . ربما كان الغلام مخبوءاً تحت عباءته . وانما لحظت انه مدجج بالسلاح فلم اجسر أن اخاطبه بكلمة

ـ وماذا كان على رأسه ؟

ـ عمامة

أما بقي في هذه العزبة ؟

ـ لا ياسيدى . بل رأيته قد انطلق بجواده وتوارى

ـ اما اختبأ عندك أوعند أحد ؟

ـ كلا ياسيدى . اذا شئتم فتفضلوا افتشوا. هاالمنزل مفتوح

ـ لانرى احداً من اهل العزبة هنا فاين هم؟

ـ كلهم في الحقول والغيطان

ـ لقد انقضى النهار والشمس تغيب فلماذا لم يعودوا ؟

ـ اظنهم يبقون في الغيطان لانهم خائفون من الطوارىء

ـ مماذا يخافون ؟

ـ بلغ الينا ياسادتى ان الانجليز اصبحوا على مقربة من التل الكبير وستحدث المعركة الليلة أوغداً ونخاف ان يكتسونا كنسااذا ....

وهنا تردد الشيخ الصنوبرى فقال له ذلك الفارس: ماذا؟

ـ اذا لم يستطع جيش عرابى باشا أن يقف في سبيلهم!

ـ ولماذا تظن انه لا يستطيع؟

ـ لا ادري ياسيدي . النصر بيد الله يأتيه من يشاء .يقولون ان عند الانجليز جيشا كنجوم السماء والكثرة تغلب الشجاعة

فانتهره الفارس وقال ساخطاً .: لا - لا تخافوا .اننا منتصرون عليهم باذن الله . والحق ينتصر على الباطل .فاستدع اهل بلدك وطمئنهم ودعهم يستعدون لضيافة من الجنود التى ستنتصر قريباً

ثم وكز الفرسان جيادهم «فرمحت» بهم رمحا

وبقى الشيخ الصنوبرى وقلبه ينهلع جزعا وهو لا يفهم شيئاً من كل ما حدث

من هو الفارس الاول المعمم المتزمل بالعباءة؟ لم يره في حياته .وكيف عرفه الفارس باسمه ولقبه ووظيفته . ومن هو هذا الغلام الذي جاءه به ؟ ولماذا اودعه الفارس عنده ؟ ومن هم هؤلاء الفرسان وماشأنهم وما علاقتهم بالفارس الاول؟

كل ذلك لم يكن الصنوبرى ليفهم منه شيئاً. ثم دخل الى المنزل فوجد الطفل لايزال مستلقيا على الفراش خائفاً فتكلف البشاشة له وقال : هل تريد ان تأكل يابنى؟قم كل عسلا ولبناً . هل تحب العسل ؟

فأجاب الطفل بصوت خافت :« ايوه »

ـ قم اجلس ولا تخف

فجلس الطفل وجاء الصنوبرى بصحن فيه لبن خاثر (زبادى) وعسل وقدم له خبزاً . فجعل الطفل يأكل مستأنساً فقال له:ما اسمك

ـ اسمي جميل

ـ ما هو اسم أبيك ـ البك

ـ حسن بك أو محمود بك أو ... ؟

ـ اسمه البك

ـ واسم أمك ـ نعيمه

ـ من هو الرجل الذى جاء بك الى هنا

ـ لا أعرفه ـ أين بيتكم ؟

ـ هناك جنب الجامع

وجعل الصنوبرى يدقق في سؤال الغلام على هـذا النحو فلم يستفد منه شيئاً أكثر مما تقدم بل جل مافهمه هوأن الطفل يعيش مع أم وأخت أصغر منه اسمها جميلة وان رجلا اسمه البك يتردد على المنزل

وفيما هو يستجوب الغلام على هذا النمط جاءت زوجته وابنته وابنه من الغيط وبعض أهل البلد وسألوه من هم أولئك الذين مروا به ووقفوا عنده وماذا قالوا له ؟ فأجاب ملفقا لهم الجواب تلفيقاً لكيلا يتمادوا في التحقيق : ان الفارس الاول هو زوج بنت أختى فى بلبيس وقد ماتت امرأته وليس عنده من يرعى ابنه فأودعه عندى ربما يعود من المعسكر لانه جندى وموفد بمهمة . وسيعود بعد يومين ان لم يقتل . وأما الفرسان الاخرون فانهم ضباط في جيش عرابى وقد طافوا في هذه الجهات لكى يطمئنوا الاهالى

فصاح بعضهم : ومن يطمئن والانكليز قادمون بجيش جرار وقد شرعوا يضربون التل الكبير . الأفضل ان نعود الى غيطاننا قبل أن يكسرونا تكسيراً ويسحقوا أكواخنا سحقاً . هلم معنا يا شيخ محمد هلم والا . .

فتنهد الشيخ قائلا اما انى هالك فهالك بلا شك ولا أستطيع أن أبرح من هنا لأن سيدى على بك سيف قائد الفرقة الاولى أمرنى ان ألازم منزلي وأكون على استعداد لاستقباله اذا جاء والا جرد لحمى عن عظمى. فدعونى . ميت ميت على كل حال

المير الاى على بك سيف صاحب نفوذ فى تلك الناحية لأنه كان نظراً على أملاك على باشا الربيى صاحب أطيان كثيرة هناك وله هيبة وصولة والاهالى يخافون بطشه . ولذلك تـرك الاهالى الشيخ الصنوبرى في بيته وعادوا الى الغيطان فازعين اليها من هجمات الجنود وتركه أيضاً أولاده وزوجته وبقى هو وذلك الطفل وحدهما وكان يسمع كل برهة بعـد أخرى قصف المدافع لأن التـل الكبير لا يبعد عن تلك العزبة أكثر من ستة أميال . ولذلك لم يغمض له جفن. وأما الغلام فبالرغم من خوفه ووحشته تغلب عليه النعاس فنام ، ولا سيما لان محمد حسن الصنوبرى رق له وكان يجتهد أن يطمئنه ويؤانسه

وكان الشيخ الصنوبري يستغرب كل شيء في الطفل لأنه كان جميلا كاسمه وكان شعره أشقر وعيناه زرقاوين ، ووجنتاه موردتين ، وملابسه نظيفة بسيطة

وتأمل المحفظة مراراً ووزنها بكفه فما اشتبه بوجود نقود أو حلى فيها لانها خفيفة ، ورجح أن فيها أوراقا فقط .فلم يهمه أمرها

في آخر الليل انقطع دوي المدافع وهدأ الجو وسكنت كل حركة ، كأنه ليس ثمة حرب

ولا قتال . ترى هل انهزم الانكليز ؟

في الصباح عاد بعض الاهالي الى القرية وكل واحد يروي خبراً ، والاخبار متضاربة ، بعضهم يقول ان عرابي اسر الجنرال ونسلي وآخر يقول أن الجنود المصريين دحروا الانكليز وألقوهم في قناة السويس الى غير ذلك ، وآخرون قالوا بالعكس. ولكن كل هذه الاقوال لم تطمئن الاهالى فكانوا بين ذاهب الى الغيط وآيب . ولما مالت الشمس الى المغيب كان معظمهم أو كلهم تقريباً قد أخلوا البلدة وفزعوا الى الحقول

وتأخر مع الصنوبرى ابنه وزوجته لأنهما كانا يعدان الطعام ويجهزان بعض الامتعة لنقلها الى الغيط لئلا يمسها الجنود عند مرورهم بالبلدة .

وكانت زوجة العمدة الصنوبرى موجسة من وجود ذلك الطفل في بيتها كأنها لم تصدق قول زوجها انه ابن بنت أخته المتوفاة . فقالت له: أعلم ان لاختك بنتاً متزوجة ولكني لا أعلم أن لها ولداً. فقل لى ما خبر هذا الولد

فقطب حاجبيه وقال اذا لم تصدقى قولى فانت طالقة

فارتعدت زوجة العمدة وقالت: صدقت ولكنى أرى في ملامح الطفل ملامح الاتراك

— صمتاً يا شيطانة . ربما كان زوج بنت اختى من سلالة المماليك . فما شأنك أنت ؟ هذا ابن بنت اختى وقد ماتت أمه . وهو وديعة عندى الى أن يعود أبوه فيأخذه . فاذا لم يعجبك هذا الكلام فاذهبى الى بيت أبيك

— ياسلام يا شيخ محمد، بعد معاشرة ١٨ سنة يا خويا تقول كدا ؟ »

— أيوا «أقول والافاخرسي»

— « طيب سكت »

وانصرفت زليخة زوجة الصنوبرى الى الغرفة الاخرى مخافة أن يثور غضب زوجها لانها رأت عينيه حمراوين خلافا للعادة . ولكنها ما لبثت في زاوية خدرها حتى أجفلها قرع شديد على الباب فقالت : ياشيخ محمد، يا محمود، يابنى « أهم جم يا ويلنا »

فنهض الصنوبرى وفتح الباب وكانت الشمس قد غربت. فرأى شخصين غريبين الواحد شديد السمرة كان قد رأى رجلا مثله مرة في حياته وقيل له انه هندي «والآخر اسود حالك السواد جداً لم يفهم الا انه سودانى. وكلاهما يرتديان ملابس عربية ذات هندام وعلى رأسيهما عمامتان وفي كتف الهندى حقيبة معلقة بسير من الجلد وتحت أبط الزنجى بقجة

الفصل الثانى

شجرة نابتة من مبخرة

فاستغرب العمدة أمرهما وقبل أن يسألهما شيئاً قال الزنجى بالعربية الممسوخة ما معناه

نريد أن نكون ضيفين على الشيخ محمد الليلة وسنكافئه خيراً

— أهلا ومرحباً.ولكن ليس عندى شىء

— لا بأس لا نحتاج الى طعام ولا الى شراب ولا نبتغي غير المأوى للصباح

— ولكن كل أهل البلدة خرجوا الى الغيط لانهم خائفون من اكتساح الجنود بلدتهم الليلة .

— لا تخش بأساً ياحضرة الشيخ.فجنودنا ستنتصر على الانكليز وتدمرهم وغداً تسمع الخبر اليقين

فاختلط الامر على محمد الصنوبرى وقال مرتبكاً مضطرباً : كيف تعرف ذلك يا آغا ؟ هل عندكم أخبار

— لا لا وانما الشيخ شندى لال الهندى يعرف بعلم الجفر.وقد ضرب الرمل وتأكد أن الانكليز الليلة سينكسرون وينهزمون وسيتبعهم جيش عرابى ويرميهم في قناة السويس . ولهذا نحن جئنا لكى نسير وراء الجيش ونغنم من الغنائم الخفيفة التي يتركها الجيش الانكليزى وراءه.واذا شئت فأخذك معنا ونقاسمك الغنائم

فأشرقت أسرة الصنوبرى وقال:اذا حدث كما تقول فيكون الشيخ شندى يعرف علم الجفر حقيقة .

فتبسم الزنجى وظهرت دراريء أسنانه في ليل وجهه القاتم وقال : هذا أمر لا يحتاج الى برهان غير الصبر لغد أو لبعد غد ، ولكن في امكان الشيخ شندى لال أن يبرهن لك على مقدرته الآن

ثم التفت الزنجى الى الهندى وقال:ماذا عندك هنا يا شيخ شندى لال وماذا تجد هنا؟

فتلفت شندى لال هنا وهناك وهو يتمتم ويغمغم ويهذرم ويعزم ثم قال:في هذه الزاوية نجد عشرين قطعة ذهبية من العملة القديمة التى تساوى القطعة منها نحو ربع الجنيه وهي مخبوءة منذ عشرسنين هنا . هاتوا معولا صغيراً فأريكم

ففى الحال جاء الصنوبرى بالمعول فأخذه شندى لال وجعل ينكت به التراب في الزاوية. وبعد خمس دقائق اعمل أصابعه في الحفرة ثم استخرجها فاذا بينها القطع الذهبية تلمع ثم جعلت تتساقط والزنجى يلتقطها ويعدها فاذا هى عشرون واحدة.فسلمها للعمدة وهذا مدهوش مستغرب

ثم تلفت شندى لال هنا وهناك أيضا وهو يتمتم ويغمغم . ثم همس في أذن الشيخ الصنوبرى

قائلا في المنزل أيضا غلام صغير غريب مجهول

فارتعد العمدة وانتفض فؤاده وقال.ويحك هذا ابن بنت اخي

فتبسم الهندى وقال: لاتنكر علي الحقيقة ولا تخف من كلامى . ان وجود هذا الغلام عندك بركة لك وستحصل بسببه على نعمة عظمى

فتنهد الصنوبرى الصعداء وقال متلعثما: بربك كيف عرفت ؟ هل تعرف ...

ــ نعم رأيت روح الغلام ترفرف في هذه الغرفة وهى مطمئنة غير خائفة واطمئنانها يدل على حسن حالك في المستقبل

فازداد الصنوبرى اضطرابا واتسع صدره آمالا وقال . هل تستطيع أن تعلم شيئا عن هذا الغلام ؟

ــ بلا شك أستطيع أن أعرف كل شئ عنه حتى مالا يعرفه أهله عنه . فهاته الى هنا أخبرك كل شئ

ــ قد يخاف

ــ لا . لا . أنا أدعه يأتنس . الي به فأريك ماذا يكون من أمره ومن أمرك معه

فمدد الصنوبرى في أول الامر متذكراً وصية ذلك الفارس وخاف سوء المغبة ولكن الهندى الساحر شندي لال بش له وقال: لاتوجس شراً. انى ضيف كريم . وقد اكتشفت لك سعادة عظمى ستنالها عن يد هذا الغلام المحبوه عندك .فهاته لكى أقرأ لك مستقبلك معه

فتشجع الصنوبرى ودخل الى مخدعه وجاء بالصبي ملاطفا له . وحاول شندى لال أن يبش للطفل ما استطاع حتى لاينفر منه

ثم قال للصنوبرى: انى أريك الان أهل هذا الطفل وبيته والحى الذى كان فيه وكل شئ مختصا به

ثم فتح الهندى بقجته وحقيبته واستخرج منهما مجمرة وفحما وأوقد الفحم فيها ووضع عليه أنواع البخور المختلفة الرائحة وهو يتمتم ويغمغم ويقول للعمدة: انظر . ابصر . ماذا ترى انظر ابصر انظر هذا . هذاك.انظر.ها الشجرة

أما العمدة فكان يتنشق دخان المجمرة الذى ملأ المكان وما لبث أن شعر بدوار بسيط .ثم استولى عليه مثل ذهول كأن سحراً وقع عليه او حلت عليه جنية خبيثة،فلم يعد ينطق ببنت شفة بل كان ينظر ويسمع كلام الهندى ويرى رؤى مدهشة لم يرمثلها في حياته ولا خطرت له قط

كان يرى المجمرة في وسط الغرفة والدخان الذكى الرائحة يتصاعد منها حتى امتلأ المنزل دخانا ولكن الدخان لم يكن قاتما بل كان كأنه نور مالئ الغرفة.وكان يرى الغرفة تتسع تدريجيا حتى صارت داراً واسعة جداً ومرتفعة ولها قبة لايكاد يرى أعلاها

كان يرى أو يتوهم أنه يرى كل ما كان الهندى يقول له أنه يراه أو يأمره أن يراه أو يوهمه أنه يراه

ثم جعل يرى في المجمرة نباتة تنبت وتنمو نمواً محسوسا رويداً رويداً حتى صارت شجرة. وصارت الشجرة تكبر وتنبسق وتشمخ وتمتد فروعها وتزداد حتى ملأت ذلك المكان المتسع.

ورأى أوراق الشجرة كأنها مصوغة من الذهب وفروعها صفراء ذهبية ثم صار يرى أوراق الشجرة نورانية شفافة

ثم رأى الصبي نائما وقد حمله الهندى شندى لال تحت ابطه وصعد به على الشجرة الى أن صار بين فروعها وأومأ الى الزنجي والشيخ الصنوبرى أن يتبعاه. وكان يسمع صوت الهندى ضعيفا وهو يقول :اتبعني ياشيخ محمد ياحسن الصنوبرى . اتبعني على الشجرة فأريك قصر أهل الغلام وحديقتهم وعزهم . هلم اصعد . انك لنشيط خفيف الآن

ورأى الصنوبرى ذلك الزنجي يصعد بسهولة على الشجرة . فتبعه وصعد وهو يستسهل الصعود والهندى يغلغل بين أفنان الشجرة والزنجى يغلغل الى جانبه والولد تحت أبط الهندى وهو صاعد على الشجرة بين غصونها .وأخيراً توهم الصنوبرى نفسه انه قد أصبح فوق الارض عشر قامات كأنه طائر. وأطاف نظره فاذا به يرى نفسه قد اعتلى فوق الغصون،ورأى أن الشجرة في حديقة غناء فيها البرك والمياه الصافية والاسماك الملونة ،وفي وسط الحديقة قصر فسيح بيل لامتيل له . ثم شعر أن الهندى قد تأبطه وطار به الى شرفة القصر ودخلا والولد لايزال نائما تحت أبطه الآخر أيضا والزنجى معهما

ثم ألقى الهندى الغلام في سرير مذهب وجعل يطوف بالصنوبري في القصر ويريه ما فيه من تحف ورياش الى أن وصل به الى غرفة فيها سرير أنيق فاستلقى عليه الصنوبرى ليرتاح فما لبث أن أغفى

***

ذلك كان آخر عهد الصنوبرى في رؤياه العجيبة المدهشة التي زينها له سحر الهندى وبالاحرى دخان بخوره المسكر وكلامه المغناطيسي الموهم .وقد استغرق في النوم كأنه في سبات.وما صحا الا بعد حين اذ روعه دوى البنادق فهب مذعوراً مرتعبا. فاذا به يرى نفسه في أرض غرفة منزله التي كان فيها ولا يزال المصباح مضيئا .ولكن لاشندى لال الهندى ولا الزنجي ولا الطفل موجودون . وانما كان ازيز الرصاص يرج منزله فهرع الى مخدعه فاذا زوجته وابنته مذعوران أيضا . وقد لجأا الى الزاوية وأخذا أنفاسهما وهما لايدريان ماذا يفعلان

وانضم اليهما وقال :ويلاه ماهذا ؟

فهمست زوجته قائلة . نهرب من الشباك

فأجابها قائلا : انى أسمع الرصاص يدوى من جهات المنزل الاربع :فأى شباك تريدين أن تسلمي روحك منه بالعينة

وصمتوا جميعا وبعد دقائق معدودة سكن دوى الرصاص ثم سمعوا القرع على باب المنزل

الفصل الثالث

خيانة تلد خيانة

قبل أن نستمر في الحديث نعود الى ذلك الفارس الذى أودع الطفل عند الشيخ الصنوبرى فانه ماصدق أن تركه الطفل في عهدته حتى وكز جواده فاندفع به كالبرق الخاطف لايلوى على شيء الى أن بلغ الى معسكر عرابى واندفع لايحيد الى أى جانب حتى وقف في محلة الميرالاى على بك سيف قائد فرقة المقدمة . وكان الليل قد سدل ستاره فاستقبله الميرالاى مستغربا وأدخله لى خيمته وسأله همساً : هل انقذته ؟

ـ بلا بد وأودعته عند الصنوبرى

ـ مرحى . بورك بك ياحسن ياسمهرى . هل تظن أنه سلم

ـ لاريب أنه سلم . وانما كان على قيد شعرة من الخطر . فان حسنا وحامد بك المهندى وآخرين من صنائعهما كانوا على أهبة أن يسطوا على المنزل ويخطفوا الطفل أو يقتلوه . ولا يردهم أحد عن قتل كل من يقف في سبيلهم اذ لايخفى عليك أن الحالة أصبحت فوضى في البلد وكل من له خصم أو عدو صار يستسهل اغتياله وينجو من العقاب

وكان الميرالاى علي بك سيف يسمع الحديث مكفهراً قليلا . فقال حينئذ : اذن كان انذار عنبر آغا في محله . شكراً له . ولكن كيف عرفت أنهم كانوا على أهبة أن يسطوا على المنزل؟

ـ لانى شاهدتهم راكبين جياداً ومتجهين الى البلد . فأخذت المفرق الآخر من الطريق قبل أن ألتقى بهم فما اشتبهوا بى لانهم لم يعرفوا من أنا . ولكنهم متى وصلوا الى المنزل ولم يجدوا الطفل فلا بد أن يخامرهم الشك بالفارس الذى انعطف في طريق آخر . ولذلك اعتقد أنهم تعقبونى مسرعين من غير أن يدركونى

ـ الا تظنهم رأوك حين توقفت في عزبة طنوف ؟

ـ لاأظن . لانهم لم يدركونى ولا ببصرهم

ـ وهل فهم الصنوبرى أن الغلام يخصنى ؟

فارتبك الشيخ حسن حسنى السمهرى وقال متحيراً : ماذا تعنى ؟

ـ . أعنى . أما قلت له انك موفد اليه من قبلي؟

ـ لا . لانك قلت لي قبلا أنك ستقابله وتخبره أن رسولا من قبلك سيأتيه بغلام ويجب أن يحتفظ به عنده ويخبئه . فلما دفعت له الغلام كنت اعتقد أنه عالم بأمره .

فصفق الميرالاى علي بك سيف كفاً على كف وقال : يالله ! اذن . الصنوبرى لم يعلم شيئا عن أمر الطفل . ويلى منك يارجل !

ـ عفواً ياسيدى ومعذرة

ـ أجل عليّ معظم اللوم . لاني لم أستطع أن اترك المعسكر ولا ساعة لكي أذهب لمقابلة الصنوبري وأفهمه شأني بالطفل ولا كنت أثق برسول أوفده اليه أفما ذكرت له اسمي ؟

ـ كلا البتة . بل قلت له هذا هو الغلام وهذه هي الحفظة . فلم يسأل شيئا عن أمرها . فاعتقدت أنه عالم به ولكن لا تحب ان أوصيه وشددت عليه النكير وتهددته اذا كان يعترف بالغلام لاحد ، بل عليه أن يدعي أنه ابن أحد ذوي قرباه وقد أودعه عنده مؤقتاً لان أمه ماتت

فتململ علي بك سيف وقال : ان هذا التحذير غير كاف . يجب أن تعود اليه الليلة وتحذره وتفهمه أن الغلام يخصني

فما تردد حسن حسني السمهري في أن ركب جواده وطار به . وبعد نحو ساعة عاد يقول للاميرالاي : أن ذهابي الى الصنوبري أصبح خطأ وخطراً على الطفل لان حسن بك المهندي وأخاه ورفيقهما النقواني ، اشتبهوا بغرضي فتبعوني فاذا بلغت الى الصنوبري ثبت لهما ان الغلام هناك

ـ وي وي . لاتذهب الى هناك لاتذهب والا هلك الغلام لامحالة . وما داموا يحومون في تلك الجهة فلا ريب انهم لم يهتدوا للغلام بعد

ـ سمعاً ياسيدي . خطر لي خاطر

ـ ماذا ؟

ـ ألا تقدر ان تستصدر أمراً من عرابا باشا بالقبض عليهم وتجنيدهم

فضحك علي بك سيف . وقال : قبل ما يأتي الترياق من العراق يكون الملسوع قد فارق . نحن على اهبة المعركة الحاسمة . فاذا لم نحدث المعركة الليلة فلابد أن نحدث غداً . فلم يبق وقت لاستصدار الاوامر . ماذا يقول الناس وماذا سمعت من الاخبار ؟

ـ القول الشائع ان الانكليز هلك نصفهم ونحن لم نخسر الا بغلة ونصف فرس

ففهقه الميرلاي وقال :

ـ بئس الغرور . اما سمعت بقول آخر .

ـ بلى . سمعت بقول خطير الشأن

ـ ماذا ؟

ـ أن الجنرال الانكليزي المدعو ولسلي سيدخل بجيشه الى القاهرة في ٢٥ من هذا الشهر ، أي يوم الجمعة

ـ قيل هكذا ، ولكن الناس استهزأوا بهذا القول . لا يستهزئون الا بأنفسهم

ـ عجباً ! حضرتك في المقدمة وتقول هذا القول ؟

ـ نعم لأني عالم بالحقائق . عند الانكليز رجال مخلصون يلوح لي أن في ضميرك شيئاً تتردد في أن تقوله

ـ نعم

ـ ما هو ؟ قل

ـ أعرف عربياً من عربان الهنادي

ـ واذا كنت تعرفه فماذا ؟

ـ في امكاني أن أرسله برسالة شفهية الى...

ـ الى معسكر الاعداء !

ـ لا بل الى شيخ قبيلة الهنادي الذي يقال انه عالمٌ لهم

— ثم ماذا؟

— يبقى الشغل شغلك يا سيدى البك

— دعنا من هذا ياحسن دعنا .أظن أن الانكليز يتحركون الآن فانى أسمع دوى الرصاص والقنابل . الافضل أن نرجع الى الوراء وعلي أن أنشط بجنودي وأنا في المقدمة وعلي كل الضغط . قم حالا .ان الانكليز ناشطون الآن والارجح ان تحدث المعركة الحاسمة الليلة . وعلى الغالب انى سأهلك فيها مع فرقتى فدية لعرابى وأعوانه . أود أن أنتهر في صلح . ولكنى لا أتقهقر في قتال مهما كان الأمر

— ولكن يا مولاى لا يزال باب السلامة مفتوحاً .

— كلا كلا.ألا تسمع الدوي ؟ فاذا قتلت فعليك أن تنفذ وصيتى . ولى ثقة كبرى فيك . فاسمع قبل أن تبرح

— قل يا سيدى والله خير الشاهدين

— تبذل جهدك في الحرص على الطفل وفي حمايته من طالبي حياته وفي تربيته سراً حتى يترعرع . ثم تبذل جهدك في تزويجه ببنتى الوحيدة جميلة . وبعدذلك تفتح المحفظة المختومة التى أودعتها مع الطفل عند الصنوبرى وترى ان كان في امكانك أن تنفذ ما فيها . فان استطعت أن تفعل ذلك فلك الحق أن تستولى على الخمسين فداناً التى لي في بلبيس ، هذه ورقة بخط يدى لا تعد نافذة الا بعد موتى، وبموجبها لا تستطيع أن تفعل ما قلته لك . فلاتفض ختمها ولا تطلع عليها الا اذا مت

عند ذلك وقعت قنبلة على مقربة من خيمة المير الاي ذعر لها حسن حسني السمهري حتى جعله يثب فوق الارض نحو متر . فقال له المير الاي علي بك سيف : اسرع . اسرع وانج بنفسك .

☆☆☆

واشتدت المعركة في تلك الليلة وأظهر المير الاي علي بك سيف براعة في القيادة وبسالة تذكر حتى اسكت مدافع الانكليز وبنادقهم . وبعد منتصف الليل ساد السكون حتى الصباح

وانقضى النهار التالي في نشاط عظيم في معسكر عرابى استعداداً للمعركة القادمة . وانعقد مجلس أركان الحرب غير مرة . وأما علي بك سيف فكان يقظاً جداً في تلك الليلة . وماحيم الظلام حتى دخل الى خيمته امام أركان حربه الصاغ حمدي افندي يقود اعرابياً متزملا بعباءة رثة . وقال : هنا يا جناب المير الاي رجل يريد منك حاجة وقد جاء ليعرضها عليك بينك وبينه

ولما خرج الصاغ حمدي دخل العربي وخلع عباءته فظهرت من تحتها عباءة فاخرة وظهر العربى حسن البزة . فقال له علي بك: ما حاجتك يا شيخ العرب !

فقال العربى: انى واسطة خير وأود السلامة لبني ديني ووطني

— بارك الله بك

— اذا شئت أن تستخلص نيتي فتسمع

مقالي فان اعجبك كان خيراً والا فلا قلتم ولا قلنا . ولا كان الذى جرى منا . أنا وسيط للخير فلا تحسبني مجرماً

ـ عليك الامان يا شيخ . قل

أرى يا حضرة الميرالاي أن نتيجة القتال أصبحت معلومة ، كما تعلم انه بعد بضع ساعات تطلع الشمس .

ـ عجباً . من يعلم غامض علم الله ياشيخ العرب .

النتائج تعرف بمقدماتها يا سيدى . أن الجنود الانكليزية تكاد تبلغ ضعفي جنودنا ووراءهم مدد لا نهاية له ومؤونة وذخيرة بلا حساب . فاذا صمدنا لهم يوماً أو أسبوعاً أو شهراً فلا نستطيع أن نصمد لهم عاماً ، أما هم فيصمدون أعواماً . وقد خسرنا معارك الاسكندرية وأبي قير وكفر الدوار والمسخوطة والاسماعيلية والمحيتم والقصاصين وو... وسنخسر معركة التل الكبير والزقازيق وبلبيس الخ. وأخيراً سيدخلون غازين و يملكون رقابنا بحق الفتح . فلماذا لانختصر الحرب قبل أن يتسنى لهم أن يدعوا هذا الحق. لايزالون حتى الآن يقولون انهم يحاربون جنوداً متمردة لاجل تأييد الاريكة الخديوية . وغداً سيقولون انهم يحاربون لأجل شرف جنديتهم لانهم لايحتملون أن يقال عنهم انهم انكسروا . وبعد غد يحاربون انتقاماً منا . وبعد بعد غد يدعون امتلاك البلاد لانهم بذلوا فيها دماءهم وأموالهم ويحاربون لتطهيرها من أعدائهم ونصبح عندهم غرباء في بلادنا. فلماذا لانقطع عليهم الطريق بحسن السياسة قبل أن يستفحل الخطب وتتعذر ملافاة المصيبة ونحقن دماء رجالنا ؟

وكان الميرالاي يسمع الحديث مصغياً هادئاً منتبهاً فقال : ان كلامك حكمة ياشيخ العرب . ولكنى لست الاضابطاً في مقام قائد صغير الآن. فسأعرض الامر على الباشا (عرابي) . فاهي شروط الانكليز للصلح ؟

ـ ياحضرة البك . الانكليز لايعرضون صلحاً ولا يقبلون شروطاً . وانما نحن يجب أن نتلافى الخطر قبل وقوعه . فاسمعني وطاوعني

ـ عجباً ؟ ماذا تريد ،

أريد أن لا تعرض الأمر على أحد ولا تشاور الباشا لأن الموقف لا يحتمل مناقشات ولا متسع للمشورات . وعرابي باشا متهور لاينصاع لرأي أحد. فاذا شاورته أفسد التدبير كله

ـ ما هو التدبير ؟

ـ لا أخفي عليك أن الانكليز هاجمون الليلة هجمتهم الأخيرة ومهما كانت قوتكم فلا تستطيع الوقوف في سبيلها . فحقناً للدماء يحسن بك أن تطمئن الجيش وتخلي السبيل ، هذه نصيحة مخلص فافتكر فيها يا بك. السلام عليكم، سنلتقي ان شاء الله

ونهض الشيخ العربي يريد الخروج ، فقال له علي بك : مهلا يا شيخ مهلا ، دعنا ننته من الحديث

ـ لقد انتهينا يا بك ، وأنت صاحب الأمر والنهي

ـ لا . لم ننته بعد . ألا تبدي الجواب؟

ـ ليس للمسألة الا جواب واحد . أجل سهوت عن أمر « المكافأة » فهذه محفوظة . وأنا ضامنها

ـ لا . لا . ليس هذا قصدى يا شيخ وانما ألا نعود ...

ـ لا لا . لم يبق متسع من الوقت . في منتصف الليل يجب أن يكون كل شيء قدتم . السلام عليكم

***

وخرج الشيخ وترك الميرالاي في بلبال . وما لبث حسن حسني السمهرى أن دخل . فسأله علي بك ما وراءك يا حسن

ـ أخاف يا سيدي أن يكون أولاد المهدي قد أوشكوا أن يهتدوا الى الطفل

ـ ويحك كيف ذلك ؟

ـ أراهم حائمين على مقربة من عزبة طنوف وهم يرسلون الرسل الى هنا وهناك ويأخذون أخباراً ويعطون أخباراً .

ـ ويحهم ! اذا اهتدوا للطفل قضوا على مشروعي العظيم .

فقال السمهري : وأنا أقول لك اذا انكسر جيشنا العرابي أصبح هؤلاء الطغام مستفحلين لأنهم من الحزب المضاد وحينئذ يفعلون ما يريدون فلا يقتلون الطفل فقط بل ينتقمون من كل من يخص الطفل

ـ ولكن ابن عمهم على باشا الربيبي من الحزب العرابي . فهل يكونون ضد ابن عمهم ؟

ـ ويحهم . لا أطيق أن أكون تحت رحمة هؤلاء الطغام

ـ لعله لا يفنى عليك يا سيدى ان يعدونك ألد خصومهم

ـ اني عالم ذلك . وسوف أنتقم منهم ان أموت يا سمهري بل سأعيش لكي أنتقم من هؤلاء وأبلغ أمنيتي . عد وراقبهم . وسألاقيك بعد منتصف الليل عند ترعة الهانم . هل تعرفها أين هي

ـ أعرفها جيداً ـ انتظر نى هناك

وخرج السمهرى . فاستدعى الميرالاي علي بك سيف الصاغ حمدى وقال له . اذهب الى الباشا وأبلغه ان عندى معلومات وثيقة أن الجيش الانكليزى لا يخرج للقتال الليلة بل هو يستعد للمعركة غداً أو بعد غد فهل يريد أن نهجم أو نتربص ونستعد نحن أيضاً ؟

فذهب الصاغ حمدى وبعد ساعة عاد يقول: ان الباشا يأمر بالتربص ويود أن يرتاح الجيش الليلة . ثم أخذ الصاغ من جيبه نسخة من جريدة الجوائب التى كانت تصدر من الاستانة ودفعها الى علي بك فقال له : ما هذه ؟

ـ جريدة عثمانية يا مولاى . اقرأ فيها منشور جلالة السلطان

فجعل علي بك يقرأ منشوراً شاهانياً ينص نصاً صريحاً على حسبان عرابي وأعوانه جنوداً عصاة متشردين يجب قمع ثورتهم واخضاعهم وعقابهم .

فوثب علي بك من مكانه مستشيطاً وقال ويحهم من ناكرين الجميل . نحن نحارب مدافعين عن حقوق الدولة العلية في مصر فاذا

بسلطانها ووزرائها يحسبوننا خونة متمردين . ويحهم من مرائين . هذه مكيدة درويش باشا مندوب الدولة الذى جاء لكى يصلح الامر فأفسده وخدم مآرب الانكليز . تباً للمنافقين المارقين . نحن نحارب ونسفك دماءنا لأجل الدولة والوطن وهم يحسبوننا خونة متمردين .

كيف حصلت على هذه الجريدة يا حمدى

ـ مولاي انها منتشرة بين أيدي الضباط والظاهر أن الانكليز أرسلوا جواسيس فدسوا نسخاً كثيرة منها بين رجال الجيش

ـ قاتلهم الله . اذاً نحن نتهالك في سبيل غرورنا . وعلى م سفك الدماء ؟

ـ ان الباشا يا سيدى لفى قلق عظيم وهو يجمع القواد ويشاورهم

ـ عجباً ولا يسألنى رأيى ؟

ـ انه مدخرك يا مولاى للدفاع الاول

ـ الدفاع الأول ؟ أيريدون أن أضحى بجنودى لأجل هوسهم ؟ وماذا يقول الضباط الذين اطلعوا على هذا المنشور ؟

ـ كما تقول أنت يا سيدى

ـ اذاً فقد الجيش قوته المعنوية . اذاً يريدون أن أحارب وحدى وافتدى الوطن وحدى . الا خسئوا . قل لجميع ضباط فرقتنا أن ينسحبوا بالجنود الى ماوراء الاستحكام نحو ميلين من غير أن تسمع لهم حركة ولا ضوضاء وأن تتجمع قوتنا في الشرق الجنوبى من خط القتال على بعد ميلين

ـ مولاى أتنفصل عن الفرق الأخرى؟

فصاح به على بك : هذه أوامرى . فعليك الطاعة بلا اعتراض . انى متحمل كل مسئولية

وما كانت الساعة الحادية عشرة حتى أصبحت فرقة على بك منفردة وبعيدة عن خط القتال نحو ميلين وبعد منتصف الليل زحفت العساكر الانكليزية وفي مقدمتها بعض الضباط المصريين الذين كانوا من حزب الخديوى وأمامهم عربان الهنادى يرشدونهم الى الطريق. فمروا لدى فرقة على بك سيف من غير أن يطلق هؤلاء عليهم رصاصة واحدة كأنهم على الحياد الى أن بلغوا الاستحكامات ، فجعلوا يطلقون عليها النار الحامية ، فهبت جنود عرابى مذعورة لهذه المباغتة وفرت نافرة مروعة بلا قيادة وتشتت هنا وهنالك. وعرابى وأعوانه ينادون القواد والضباط ولا من يجيب الى أن وقعت على خيمة عرابى ، فبلة فنسفتها . فرأى عرابى أن المكابرة لم تعد تجدى . فركب جواده وفر يتبعه عبدالله نديم . وحاول بعض فرسان الانكليز ادراكهما فلم يستطيعوا

ولما بلغا الى محطة أبى حماد أمرا السائق أن يسير بالقطار بهما مسرعاً . ولما تردد تهدداه فاطاع فسار بهما الى القاهرة

وفي القاهرة جمع عرابى ذوي النفوذ وحاول انهاض قوة المقاومة من كبوتها فأخفق فأرسل هو ورفاقه عريضة الى الخديوى يعلنون توبتهم ويلتمسون العفو . ولكن لات حين عفو . فقبضوا عليه وعلى بعض رفاقه وحاكموهم ونفوهم كما يعلم القارىء

الفصل الرابع

اسحر ام شعوذة

والذى يهمنا من هذا الحادث ما كان من أمر الميرالاى علي بك سيف فانه اجتمع بالسمهرى في المكان الذى عينه له ومعه بعض رجاله الاخصاء . وترك جنوده لانفسهم ومضى برفاقه تواً الى عزبة طنوف. وما ان اقترب الى العزبة حتى شعر أن فرساناً يتقدمونه فقال للسمهرى: أظن أن أعداءنا المهنديين يقصدون الى العزبة يا سمهرى

ــ لا شك في ذلك يا سيدى. والظاهر أنهم علموا أننا ماضون الى هناك فثبت لهم أن الغلام في العزبة فأسرعوا يريدون أن يسبقونا اليه

ــ اذاً ويحك . أسرعوا يا رجال لا بد أنهم يطرقون بيت الصنوبرى أولا . هلم يارجال

ووكز الرجال جيادهم وعددهم ستة ماعدا الميرالاى والسمهرى . وما زالو « يرمحون » حتى أدركوا المهنديين عند باب العمدة الصنوبرى . فتبادلوا جميعاً اطلاق الرصاص نحو دقيقة ولكن المهنديين رأوا أنهم لا يقدرون على خصومهم فولوا الادبار بعد أن أصيب أحدهم اصابة غير قاتلة .

ثم تقدم الميرالاى علي سيف وقرع الباب القرعة التى روعت الصنوبرى أكثر من اطلاق الرصاص كما علم القارىء فاستسلم المقادير . ولكن الباب لم يثبت أمام رفسة علي بك. فانفتح على مصراعيه ودخل يتبعه السمهرى . على أن الفرسان الستة بقوا حراساً يحرسون المنزل . وتقدم علي بك والسمهرى يطوفون في المنزل الى أن بلغوا الى الزاوية التي كان فيها الصنوبرى وزوجته وابنه . فلما رأوه تنهدوا الصعداء ولكن الخوف الشديد كان قد عقد ألسنتهم فقال علي بك اطمئنوا لا تخافوا . املكوا روعكم لا بأس عليكم . انى أشم رائحة غريبة لا هي عطرية ولا هي كريهة كل الكراهة . فاذا جرى . أين الطفل ؟

فجعل الشيخ الصنوبرى ينتفض جزعاً ويحاول أن يتكلم ولكنه لا يستطيع كلاما . فقال له علي بك . لا تخف . أنت في مأمن الآن فتكلم . أين الطفل؟

ــ مولاى . طار .

ــ ويحك كيف طار

ــ نعم طار به الهندى الى . .

ــ تباً لك ، كيف يطير . ما هذا الكلام قل لى ماذا جرى للغلام . أين هو !

ــ مولاى آخر عهدى اننا دخلنا معاً الى قصر عظيم لم أشهد مثله في حياتى وبه حديقة ليس في العالم مثلها، لعلها الجنة . وهناك ألقيناه على سرير من الذهب لأنه كان نائماً ونحن طفنا في الجنة حتى تعبنا فنمنا . وما صحونا الا على دوى اطلاق الرصاص

فكاد الميرالاى على بك ينقض عليه ويخرطه نصفين بحسامه لولم يمسك السمهرى بذراعه هامساً قائلا : ياسيدي اذا قتلته لانعود نعرف مصير الطفل . اطل اباتك ودعنا نستجوبه برقة ولطف لكى نعرف الحقيقة منه

ثم تقدم حسن حسنى السمهرى اليه وقال: يلوح لى ياشيخ محمد انك لانزال جزعاً خائفاً تقول مالا تفهم . فاستيقظ وتحقق انك في أمان الآن. فماذا جرى بالطفل؟

فقال محمد حسن الصنوبرى لقد وثقت بوجود سيدى على بك انى فى أمان واطمئنان. وأنا مستيقظ جيداً وأفهم ماأقول. ولذلك أخبركم أن الطفل لايزال نائما في قصر الجنة

ـ ياشيخ ماهذا الهذيان ؟

ـ صدقنى ياسيدى ان الهندى صعد بنا على الشجرة العظيمة التى جذعها وغصونها من ذهب لامع وأوراقها من نور شفاف حتى وصلنا الى الحديقة البهيجة ودخلنا الى القصر العظيم الفخم الجميل ونمنا هناك . والظاهر ان الهندى حملنا ونحن نائمون وعاد بنا الى هنا . وترك الطفل في القصر

فقال على بك لاريب أن الصنوبري قدجن أو انه يتظاهر بالجنون لكى يتخلص من المسؤولية، انى أسحق رأسه سحقاً اذا لم يرد لى الطفل

فانبرت زوجة الصنوبرى وارتمت عند قدمى على بك وقالت : مولاى حلماً ورحمة ورأفة . ان سيدى الشيخ محمد صادق. وقد صعدنا نحن وراءه على الشجرة وشاهدنا ما شاهده وقد ترك الهندى الطفل نائما في القصر

فسخط على بك وقال: ويحك وأنت تزكين أفك زوجك ياالعينة ؟ وهل تصدقين أن هذا الهذيان يجوز عليّ ياخبيثة . أين الولد ؟

فانبرى ابن الشيخ الصنوبري وقال : والنبي العظيم الكريم ياسيدى . أنا طلعت أيضاً على الشجرة وشاهدت الجنة

فقال السمهرى : حلماً وصبراً . وأين هي الشجرة ؟

فقال ابن الصنوبرى أنا شاهدتها ياسيدى تنبت من مجمرة الهندى في وسط هذه الغرفة . والغرفة تتسع كلما نمت الشجرة وكبرت حتى أصبحت الشجرة عظيمة جداً ولم أعد أرى سقف المنزل

فتململ على بك وقال: يكفى هذا الهذيان ياملاعين

فقال السمهرى: وأين الهندى وماهي حكايته

فقال الصنوبرى: الحكاية بسيطة أنا أرويها بالتفصيل

وجعل الصنوبرى يحكى الحكاية من أولها الى آخرها كما عرفها القارئ بكل تفصيل وعلى بك والسمهرى يسمعان ويستغربان هذا الحديث الغريب . الى ان انتهى الصنوبرى فقال على بك: كل هذه الحكاية الملفقة لا تجوز عليّ ياشيخ محمد . يجب أن تخبرنى لمن سلمت الطفل؟

وجعل الشيخ محمد الصنوبرى يقسم ويحلف بالطلاق ان الحكاية صحيحة . وكان ابنه وزوجته يزكيانها. فقال السمهري : لاريب انها صحيحة

ياسيدى البك لاننا لا نزال نشم رائحة بخور الهندى فلا ريب أن الهندى سحرهم وأخذ الطفل

فقال على بك : بل قل ضحك على عقولهم وما سحره الا هذا البخور الذى يحتوى على مخدرات هندية مختلفة كالحشيش ونحوه مما اذا سكر منه من يشمه رأى أحلاماً ورؤى عجيبة كهذه الرؤيا كما يوجهها اليه كلام الهندى الساحر

فقال الصنوبرى : صدق يا سيدى ان ما رأيته كان حقيقة لانى لم أنم بل كنت صاحياً حين كان الهندى يحرق البخور والشجرة تنمو

فصاح به على بك وقال : كفى ياشقى كفى. لقد ضحك الهندى والزنجى عليك وخطفا الولد. كان يجب عليك الا تدع هندياً ولا زنجياً يدخل عليك أو يبيت عندك . لقد ضيعت الطفل يا امين

والتفت على بك الى السمهرى وقال: لاريب أن آل الهندى قد بعثوا بهذين الهندى والزنجى لكى يسرقا الولد بهذه الحيلة من هنا

ـ لا أظن ياسيدى ، لان آل الهندى مسلحون جيداً فلا يصعب عليهم أن يأخذوا الطفل بالقوة لو لاح لهم انه هنا . وما كانوا حائمين فى هذه الغيطان الا لانهم لايدرون أين الطفل مخبوء ، وكانوا يتربصون لما ليعلموا أين نذهب فيفهمون أن الطفل يكون حيث نتجه

ـ كلامك هذا معقول . ولكن ألا يمكن انهم اتفقوا مع الهندى والزنجى من قبل على التجسس على مقر الولد والاحتيال لخطفه وتركوهما يشتغلان شغلهما مستقلين. ولو بقى الغلام فى المنزل الذى كان فيه أولا لاحتال الهندى والزنجى حيلته في ذلك المكان . ولا ريب انهما قصدا المكان الاول على أثر اخذك الطفل منه فعلما انك أخذته فتأثرا لك خلسة وبحثا سراً حتى علما أن الغلام هنا فاحتالا لاخذه . كل ذلك من غير أن يعلم آل الهندى انهما يشتغلان شغلهما. ولذلك بقى آل الهندى يسعون مساعيهم من غير اعتماد على الهندى ورفيقه الزنجى

ـ وهذا معقول ياسيدى البك وسنرى ان كان المهنديون يكفون عن البحث عن الغلام فيكونون قد ظفروا به والا فيكون الهندى والزنجى غير متفقين معهما

فلطم على بك كفاً على كف وصاح: ويحهم من اشرار . اذا ظفروا بالطفل قتلوه لامحالة لان حياته غريمهم . لايريدون أن يعيش . آه . واحسرتاه على جميل ! انى أحبه كابن لانى ربيته من قبل فطامه حتى الآن . لقد أخذ هذا الطفل منزلة في فؤادى . ان فقده لغصة لى . آه يا ولدى يا جميل

وكان أسف على بك على فقد الطفل شديداً. فجعل السمهرى يعزيه ويقول له : لاتقنط ياسيدى. عسى أن تكون كل تخميناتنا هذه خطأ . وعسى أن نهتدى الى الهندى ورفيقه الزنجى

فتنبه على بك لامر وصاح : الله أكبر . ألا يكون الزنجى هو عنبر أغا نفسه وقد احتال لتخليص الولد من أولئك الاشرار ؟

ـ من هو عنبر أغا ياسيدى ؟

ـ هو الآغا الذى عند على باشا الريبى ابن عم المهنديين، لانه هو الذى انذرنى بما كان

هؤلاء ينوونه من اغتيال الطفل. هلمّ ياسمهرى. هلم نرحل قبل أن يملأ الجيش العرابى المنهزم هذه الغيظان . يجب أن ننصرف من الطريق الخطر . الى مصر ياسمهرى . هات ياشيخ محمد المحفظة التى اودعها عندك السمهرى ، ان كان الهندى لم يهتد اليها

فنهض الصنوبرى وبحث عن المحفظة حيث خبأها وقدمها لعلى بك

وقال السمهرى : الافضل يا سيدى أن نصرف هؤلاء الفرسان لئلا . . .

— بالطبع أصرفهم لكى يعودوا الى معسكرهم وهناك يعرفون شغلهم لانهم الى الآن لم يعلموا بما كان من الانهزام وبما هو كائن

وخرج على بك وأمر أولئك الفرسان أن يعودوا الى معسكرهم ثم أطلق هو والسمهرى لجواديهما العنان . وفي أثناء الطريق طلب على بك الورقة التى شفعها بوصيته الشفاهية للسمهرى فدفعها هذا اليه وهي لا تزال مختومة كما استلمها

* * *

ولما أصبحا بعيدين عن مناطق الخطر جعلا يتحادثان فقال السمهرى : أتسمح لى يا سيدى أن أسأل بعض أسئلة وأنت حر في الاجابة عليها ؟ لاأقدر أن أكون خادمك الامين وأنا كالاعمى

فقال على بك : سل يا صاح سل . فاست أكتمك أموراً كثيرة

— لماذا يطلب آل المهندى حياة الطفل جميل ؟ ولماذا يريدون اهلاكه وهو لم يعرف الاثم بعد ولم يزل في عيني الله ملاكاً طاهراً ؟

فهز على بك رأسه وقال : في العالم البشرى أولية اجتماعية لاشذوذ لها فهى كقولك « الكل أعظم من الجزء » وأعنى بها أن كل شر في مابين الأنام مداره الطمع . فحيث وجدت شراً فابحث عن المطمع الذى سبب ذلك الشر

وهنا سكت على بك كأنه لا يريد أن يبحث كثيراً في الموضوع . والتزم السمهرى الصمت ، وانما بقيت دودة حب الاستطلاع تنخر لبه . فقال بعد هنيهة : لقد بحثت يا سيدى البك في في مركز هذا الشر الذى يرومه المهنديون فلم أجد فيه محوراً للطمع . هذا غلام لم يتم الرابعة من العمر بعد وليس عنده مال فأى مطمع فيه

فقهقه على بك متكلفاً وقال : ألا يحتمل أن يكون وارثاً أو أن يرث اذا أتاح له الحظ ارثاً ؟

— صدقت يا سيدى : اذاً للغلام أهل معروفون

— بالطبع لم يولد من الجدار

— عفواً ياسيدى البك لا أقول أنه مولود من جدار بل أعنى أن المهنديين يعرفون أهله أو بعض أهله على الاقل

— يظهر أنهم اكتشفوا سره أو بعض سره أخيراً . ولا أدرى كيف . مع أن سره كان غامضاً كل الغموض فلم يكن أحد يعلم شيئاً عن نسب هذا الطفل حتى ولا زوجتى

فقال السمهرى وكأنه يستزيد على بك بياناً : بالطبع سعادتكم تعرفون سرّ مولده جيداً

لا ريب في ذلك . وأصبح أخيراً سرّ الطفل دفيناً عندى وحدى حتى صار ذووه لا يدرون

عصيره. ولا أدري كيف اكتشف هؤلاء الهنديون بعض أمره

لعل حرمكم يا سيدى ذكرت شيئاً . اذ لا يخفى على سعادتكم أن النساء لا يستطعن كتماناً ..

ــ لا لا . لان حرمى لا تعرف أن للطفل سراً مكتوماً . بل تعرف أن صديقاً لى جاءنى ذات يوم به وقال لى على مسمع منها : ان هذا الطفل ابن غير شرعى وهو لا يستطيع تربيته ويعلم أنى لم ارزق ولداً بعد ويظن أنى أود أن أتبناه وأربيه . هذا ما قاله على مسمع زوجتى ثم شاورت زوجتى فى الامر فرغبت أن نتبناه ونربيه. وبناء على رضاها وسرورها قبلت الطفل. ولم يكن حينئذ يتجاوز الشهر الرابع عمراً . والغريب أن ذلك الصديق مات فى نفس الاسبوع الذى جاءنا فيه الطفل . هذا ما تعرفه زوجتى عن الطفل وتعتقد به . وهو غير الحقيقة . وما كان مجىء ذلك الصديق بالطفل الى بيتنا الا دوراً مثلناه أنا وهو أمام امرأتى لكيلا يبقى عندها مجال للتساؤل ولكى تعتقد أنه ليس حول الطفل من أسرار . وهكذا اعتقد الجيران والخلان والاصحاب بأمر الطفل . والغريب أن زوجتى بعد عام من دخول الطفل الى بيتها حملت ووضعت بنتاً بعد عقر ١٢ سنة

ــ لابد أن هناك شخصاً آخر سواك يعرف سر الطفل والا فما كان سره يشيع حتى يبلغ الى الهنديين

ــ نعم . هناك شخص واحد فقط غيرى يعرف سر مولد الطفل ولكنه فى غير هذا القطر وكان شخص ثالث يعرف شيئاً عنه فكنت أوهمه أنه مات حتى لا يذكره بعد . ولكن ظهر لى أخيراً أنه عرف أنه لايزال حياً يرزق. فلذلك استغربت تطارق هذا السر الى آل الهندى . ان أمر هذا الطفل يهمنى جداً ياسى حسن ياسمهرى . فاذا كان قد وقع فى أيدى الهنديين فلا أؤمل أنهم يعفون عنه . عسى أن لا يكون للهندى علاقة بهم البتة

ــ لا أظن يا سيدى لا أظن أن له علاقة بهم . وغداً أستطيع أن أخبرك ان كان الهنديون لا يزالون يبحثون عن الولد أولا . فان كانوا لا يزالون يبحثون عنه فاعلم أن لاعلاقة بهم مع الهندى والزنجى

ــ هب الامر كما تقول فما هو غرض الهندى والزنجى من خطف الغلام

ــ لا أدرى أكثر منك يا سيدى وأنت عارف بجميع سر الغلام. فأنت تستطيع التفسير أكثر منى

ــ لا أفهم شيئاً من أمرهما ياحسن ولكن ما العمل للبحث عن هذا الهندى الخبيث الساحر

ــ لا بد أن يكون متغلغلا فى احياء القاهرة وعلى البحث عنه

ــ على أنى أريد منك أمراً يا حسن حال وصولنا الى القاهرة

ــ ما هو يا سيدى البك؟ انى فى خدمتك بكل ما تريد. ألست ولى نعمتى؟

ــ أريد أن تنتهز أول فرصة للذهاب الى

سراي على باشا الربيي وتحتال في طلب مقابلة عنبر أغا وتهمس في أذنه أني أود ان اراه . فليغتنم اول فرصة للعجيء الي"

ـ هذا امر هين يا سيدي

ـ لا . لا يا حسن ليس بالهين. انت تعلم ان الربيي باشا من اعوان عرابي باشا . فقد تجد قصره محصوراً اذا دخل الانجليز الى القاهرة قبلنا . وانا لا اقدر ان الوح امام داره مع انه اعز اصحابي والا بقيت في نظر انصار الخديوي من جملة المتمردين

فقال حسن السمهري : وي وي! أما كفاهم رهاناً على اخلاصك انك أخليت السبيل للعساكر الانكليزية الخديوية

— من يدري كيف ينظرون الى هـذه الحركة وكيف يعاملون أصحابها ؟

☆☆

في القاهرة كان علي بك سيف متربصاً في منزله يتوقع الاخبار التي يتسقطها حسن حسني السمهري ويأتيه بها. فبعد يومين جاءه السمهري متجهماً وقال: أن آل المهندي فرحون متهللون

— أظنهم قتلوا الطفل . يا ويلهم

— لا . لا أظن يا سيدي . وانما يقال انهم فرحون لأن الربيي باشا ذهب من جملة الوفد الذي ذهب الى الاسكندرية بعريضة التوبة التي وقعها عرابي باشا وأعوانه ورفعوها الى الجناب العالي ملتمسين العفو. وقد ورد الخبر أن الجناب العالي أمر بالقبض على الربيي باشا وزجه في السجن ويظنون أنه سيحكم عليه بالموت .

والمهنديون أبناء عمه فرحون بذلك . فانظر ما اكفر البشر ! يفرح بعضهم بمصائب بعض . ما خطر لي أن العداوة بين الاقارب تبلغ الى هذا الحد . هل سمعت بعداوة كهذه يا سيدي البك .

— سمعت كثيراً مثلها اما قلت لك حيث يوجد الشر فتش عن المطمع . يفرحون بهلاك ابن عمهم الربيي باشا لأنه مي"ت ورثوا بقية الثروة الهائلة التي قسمها المرحوم الحاج محمد باشا الربيي بين حسن أبي على هـذا وبين خالد المهندي أبي أولئك . وقد لقبه بالمهندي لانه كان بطل حرب ويحب الفروسية ، ولكنه كان وأولاده هؤلاء مسرفين ، فأضاعوا نصيبهم من الثروة ، وأخيراً صاروا يدعون أن عمهم حسناً اغتصب جانباً من حصتهم. والحقيقة انه لم يغتصب شيئاً بل أن الحاج محمد جدهم اختص حسناً بذلك الجانب لأنه رآه أكثر حرصاً وأقل اسرافاً فساءهم الأمر . هـذا هو سر عداء المهنديين لابن عمهم علي باشا . ومنـذ عام ذاع انه مصاب بداء السل ففرحوا بهـذه الاشاعة . وبلغ اليه فرحهم هذا فحاول أن يحرمهم من ارثه اذا مات

— أظنه لم يرزق أولاداً

— كلا لان أختهم زوجته عاقر. وهي سبب الفتنة والشر . وقد نغصت عيشة الباشا

— عجباً . لماذا لم يطلقها

— ضعيف الارادة. وهي داهية وقد استولت على ارادته . وهو يهابها ويخشى عواقب الاساءة لها .

ـــ عجباً . وهل يسرها الحكم على زوجها بالاعدام .

ـــ كلا البتة .

ـــ اذاً ليست محازبة لاخوتها

ـــ بل هي تحازبهم لكي تستنصر بهم. ولكن لا الى حد أن تفقد زوجها . لانها اذا فقدته فقدت شيئاً من عزها

ـــ وهل قابلت عنبر أغا؟

ـــ لم أقدر أن اجتمع به وسألت عنه فقيل لى انه غير موجود . ولم أقدر أن أعلم الحقيقة ولا أين هو لان البواب قال انه لم يعد يراه . والطباخ قال ان الباشا أرسله بمهمة ولم يعد بعد. والهانم تقول للخدم انها موجسة من تغيبه

فهز على بك رأسه وقال : لقد خطر لى خاطر يا حسن يا سمهرى

ـــ ما هو يا سيدى

ـــ ما قولك في أن عنبر آغا هو الزنجى رفيق الهندى المشعوذ الساحر

ـــ ولكن الصنوبرى يقول انه معمم ويلبس قفطاناً وعباءة. والاغوات هنا لا يلبسون الا السترة والبنطلون والطربوش الاستامبولى

ـــ ولكن ليس ما يمنع عنبر آغا أن يتزيا بزى بلدى أو سودانى أو عربى . فاذا كان قد فعل كذلك فقد سلم الطفل

ـــ ولكنى لا أرى مصلحة لعنبر آغا في سرقة الغلام . فهل له علاقة به؟

فتململ على بك سيف وقال : لا وانما هو الذى علم أن المهنديين يأتمرون على حياة الطفل فلا يبعد أن يكون قد رام انقاذه منهم لأن عنبر آغا رجل طيب القلب

ـــ اذاً عنبر آغا يعرف شيئاً عن الولد

ـــ لا، وانما عرف أن المهنديين يريدون أن يغتالوا طفلا عندى فحذرنى . والظاهر أنه شعر أو علم أن الغلام أصبح تحت خطر سريع عاجل وانى بعيد عنه فرام أن ينقذه . لم يبق عليك يا مى حسن الا أن تبحث عن الزنجى والهندى أو عن عنبر آغا هذا على الاقل . وأنت تعلم أن لك جزاءاً عظيماً عندى يا مى حسن

ـــ كفى ما أغدقته علىّ من نعم يا سيدى البك . انى خادمك الامين .

ـــ ثم أود أن تتحقق ماذا كان من أمر الربيبي باشا. هل حكموا عليه بالاعدام أو بالسجن فقط ؟. انى متربص في منزلى فلا أود أن أخرج منه ما لم يطلبنى ولى الامر الذى لا نعلم من هو حتى الآن

ـــ كن مطمئناً . انى أبحث عن كل شىء وأخبرك

***

لا يهم القارىء أن يعلم الا ماذا عرف حسن حسنى السمهرى وبالتالى على بك عن الزنجى والهندى وعن عنبر آغا وأخيراً عن مصير الطفل ـ لم يعرفا شيئاً وانما ثبت لعلى بك أن المهنديين لم يظفروا بالطفل ولا كان لهم علاقة بالهندى والزنجى . ولهذا بقى يؤمل أن يعلم مصير الغلام ولو بعد حين . فبقى يغنم كل سانحة للبحث عنه

الفصل الخامس

وفي الليلة الزهراء ينخسف البدر

نودع القارئ الكريم في مصر عند علي بك سيف في أواخر سنة ١٨٨٢ ثم نلتقي به ثانية في مثل هذا الوقت في سنة ١٨٨٧ في لندن في قصر اللايدي مرغريت فيفر بنت المرحوم اللورد فيفر الذي لم يترك ولداً وارثاً سواها. وانما ترك ثروة تربو على المليون جنيه. فقد كان رحمه الله تاجراً في بومباي واثرى

وقد خدم حكومته خدماً جليلة. ولما عاد الى لندن واستقر به المقام منحته الملكة فكتوريا لقب لورد اف فيفر

هذه الفتاة النبيلة المدللة كانت تناهز حينئذ الثلاثين سنة. وكانت عائشة عيشة الترف والبذخ. وفي الوقت نفسه كانت أحياناً تجعل لمجلسها مسحة من العلوم والفنون لتجعل مكانتها الادبية ستاراً لتمادي في الترف والقصف واللهو. وكان جمالها وذكاؤها يستهويان الفتيان ولكن لهوها وقصفها كانا يصدانهم وكان يطمح اليها كثير من الفتيان. فتوسطو الحال منهم تترفع عنهم لانها كانت تبغي العلى والصعود لا النزول حتى ولا السكون. والنبلاء الرفيعو المقام كانوا لا يقتربون الى جنبها حتى يرتدوا موجسين من عواقب قصفها

وليس ذلك فقط بل اعتور سمعتها اشاعات مختلفة كان يتهامس بها الغلبا ويون، أي الفضوليون والطفيليون ولكن الدوائر العليا كانت تنزه سمعتها عن كل شيء. على انه «متى حان القدر ظهر المستور» ففي ذلك الحين الذي نحن بصدده تعرفت مرغريت بنابغة من نوابغ الجيش هو الكولونل هنري هود في حفلة أنس وطرب ورقص. فاعجبها ونزل من فؤادها نزول الاسفين من الصخر فانفتح له

وعلمت مرغريت ان للكولونل منزلة في الجيش معتبرة وله بين رجال السياسة مكانة سامية أيضاً. ويحتمل أن ينال في المستقبل مركزاً نادر النظير. وقد سحرها الكولونل ببطلاوة حديثه وبقصصه الشيقة عما صادفه في الهند وفي سنجابور وفي مصر وفي جنوبي افريقية. فانجذبت اليه وما لبثت ان صادفت في قلبه منزلا رحيباً. وما هي الا ليال معدودة حتى خطبها وخطبته. وقضيا شهر خطبة يكاد يضارع شهر العسل بهجة وحبوراً. ولكن ما انقضى الشهر حتى أحست مرغريت ان هود أصبح قلقاً يسبح أحياناً في فضاء التخيلات حتى وهو في نجاتها. لم يعد هنري هود كما عهدته. فاوجست من أمره وخافت ان تخسره وراعها ذهوله أحياناً فسكاشفت أمها عما في ضميرها وقالت لها انى أصبحت في ريب من فؤاد هنري. فما العمل لتحقيق الامر ومن استجلاء الحقيقة؟ لا أريد ان أسير في ظلام

فقالت أمها. وأنا أيضاً ملاحظة ذلك. فسأكلف صديقتنا اللايدى لويس فورمث ان تجس نبضه وتسبر اعماق سره فهو يأنس اليها كثيراً وهي داهية ولنا مخلصة

ــ كذا خطر لى ان تفعلى وانما لاتدعيها تعلم انى أنا ملاحظة شيئاً . بل اجعلى القول منك كأنه بغير علمى

ــ كذا انوى ان افعل

***

ما عتمت اللايدى فورمث ان اجتمعت بالكولونل هنرى هود في مجلس غير مقصود وتطرفت معه في الحديث الى خطبته وزواجه الى ان قالت: أظن موعد القران أصبح قريباً يا كولونل

فتبرم قليلا وقال ــ لاندرى ياميلايدى . فلم يتقرر نهائيا بعد

ــ عجبا . لقد شاع انه سيكون في عيد الميلاد

ــ لا أظن

ــ يلوح لى ان الجو مكفهر يا كولونل

فاجفل الكولونل وقال ــ لماذا يلوح لك ذلك ؟

ــ لانه مامن خاطب يتكلم في موضوع زواجه بمثل هذا الفتور . فقل لى هل في المسئلة قلقلة ؟ انت تعلم ان صديقة مخلصة لك فلا تكتمنى سراً

فبقى الكولونل متردداً في الجواب فقالت: هل بدا لك نفور من قبل اللايدي فيفر ؟

ــ بالعكس . انها لفى غاية من اللطف

ــ اذاً ؟

فتململ الكولونل وقال: انى أبوح لك باسرار

ــ ثق بأنى أدفنها في ضميرى

ــ لقد سمعت أموراً عن مرغريت لاتسر خاطبا مثلى

ــ ماذا سمعت؟

ــ سمعت أنها كانت تماشى فلانا وفلانا

ــ هذا كلام يقال عن كل فتاة في هذا العصر ولكن لاتصدق كل ماتسمع . فهل تسمع عن شيء حادث الان ؟

ــ كلا وانما سمعت عن أمور مضت

ــ لاأنكر أن مرغريت كانت تجامل كثيراً من الشبان ولكن سمعتها بقيت كالمسك . فلا يقدر أحد ان يشينها . أظن أنه يقدح بسمعتها بعض الشبان الذين كانت تلاطفهم وتجاملهم . فلما طلبوها خيبت آمالهم

ــ كلا لم أسمع الكلام من شبان ولا أعبأ بكلام الشبان لانهم ذوو أغراض

ــ اذاً لابد أن تكون قد سمعته من أناس عندهم بنات للزواج

ــ ربما كان الامر كما تقولين ولكنى لاأقدر ان أتصور ان يبلغ بكرام الناس الغرض وحب النفع الشخصي ان يعيبوا سمعة فتاة لاجل قصد كهذا

ــ في العالم كثير من هذا الذى لاتقدر أن تتصوره . فلاتصدق

وبقى الكولونيل صامتا واللايدى فورمث تريد ان تعلم مزيداً منه فعادت بعد هنيهة تقول:

هل سمعت شيئا آخر ؟

فتلفظ الكولونيل كلامه تلفظا وامتقع لونه وهو يقول نعم سمعت حكاية لاأتجاسر ان أقولها

ـ لابأس ان تقولها فما انت قائل الكلام بل ناقله

فمال الكولونيل الى اللايدى فورمث وهمس قائلا : يقال أنها كانت منذ بضع سنين في مصر فأحبت شابا من سراة المصريين وتزوجته سراً بغير علم أهلها وبغير علم أهله

فأجفلت اللادى فورمث لهذه الحكاية وقالت: لاأظن . هذه حكاية ملفقة يا كولونل

ـ لقد رويت لى الحكاية بالتفصيل يا ميلادى وماعرف أبوها وأمها بامرها الا بعد ان أوشكت أن تصير أماً . فحزنا لذلك حزنا شديداً وارتبكا لايدريان ماذا يفعلان ولا سيما اذ علما أن أبوى الشاب المصرى لايريدان ذلك الزواج بتاتاً لان ابنهما كان مزوجا وان كان المسلمون يجيزون تعدد الزوجات . فلذلك بقى أبوها هناك حتى ولدت فتركا العائل في ملجأ للقطاء وعادا بها كاتمين الامر

وكانت اللايدى فورمث تسمع الحكاية وهي تكفهر تارة وتمتقع أخرى وتتجهم طوراً فقالت : مستحيل . مستحيل . هذه الحكاية ملفقة لا أصل لها لايتفق مع ذلك سأتحقق الامر. ممن سمعت الحكاية ؟

عذراً يا سيدتى . لا تحرجينى الى القول فلا أستطيع أن أخبر عن القائل

ـ لا بأس . لا بأس . سأتحقق الحقيقة وفي يومين أخبرك

بعد يومين اجتمعت اللايدى فورمث بالكولونل هود وقالت حقاً ان في الناس أشراراً يستحلون قتل الاعراض تسوئة لسمعة النبلاء. لايخفى عليك العداء السائر الآن من قبل طبقة العامة ضد الاعيان. فاولئك يبذلون جهدهم في الحط من مقام هؤلاء . مسكينة مرغريت . الحق انها مظلومة وذنبها انها خفيفة الدم تحب المزاح والمفاكهة . فيحسبها الناس خليعة متهتكة . ولكنها وايم الحق أطهر من ملاك

ـ كيف تعتقدين ذلك يا ميلايدى ؟

ـ أن الحكاية التى سمعتها ورويتها لى صحيحة بعض الصحة . ولكنها ليست حكاية مرغريت ولا لمرغريت حكاية كهذه البتة. أجل أن فتاة انكليزية تدعى مريت نيفر تزوجت مصرياً ثم طلقها وما زالت مقيمة في مصر . وماهي من الاعيان البتة وانما هي ذات ثروة متوسطة تنفق منها هناك. وأما مرغريت فهى والله بريئة من هذه الوصمة بتاتاً . وما مكثت وابواها في مصر غير فصل شتاء واحد

ثم أنبأت الكولونل عن مصادر هذه الحكاية وقالت له أن يتحقق الحقيقة بنفسه

وبعد بضعة أيام عاد الكولونل الى اللايدى فورمث وقال لها . بربك لا تدعى أحداً يعلم الحديث الذى جرى بيننا

ـ يستحيل ان يعلم به أحد. فهل علمت شيئا؟

ـ نعم تأكدت حكاية مريت نيفر بحذافيرها . وفهمت أن رواد السوء يريدون أن

ينسبوها الى مرغريت . انى اجل مرغريت عن عيب كهذا

ـــ لا ريب انها تجل . ولو حدث ان مرغريت تزوجت شابا بغير رضى أهلها ورضى أهله واضطره أهله الى طلاقها لما كان أبواها يكتمان ذلك لان اعلانهم ان ابنتهما مطلقة اسلم للشرف من كتمان الحكاية لئلا يتوهم الناس ان الزواج لم يكن شرعيا

فقال الكولونل : الكلام بسرك الذين رووا لى الحكاية قالوا ان زواجها لم يكن شرعيا وانما أنا لطفت الرواية لك . أما الآن فانى مقتنع ببراءة مرغريت من هذه الوصمة . وأمس قررنا موعد عقد القران في أول الشهر القادم

☆☆☆

في مساء دافئ من أيام ابريل التى قل ادلهام جوها في لندن كان قصر فيفر الفاخر متألق الانوار متلألئ الاواني لامع الاطالس مبهرج الطنافس ، ليست قصور الملوك بأبهى منه وأبهج والمال في هذا الزمان يجعل الصعاليك ملوكا

وقد اكتظ ذلك القصر الواسع بالمدعوين الى العرس من سراة لندن وأعيانها من رسميين وغير رسميين فكان ذلك المكان معرضا بهيجا للابهة والجلال وللحسن والجمال وللجاه والعز والمجد والفخر

ففى ذلك القصر البديع اجتمع الكولونل هنرى هود وجميع معارفه وأصدقائه واللايدى فيفر الام وبنتها وجميع معارفهما وأصدقائهما ليحتفلوا بزفاف مرغريت الى هنرى

كانت الساعة التاسعة حين جعل العروسان وأهلهما يتهيأن للوقوف أمام نيافة رئيس الاساقفة وبعض اكابر رجال الدين لصلاة الزواج . في تلك الساعة تقدمت نلى وصيفة اللايدى مرغريت فيفر وهمست في اذن سيدتها قائلة . هنا غلام يريد ان يبلغك رسالة بنفسه

فاختلج فؤاد مرغريت وقالت : من هو . وماذا يريد ان يقول

ـ لا يقول عن اسمه ولا عن رسالته ياسيدتي

ـ دعيه . فما انا الآن في حال لاستقبال الرسائل والرسل يانلى

ـ ولكنه شديد الالحاح ويقول ان رسالته خطيرة الشأن ولا يمكن تأجيلها ولا ساعة

فتهجمت مرغريت وقالت : لعله رسول من قبل بعض اعدائى الذين رفضتهم والذين يستلذون مكايدتي في هذه الساعة فاطردوه

فخرجت نلى ثم عادت قائلة : مولاتى ان الغلام يتوسل جداً ان يراك دقيقة واحدة فقط لامر ذى شأن . فأرجو ان تقابليه لحظة في حجرتى الخاصة يا سيدتى لانى لا احب ان اخاشنه وهو بشوش الوجه لطيف الكلام ؛ وان كانت مظاهره بسيطة تدل على انه من طبقة العمال

فخرجت مرغريت من باب البهو من بين سراة المدعوين تتهادى تيهاً وخيلاء ودخلت الى الى حجرة نلى الخاصة . فوجدت غلاما في نحو التاسعة او العاشرة من العمر واقفاً الى جنب كرسى وقد القى يده عليه وصعر خده وعيناه ترسلان اشعة ابتسام وبشاشة ، وقامته تمثال للشمم والانفة

فما الفتت ضعة ثوبه نظر مرغريت عشر معشار ما الفته دمائة خلقه وملاحة ملامحه

فجلست على كرسى فخم وهي تتفرس فيه وقالت : هات كرسيك يا عزيزى واجلس الى جنبى فانى استطيع ان اجالسك دقيقة واحدة فقط .

فتقدم الغلام باشا متهللا وهو يقول : لا احتاج اكثر من نصف دقيقة ياسيدتى

ومن غير ان يقعد انحنى قليلا وهمس قائلا: شندى لال مريض ، ويرجو ان تعوديه دقيقة فقط .

ولو كانت نلى الوصيفة موجودة في الحجرة حينئذ لما خفى عليها انتفاض سيدتها واكفهرار لونها ثم امتقاعها ثم تجهمها . واجابت مرغريت على الفور : من هو شندى لال هذا ؟ لاأعرفه

ووقفت في الحال تريد الخروج فوقف الغلام في طريقها وهو لا يزال يبش ويبتسم وقال مولاتى : الست اللايدى مرغريت فيفر

— نعم . ولكنى لاأعرف شندى لال

— شندى لال الهندى يا سيدتى يقول انك تعرفينه جيداً وهو مريض الآن وربما كان مرضه شديداً ويرجو منك أن تعوديه دقيقة لانه يخشى أن يموت قبل أن يراك

أما مرغريت فلم تكن لتشاء أن تسمع كلام الغلام بل كانت تقاطعه بنزق قائلة: لاأعرفه . لاأعرفه . لاأريد أن أعود مريضا. لا أريد . فعد من حيث أتيت . هلم اخرج

فتحولت ملاحة الغلام الى غضب وبشاشته الى عبوسة وقال : لو كنت أعلم انك تقابلين الناس هكذا يا مدام ما جئت اليك ولو جعل طريقى الى منزلك ذهبا . خير لشندى لال أن يموت كمداً من أن يرى خلقا نافراً كخلقك . انى ذاهب من غير أن تطردينى

وخرج الغلام لايلوى ولا يلتفت وعادت مرغريت وقعدت على كرسيها واهية القوى وهي تسمع وقع اقدام الغلام وهو يخرج من مخرج الدار السرى الذى دخل منه حيث قلت الطنافس

☆ ☆ ☆

ما خرج الغلام من الغرفة حتى مرت فى مخيلتها مناظر سينمائية مختلفة تمثل تاريخ حياتها منذ عادت من أبوها من الهند وساحوا جميعاً فى الشرق الى ان عادوا الى لندن واستقر بهم المقام وصار أبو ها الوردا وظل يشتغل أحياناً بالسياسة الى أن مات واصبحت سيدة منزلها الى جنب أمها

مرت الحوادث فى مخيلتها مرور البرق . وخرج الغلام وهى تحس انه يأخذ معه فؤادها قطعة قطعة فما انقضى كل أثر منه حتى شعرت ان روحها طارت شعاعا

الله أكبر . هل هذا الغلام ساحر؟ ما علاقته بشندى لال الذى عرفته منذ حداثتها وكان الخادم الامين لابيها فى بمباى ، وما الذى جاء بشندى لال الى لندن وعهدها به انه لايبرح بمباى قط ؟ كيف يعرفه هذا الغلام . هل هو جاره فى مسكنه . من هو ؟

— نلى . نلى نلى

سمعت نلى صراخ سيدتها مرغريت الغريب

المريع كانه نداء الاستغاثة . فاسرعت مذعورة و دخلت قائلة : مالك يامولاتي ؟

فاجابتها مرغريت على الفور . اسرعي حالا واستدعي الغلام أن يعود الى هنا لاندعيه يذهب هودي به . حاذري ان ترو عيه . أود ان اعتذر له

فهرولت تلي حتى بلغت الى باب القصر السري

قالت لحارسه : هل خرج الغلام ؟

— منذ دقيقة

— اسرع حالا وراءه واستوقفه ريثما ابلغ اليك . لاتدعه يمضي حتى أصل

فاسرع الحارس ما امكنته قدماه وساقاه حتى ظفر بالغلام على بعد نصف كيلو فاستوقفه قائلا : مهلا ياغلام

فالتفت الغلام قائلا : ماذا تريد ؟

— مهلا ان وصيفة اللايدى فيفر تريد أن تقول لك كلمة

فقال الغلام عابساً : لا كلام لها معي

و ولى الغلام ظهره يريد المسير فامسك به الحارس قائلا مهلا. لا أقدر ان ادعك تمضي

— عجباً دعني او اطلب البوليس ليردعك

— بل أنا اطلب البوليس . لا ادري ماذا كنت تفعل في القصر

— ويحك هل تحسبني مجرماً او لصا ؟

— لا احسبك شيئا قبل ان تصل مس نلي وهي تنبئك ماذا تروم منك

وفيما هما في جدال عنيف وصلت مس نلي وهي على آخر نفس وقالت :دعه لي ياتوم

ثم قالت للغلام : ان سيدتي اللايدى فيفر شعرت انها خاشنتك وتريد ان تعتذر لك فارجو ان تعود اليها

— لقد فهمت سيدتك كما هي . ان سيدتك تحس انها نبيلة وانى حقير فاعتذارها لا يزيدني شرفا اخبريها انى لست في حاجة اليها البتة وهي في غنى عن مثلي فلا لزوم لعلاقة بيننا حتى ولا في مجاملة فارغة . عذراً ياسيدة

و ولاها ظهره يريد استئناف السير فتشبثت به قائلة : بربك لاتخيب رجائي . ان اللايدى فيفر حتمت علي ان أعود اليها بك

— لها ان تأمر ولك ان تأتمري . أما أنا فلا سلطان لها علي

— ليس لها سلطان عليك وانما لها رجاء منك

— لست اقبل رجاء منها

— أنا ارجو منك فبالله تقبل رجائي والا لامتني اللايدى فيفر

فتململ الغلام وقال . اذاً ما انت الا عبدة لها . تخافين لومها بغير حق فلا اقبل رجاء عبدة مثلك . عودي اليها واخبريها ان في صدري قلبا أعظم من كل القلوب التي حواها قصرها ونفسا أكبر من نفوس أهلها وحبها

ونفر منها الغلام وانطلق في سبيله لا يلوي ولا يسمع رجاء . فعادت تلي بخفي حنين . ووجدت سيدتها في حالة اضطراب عصبي شديد وخافت أن تكلمها . ولكن مرغريت لم تنتظر حتى تسمع تقريرها بل سألتها : أين هو ؟

— سيدتي ! لقد استحال علي اقناعه أن يعود. فهو غلام فظ خشن ولا أدري ماذا ساءه

— آه . ويحك . ماهي خشونة بل هي انفة ، وما هي فظاظة بل هي شمم . تباً لك لقد أفلت العصفور من يدي . اما عرفت اسمه وعنوانه ؟

— لم أستطع أن أنال منه حقاً ولا باطلا يامولاتي فقد كان متأثراً جداً حتى أنه أهانني بالرغم من ملاطفتي له

فتململت مرغريت متألمة شديد الألم وسخطت قائلة : اذهبي عني الآن ودعيني وحدى برهة .

فخرجت تلي واجفة لشدة غضب سيدتها و بقيت مرغريت تفكر فى ماض كانت تظن أنها تناساه ، وحسبت أنه أصبح فى خبر كان . ولكن ما خطر لها أن يبان لها من عالم الغيب ضمير حي غير الضمير الذى عرفته وأن تتمثل لعينيها ذكرى كانت مكتومة فى أبعد زوايا الخيال

ما لاح فى بالها قط ان ذلك الماضى كله يتمثل فى هذا الغلام فى نفس الساعة التى يختم فيها كتاب ماضيها ختما أبديا و يفتح لها كتاب مستقبل جديد

ما خطر فى ذهنها تصور أن أسرار الماضى المكنونة فى قعر أوقيانوس المجهول تطفو على سطح البحر ممثلة فى هذا الغلام فى نفس الساعة التى كانت تعبر فيها من أوقيانوس المجهول الى بر الحياة السعيدة الصريحة

تمثل لها ذلك الغلام تمثالا يريها الغابر حاضراً بل الماضي مستقبلا

ما تمالكت أن قالت لنفسها بصوت سمعته أذنها : ويحي ! فى هذه الليلة التي تجمع فيها كل مجدى وعزى وجاهي وابهتي وسعادتي وترفي و بذخي وقصفي ولهوى ومنتهى سرورى - فى هذه الليلة نفسها يأتي الي ابني مستغيثاً مستجيراً وأطرده؟

ويحي . قد يموت شندى لال الليلة فالى من يلتجىء ابني ؟ ما أوفده شندي لال الي الا وهو لم يعد يملك عشاه ليلة . اني عالمة خلق شندى لال

وشعرت مرغريت بدوار فى رأسها فتلافته باغماض عينيها والاستلقاء فى كرسيها . فاستراحت قليلا وجعلت أفكارها تسبح فى أفلاك مخيلتها

لم تعرف كم مر من الزمن حين تنبهت لنقر تلي على الباب

- ادخلي

فدخلت تلي قائلة : مولاتي انهم ينتظرونك

فقالت مرغريت بلهجة الآمر استدعى حالا مستر نوط الي

مستر نوط محام بارع وهو وكيل مرغريت فى أشغالها الخاصة . وفى دقيقة كان الى جنبها . فنظرت اليه فراعه منظرها . وقبل أن يتكلم قالت : يامستر نوط . اعلن الجمهور أنى عدلت عن الزواج . واعتذر للكولونل هود و لجميع الحضور عن عدم حضورى .

فذعر مستر نوط لهذا القول ودهش ولم يكد يصدق أنه يسمعه . وخامره الظن أن اللايدى أصابها مس من الجنون . فحملق فيها وهو يقول: ماذا تقولين ياسيدتى اللايدى ؟

- أما فهمت ماقلت ؟ ماعودتنى أن أقول لك كلامى مرتين

- ان كلامك الذى سمعته وفهمته ياسيدتى أخاف أن تندمي عليه بعدئذ وتحسبي تنفيذي لامرك تسرعا منى

- ثق أنى لن أندم

- مهما يكن الامر فانى أجد البلاغ الذى ترومين ابلاغه للمدعوين سيء الوقع جداً عليهم ، اللهم الا اذا كنت تقدمين سببا معقولا مقنعا

- لا أستطيع أن أقول السبب البتة ، وليس للناس شأن فى أمورى الخاصة

ـ اذن نقول لهم أن أسباباً صحية عند العروس تقضى بتأجيل القران الى أجل آخر

ـ كلا لا تعلن التأجيل . بل أعلن الغاء العرس بتاتا . لن أتزوج أحدا

ـ لا بأس أن تفعلي ماترومين . وانما الان كذا نعلن للجمهور حتى لا يكون القال والقيل عظيما جدا

ـ بل أريد ان يفهم الجمهور أن مسالة زواجى انتهى أمرها بتاتا

فتململ المستر نوط وحار كيف يعلن الامر للجمهور وماذا يعتذر وماذا يقول. فخرج مترددا حائرا . ولما خرج نادت مرغريت نلى وقالت لها : هل تنكرين باهذه أنى ولية نعمتك ؟

ـ كيف أنكر ياسيدتى ؟ ولماذا ؟ انى معترفة بأنك صاحبة الفضل العظيم علي وأنت ينبوع الخير والبركة والنعيم لي

ـ حسنا ويجب أن تفهمى أيضا أنى أستطيع أن أنتقم منك شر نقمة اذا كنت تبوحين بما كان من أمر الغلام يجب أن يفهم الحارس أن الغلام جاء يطلب صدقة فأخذها ومضى ثم اشتبهنا به لصاً فأرسلناه ليستدعيه

ـ ثقي ياموﻻتى انى أكون أمينة على أسرارك مضاعف نعمك علي

هند ذلك دخلت اللايدى فيفر أم مرغريت وهى تقول : ماذا جرى يابنيتى حتى تجنى هذا الجنون

ـ دعيني يا أماه فى غمومى ولا تسليني . إن روحى قد بلغت ترقوتى فلا أستطيع بحثاً . دعى المستر نوط ينفذ أمرى

ـ ولكن يابنيتى تجعلين مستقبلك مضغة وحياتك تعسة

ـ كفى كفى لا أريد نصحك ولا وعظك يا أماه . ان تدخلك وتدخل المرحوم أبى فى حياتى الماضية يسببان شقاء حياتى الحاضرة والمستقبلة

ـ ويحك مامعنى هذا ؟

ـ لا تسلى . لا تبحثى الان . دعينى انى فى حالة لا أطيق فيها أن أرى الناس. فلا أقدر أن أكون الان عروساً ولا فى المستقبل زوجة فدعينى

ـ عند ذلك دخل الكولونل هود . فلما وقع نظر مرغريت عليه. قالت :عفواً يا كولونل انى شاعرة انى اسأت اليك بعدولى عن الزواج . ولكن هذه الاساءة الان أصغر جداً من اساءتى فى زواجك . فلى الامل أن تكون حليما حكيما وتعذرنى . إنى شاعرة أن زواجى سيكون شقاء لى ولك فلماذا مغالطة النفس؟ هل تريد منى تعليلا أوضح من هذا ؟

وكان الكولونل يزن كلامها جيداً ويتفهمه ويقابله بالوشايات السابقة التى سمعها عنها فارعوى بنفسه وقال : كلا . انى عاذرك يامرغريت . اذا لم يتسن لى أن أكون زوجا ففى امكانى أن أكون صديقا مخلصاً وخادماً أميناً

ـ أشكر لك هذا الكرم العظيم . اذن دع وكيلى المستر نوط ينفذ أمرى

ـ اسمحى أن يعلن تأجيل القران الى أجل مسمى. فذلك خير من اذاعة نقض العرس بتاتا

ـ اذن فليعلن أن عقد الزواج تأجل عاما أو اثنين

ـ اذا فليعلن التأجيل الى أجل غير مسمى. وداعاً الان الى أجل قريب يامرغريت

وانحنى وقبل يدها وخرج من الباب السرى وركب اتومبيله « وادى وش الضيف »

أمانوط فاعلن تأجيل عقد الزواج الى أجل غير مسمى . وكان اللغط فى المسألة قدساء الجمهور . فلما سمعوا الاعلان صريحاً جعلوا يرفضون متقولين أقوالا مختلفة. وأمام مرغريت فانزوت فى مخدعها .

* * *

أجل انزوت مرغريت في مخدعها . ولكنها لم تكن فيه وحدها . نعم كان معها فيه طيف ذلك الغلام الذى انطبع في صفحة مخيلتها كفلذة من فؤادها .

ان ذلك الطيف الملائكى الذى كان كل هنيهة يتجلي فيذهنها كأن ينبه عاطفة الامومة في قلبها ويوقظها من نومها العميق. كانت عاطفة الامومة تنمو وتكبر في فؤاد مرغريت بسرعة. كما كانت الشجرة التى نبتت في حجرة شندى لال تنمو في رؤيا الشيخ الصنوبرى في عزبة طنوف حتى ملأت الفضاء، هكذا في بعض الساعة كانت عاطفة الامومة قد ملأت قلب مرغريت وتفرعت فروعها الى أن ملأت صدرها وصارت تخترق مابين ضلوعها الى أن ملأت غرفتها فقصرها فمدينتها فكل العالم

ما انقضت الساعة حتى كانت مرغريت قد أصبحت كتلة عاطفة أمومة . أصبح قلبها مشتعلا بالحب الوالدى . لم يعد يلذ لها الا تصور طيف ذلك الغلام مقيماً في حجرها وصدره الى صدرها وفمه الى فمها وذراعاها تضغطانه على قلبها.

يجب أن تبحث عن الغلام. يجب أن تنزله في قصرها . يجب أن يعلم انه ابنها .

ويلك يامرغريت . أين ابنك؟ وماذا يكون أمره اذا مات شندى لال، وهو لا يزال غلاما قاصراً ولا ملاذ له .

هذا الخاطر كاد يجن مرغريت

الفصل السادس

اثر بعد عين

فى اليوم التالى ارسلت مرغريت وصيفتها مس نلى الى ادارات الجرائد الكبرى بنص هذا الاعلان:

« المرجو من المسمى شندى لال أن يرسل عنوانه الى نمرة ٢٨١٧ فى هذه الجريدة لان لشخص ذى علاقة كبرى به رغبة فى مقابلته »

وأوعزت أن يكرر نشر هذا الاعلان الى أن يرد خبر بايقاف نشره . وكانت نلى تطوف على ادارات الجرائد كل يوم تسأل ان كان قد ورد اليها خطابات معنونة بتلك الارقام . وبقيت نلى تذهب وتعود بخفى حنين و مرغريت على على مثل جمر من الغضا . وشقاء ذلك الغلام يتمثل متجسما فى مخيلتها والهواجس تأخذها وتردها الى أن ورد اليها فى اليوم السابع الخطاب التالى

« الى صاحب الاعلان الذى عنوانه ٢٨١٧

اخبرك أن شندى لال كان مستأجراً غرفة

فى منزلى منذ شهر تقريباً . ومعه غلام لا أدرى ما علاقته به . وكانت حاله تدل على شقاء وعسر وكان معظم وقته مريضاً . وأخيراً اشتد مرضه ومات وكان ذلك الغلام يعنى به حتى آخر ساعة

شارع هنوفر نمرة ١٧ ، أليس شومان

فما ترددت مرغريت لحظة ان ركبت أو توموبيلها وقصدت الى شارع هنوفر وقابلت أليس شومان. فاذا هي عجوز طاعنة فى السن وليس عندها الا بنت تذهب كل يوم الى مصنع خياطة ولا تعود الا مساء . فقالت لها أنا صاحبة الاعلان ياسيدتى . وقد جئت اسأل حضرتك عن شندى لال

فقالت مسز اليس شومان : مسكين شندي كان رجلا فاضلا وان كان هنديا ، وكان ورعا ولكنه كان تعساً . فكان مصابا بضعف القلب فمات أول أمس بالسكتة القلبية

— أول أمس

— نعم ولكنه قاسى كثيراً من الضعف أخيراً وكانت تنتابه نوبات ضيق النفس فتكاد تخنقه . وكان جم يهتم به كل الاهتمام . والولداء ما أطيب قلب جم

— من هو جم هذا ؟

— غلام جميل معه يدعى أنه ابنه ولكن ليس بينهما من الملامح ما يدل على ذلك . وانما شندى يقول أن المرحومة زوجته أم جم كانت انكليزية ولهذا جاء جم ملامحا للانكليز

وكانت مرغريت تسمع هذا الكلام وقلبها ينتفض فى صدرها انتفاض العصفور بلله القطر

فقلت : أو ما قرأت الاعلان فى الجرائد قبل وفاته تلقى نظره اليه ؟ فقد كان ينشر منذ أسبوع

— كلا ياعزيزتى . ما اطلعت على اعلانك الا أمس مصادفة . أظن لحضرتك علاقة قرابة مع زوجته المرحومة ؟

— كلا . وانما كان لشندي لال نفسه فضل علي حين كنت فى الهند . وما دريت انه فى لندن الا امس لما ورد لى خطاب من اخيه يقول أن أخباره انقطعت منذ سنتين حين جاء الى لندن ويرجو منى أن ابحث عنه . فلم اجد وسيلة للبحث عنه الا الاعلان كما رأيت

من حضرتك ؟

— انا اسمى مس فلورا دورمن ليفربول وقد جئت الى هنا لقضاء شهر . ألا فاخبرني ياسيدتى أين الغلام جم الان ؟

— من يدرى ؟ منذ دفن شندى لال أخذ الغلام حقيبته ومضى

— فانتفضت مرغريت جزعا وقالت: الى أين مضى

— لا أدرى ياسيدتى . سألته ماذا ينوى أن يفعل . فقال انه يبحث عن عمل يرتزق منه

فازدادت مرغريت انتفاضا وقالت متمتمة تخاطب نفسها : ويحى . ابن تسع سنين يضطر لان يشتغل حتى يعيش ، ويلاه ! ماذا يحسن من العمل غير الخدمة تحت أيدى الناس؟ وكيف تطيق تلك النفس الشماء الخضوع؟

ثم وجهت الخطاب الى العجوز قائلة : ماذ كان يشتغل الولد أولا . هل تعلمين ياسيدتى؟

— كنت أعلم قبلا أنه يذهب الى المدرسة . ثم مالبثت أن رأيته يلازم المنزل كثيرا ليمنى بشندى . وأحيانا كان يرسله شندى الى حيث لا أدري

— هل كان مع الغلام نقود؟

— لا أظن يا عزيزتي . لانه قبل موت شندي بيومين كان عند شندي جلد فهد جميل فعرضه الغلام علي لكي اشتريه ، فابيت اذ لا حاجة بي اليه . فخرج به وباعه حيث لا أدري

فصفقت مرغريت كفاً على كف وقالت لنفسها ويلاه : لا يبعد أن يبيع ابني معطفه اخيراً . ويلي قد يموت من الفقر ، وانا أبذخ في القصر ، آه ! ما ذنبه حتى يشقى بجريرة ابويه .

ثم وجهت الخطاب الى مسز شومان ، قائلة : أين تظنين أجد جم الصغير يا ترى

— لا أدري يا عزيزتي . قلت له أن في امكاني أن أقبله في الغرفة مجاناً الى أن يأتيني مستأجر لها . ولكنه شكرني اذ دفع المتأخر من أجرة الغرفة ، وأعتذر لانه بقي من الاجرة شلن ووعد أن يدفعه بعد حين متى وجد شغلا . فسامحته به وقلت له لست أريد أن يدفعه

فصفقت مرغريت كفاً على كف وقالت : آه ليتك لم تسامحيه

— لقد أشفقت عليه يا عزيزتي . ولو كان في امكاني لاعطيته شلنين أو أربعة ولكن لا يخفى عليك ان صاحب البيت يأتي في اليوم الاول من كل شهر ليقبض الاجرة فاذا لم أستعد للدفع له في الحال طردني من المنزل . ولا أخفي عنك أن بنتي دورا تشتغل كل النهار باربعة شلنات فلا يبقى عندنا من أجرتها شيء لاتمام أجرة البيت

— آه ليتك لم تسامحيه لعله يأتي اليك ليدفع الشلن فتعلمي منه عنوانه . وأظنه سيأتي ليدفع الشلن اذ يلوح لي أنه ابي النفس . فاذا جاءك فخذي منه عنوانه بالضبط ولا تدعيه يفهم أن سيدة تريد عنوانه أو تسأل عنه . هاك ورقة بعشرة جنيهات يامسز شومان تستعينين بها على هذه الازمة ولا أريد منك بدلا الا أن تغتنمي كل فرصة للحصول على عنوان هذا الغلام

فابرقت اسرة مسز شومان واستغربت كرم السيدة ثم قالت :

شكراً لك يا سيدتي . اني فاعلة فعسى أن يعود جم لزيارتي أو أن أعلم خبراً عنه فاخبرك ما هو عنوانه : فما هو عنوانك ؟

— عنواني نفس الرقم الذي كتبت به لي بجريدة الدايلي تلغراف . اما ترك جم هنا شيئاً ليعود اليه ؟

— لا أظن ذلك يا عزيزتي فقد أخذ كتبه وملابسه في حقيبة واحدة . ومع ذلك نبحث في المكتب وخزانة الملابس اللذين في غرفته

ودخلت مسز شومان الى غرفة شندي تتبعها مرغريت ، وجعلت مرغريت تفتح ادراج المكتب والخزانة فعثرت في درج المكتب على كتاب باللغة الهندية قديم مفكك لا يصلح الا للاحراق ، فاختطفته كانه الكنز الدفين او كانها تجد بين صفحاته المختلفة أثراً لجم

أو صورته ولكنها لم تجد الا بضع ورقات مخطوطة باللغة الانكليزية ومودعة بين أوراق ذلك الكتاب لا ينتبه لها الا من جعل يقلب صفحات الكتاب صفحة صفحة . والظاهر أن ذلك الكتاب كان محبوب شندي فكان يقرأ فيه كثيراً . ولعله كتاب ديني . واما (جم) فلا يفهم هذا الكتاب ولا يهمه . فما كان له قيمة عنده فتركه

ففتحت مرغريت تلك الاوراق وجعلت تقرأها . فاذا هي خطاب موجه اليها . وهاك ما قرأته مكتوبا بقلم الرصاص : « سيدتي كنت أود أن أكون لك كالخيال الزائل أو كالذكرى التي جعلت تنسى أو كالقديم المتفاني في الماضي ، كما كنت ترغبين وكما استحلفتني حين وليتني مهمة شريفة عظيمة واغدقت علي النعم الكافية لقضائها . ولكن تقلب الاحوال وصروف الزمان قضت علي بان اظهر لك مرة أخرى ، والا فضميري يقتلني في الدارين قتلا فظيعا »

« ولكي تعلمي ان الذي يكتب لك هو الصديق الحقيقي الذي تعرفينه عارفاً للجميل وما هو شخص مزور أو مزيف يخشى منه اسرد لك ملخص التاريخ الماضي فتتحققين اني أنا ذاك الخادم الامين »

« في ذات يوم اطلعتني على خطاب وارد من آغا زنجي استكتبه أحد الطلبة المصريين الذين لا يحسنون اللغة الانكليزية جيداً ، وارسله اليك بعنوانك السابق أي قبل عنوانك الشريف ، قبل أن تصيري لايدي ، وفيه يقول لك أن الطفل أصبح تحت خطر اغتيال ذوي قربى ابيه له ، لانهم علموا سره ومقره ، وان أباه كتب وصيته سراً يخص فيها ابنه السري بكل ثروته ، نكاية بذوي قرباه . وذلك الآغا الآن يستنجد بك لانقاذ الطفل »

ثم أمرتني أن اذهب الى مصر لتحقيق حكاية الاغا وانقاذ الطفل اذا كان تحت خطر حقيقة ، واعطيتني خمسة آلاف جنيه كرأس مال انفق منها على مهمة انقاذ الطفل ، واشتغل شغلا تجارياً يكفيني أن أعيش به وأربي الطفل وابناء . وامرتني الا ارى وجهك بعد ذلك كانك برأت ذمتك »

« فصدعت بامرك وذهبت الى مصر محتفظاً بسرك احتفاظي بروحي وقابلت الآغا وتحققت صحة روايته وانقذت الطفل بمساعدته . وخاف الآغا أن يظهر بعد ذلك لاسياده لئلا ينتقم منه أعداء الطفل فسافر معي الى بومباي وهناك أصبح الطفل في مأمن »

« ولكن الآغا لم يرق له معيشة بمباي فما مضى عليه العام حتى مل الاقامة ورام العودة الى مصر ، فسافر اليها بالرغم من الحاحي عليه ان يبقى . وأخذ مني قسما من المال كجزاء لخدمته . خفت انه يفضح المسألة في مصر ومن ثم يتصل الخبر بالحكومة فتقبض علي بجريمة سرقة طفل . فتحوطت

وتربصت وشعرت اخيراً أن حسابي وقع او كاد . فرحلت بالطفل في الحال الى لندن وانا أحسب نفسي غريباً عن كل ما يحيط بك. وجعلت أربي الغلام واعلمه . وقد ولعت به لذكائه وقوة عارضته وانفته ورقة شعوره . ولكني لم اوفق في لندن التوفيق اللازم أو الكافي . فكانت النحوس تتوالى عليّ . واخيراً جعلت اضارب بالبورصة لعلي أربح ربحاً وافراً ، فارفع درجة معيشتي وأستطيع أن أربي الطفل تربية صالحة حسنة . والنفس طماعة، والطمع يغلب أن يؤدي الى الاذى . وهكذا كان ، فضيعت آخر فلس معي وساءت حالي جداً . ولشدة حزني وغمي اشتدت عليّ النوب القلبية وشعرت أن أجلي قريب»

« فرمت أن اجتمع بك لكي أخبرك بامري عسى أن تدبري أمر الولد بعد موتي، والاّ فيصبح ولا ملاذ له . فارسلته ليهمس لك باسمي ورجوت أن تأتي الي دقيقة . فذهب الغلام وما لبث أن عاد ساخطاً عليك لا يطيق أن يذكر اسمك . وماروى لي كيف استقبلته وطردته بازدراء الا وهو يتمرمر . ولذلك رأيت من العبث ان ارده اليك بكلام يجعلك أن تفهمي شيئاً لا يفهمه هو فجعلت اكتب لك هذا الكتاب لكي أرسله اليك في البريد أو مع رسول خاص غير جم . . . آه اني شاعر بدنو النوبة واضطر أن أرجيء خاتمة هذه الرسالة الى ما بعد انقضاء النوبة . وسأخبرك أموراً أخرى . . . آه »

وهنا انقطع كلام الرسالة . والظاهر أن شندي لال اودع الورق في وسط ذلك الكتاب والقاه على الخوان بجانب سريره واشتدت عليه النوبة فكانت القاضية

وفهمت مرغريت انه لما مات لم يكن جم عنده ، وأن محدثها لما سمعت غطيطاً غير معتاد دخلت لترى ما الخبر فاذا به يسلم الروح . وقالت أنها تتذكر انها رأت ذلك الكتاب على الخوان الى جنب سرير شندي لال فرمته في الدرج حينئذ

وعادت مرغريت الى قصرها وهي في هواجس ووساوس واشتد قلقها على الغلام وعظم تبكيت ضميرها لها ، واحست أنها مسؤولة عن حياة غلام كانت سبب وجوده على وجه الارض وسبب شقائه أيضاً

وفكرت طويلا في وسيلة للاهتداء اليه فلم تجد أفضل من أن تكلف البوليس السري « بافل » المشهور أن يبحث عنه ، ووعدته بالمكافأة الحسنة ودفعت له مبلغاً من المال وقدمت له معلومات قليلة هيهات أن تدل على مصير الغلام الذي تلقفته أيدي المقادير وجعلت تتقاذفه كما يتقاذف اللاعبون الكرة

ومنذ ذلك الحين جعلت مرغريت تعيش عيشة الزهاد الناسكين لانها لم تعد تستطيب اللهو والطرب والبذخ والترف . كأنها ارتوت نفساً من أباطيل الحياة الدنيوية واحست بفقر روحاني وتاقت الى الشبع من الحياة العاطفية . رأت انه ليس الانسان الحقيقي

الا كتلة عواطف فان ضمرت هذه الكتلة كان الانسان سقيماً تعساً

اجل لقد ملت مرغريت بهارج الدنيا وزخارفها الكاذبة وشعرت أن نفسها ما زالت ظامئة للحب الحقيقي وقلبها فارغ من حبيب ماثل ولكنه مملوء من حبيب غائب ، تسبح نفسها اليه في أثير الحب ولكنها لا تدركه

كذا كانت مرغريت تنام وهي تحلم بتعشق ذلك الابن الذي اشتق من قلبها اشتقاق القمر من الارض، وافلت منها وجعل يدور حولها ، وهي تدور مبتغية أن تضمه الى صدرها فلا تصل اليه يدها . ثم تصحو والآمال تريها هذا القمر يوماً بدراً ويوماً نصف بدر ويوماً هلالا ويوماً أثراً بعد عين، ولكنها لا ترى وجه هذا البدر في فلك قصرها

آلت مرغريت على نفسها ألا تحضر مجلس أنس الا بعد أن تمتع قلبها بطلعة ذلك البدر فلذة كبدها

وبقي الناس حيارى لا يدرون سر انقلاب مرغريت من الهرج والمرج الى الزهد والنسك والورع . ولطالما تقولوا عليها في سبب ذلك الانقلاب الفجائي الغريب ، ولكن ما من قول دنا من الحقيقة كدنو القمر لعين الطفل الرضيع ، لان الحقيقة خفية في سر مكتوم

الفصل السابع

افلت العصفور ثانية

وفي أصدقاء مرغريت المخلصون لحالها وراموا أن يسروها فكانوا يدعونها لحفلاتهم ومجالسهم بغية التسرية عن نفسها فتشكر لطفهم وتعتذر بانها لم تعد تستلذ الطرب واللهو . وقضت مرغريت نحو تسع سنين في هذا الزهد . ولكنها في هذه السنين التسع لم تعثر على اثر لابنها ولا ملت البحث عنه ولا قنطت من لقائه ولا ضعفت آمالها بالظفر بقبلة منه

وفي ذات يوم قالت لها أمها ان شدة تنسكك يا بنتي تجعلك حديث الناس الدائم ولو كان يفيدك في أمنيتك لما كان فيه بأس . لقد فعلت كل ما يجب عليك نحو ابنك فان توفق « بافل » للاهتداء اليه اتممت الواجب، وان كنت لا تستطيعين أن تعلني الحقيقة الفاضحة . وان لم يوفق فانت بريئة امام الله

فقالت مرغريت متمرمرة : دعيني يا أماه لقد كنت وابي سبب غمي هذا . لقد تزوجت زواجاً شرعياً وانا بالغة سن الرشد ، فما كان

لكما حق ان تسعيا لنقض زواجي

— ولكنك يا بنتي لم تعلمي ان ذاك الشاب المصري علي بك الريبي كان متزوجاً باخرى قبلك . فقد غشك و . . .

— لقد فعل ما يسوغه له دينه . وكان يجيز له دينه أن يطلق زوجته الاولى ، ولا سيما لانها لم ترزق اولاداً ، وانا رزقت ولداً

— ولكنك يا بنتي لا تجهلين أن أبويه كانا يأبيان هذا الزواج ايضاً لانهما كانا يدعيان النبل ويتمسكان بتقاليدهما الدينية والوطنية

— وهو كان فوق سن الرشد وليس لابويه سلطان قانوني عليه . ولو حافظت أنا على عهده لحافظ على عهدي

— انت تعلمين يا بنتي اننا كنا نطمع بزواج أشرف وأعظم لك . وكنت أنت في سن ليس فيها للعقل ربع سيادة ما للقلب على ارادتك

فسخطت مرغريت وقالت : كفى كفى يا اماه . لست تعزينني بهذا الحديث بل تزيدين آلامي

— لست أقصد يا بنتي أن اذكرك بالماضي . وانما أردت أن أقول لك أنه يجب عليك أن تخفي من غلوائك في الغم والنسك

فقالت مرغريت بازوة : لقد أفهمتك قبل الآن أن مجالس اللهو والطرب ليس انها لا تسرني فقط ، بل تؤلمني اذ أتصور اني في وسط بواعث السرور ، وابني قد يكون عبداً لمن ينتصب تعبه مقابل رغيف يطعمه اياه . فدعيني من مجالس الانس فقد أصبحت لي مجالس بؤس

— دعينا من مجالس الانس والطرب فان هناك مجالس للعلم والادب . أفلا تريدين أن تحضري بعضها ؟

— لا بأس . إن هذه المجالس غذاء للنفس . فقد تطمئن نفسي الثائرة ، وتسكن روحي الفائرة

— حسناً . ان صديقتنا مسز جيروم عقيلة الدكتور جون جيروم استاذ الفلسفة في جامعة اكسفورد تدعونا لسهرة أدبية ، في منزلها تحييها اكراماً لحصول بنتها على شهادة البكالوريا . وسيكون الحاضرون كلهم من أهل الأدب والعلم . فلا أظن من مانع لحضور سهرة كهذه

— لا بأس . أود حضور سهرة أدبية كهذه ولا سيما لأنه يغلب أن يكون الحاضرون فيها غرباء عني . لا أظن أحداً منهم يعرفنا أو يعرف عنا شيئاً . لأن أهل العلم قلما يختلطون بطبقات الأعيان والاغنياء . فهؤلاء طبقة قائمة بنفسها . يلذ لي أن أزج نفسي فيها ولا سيما لاني في الآونة الاخيرة عكفت على المطالعة والدرس . اذن يسرني أن نلبي دعوة مسز جيروم

* * *

في السهرة المعينة اجتمع نخبة من الادباء والاديبات في منزل الاستاذ الدكتور جون

جيروم فتعرفت مرغريت بكثير منهم وكان جو ذلك المنزل جواً علمياً فلسفياً . فما من حديث الا حديث الاستاذ فلان كتب في المجلة الفلانية مقالة رنانة بموضوع الاشعاع الكهربائي . والدكتور فلان ارتأى كذا في قضية اهتزازات الحرارة والنور . والاستاذ فلان كتب كتاباً في تقسيم الجوهر الفرد ، والعالم فلان الفى محاضرة شائقة في تطور الامم الخ

هذا ما كانت تسمعه مرغريت من الاحاديث فتطالت نفسها الى الاحاطة بهذه العلوم ووطنت النفس على انها في اليوم التالي ستقتني مكتبة جامعة لجميع العلوم والفلسفات المختلفة. ولذت لها المواضيع التي جرى الحديث فيها وشعرت ان في حفلات الأدب والعلم لذة لا تنتهي ولا تمل خلافاً للذات الطرب واللهو والرقص والغناء فانها مملولة منهكة للاعصاب

ثم وقف الاستاذ العلامة السير اوليفر لودج والقى خطاباً عن علاقة النفس بالجسد وحياة الروح بعد الموت

ثم رنمت بعض الفتيات رفيقات مسز دورا جيروم ترنيمة الشهادة المدرسية وعزفت بعضهن على الآلات الموسيقية فابتهجت نفس مرغريت اي ابتهاج

ثم وقفت فتاة استلفت شكلها الانظار لأنها لأول نظرة ترى غريبة البلاد . ورنمت قصيدة من نظمها وتاجيتها قرظت بها رفيقتها في المدرسة مس دورا جيروم . فاعجب الحضور بالنظم واللحن والغناء وبصوت الفتاة وبما فيها من جاذبية الملامح ، وتهامس الحضور متسائلين عن اسمها وجنسيتها

وكانت مرغريت من المعجبين بها كل الاعجاب فتعرفت بها وجالستها برهة فاحبتها. وعلمت انها مصرية تدرس في لندن اسمها « جميلة » وقد تعرفت بالانسة دورا جيروم في الكلية واصبحتا صديقتين حميمتين . وكانتا تتزاوران . وان أباها أودعها عند عائلة فاضلة تعنى بها وتصونها .

ودعت مرغريت الفتاة لكي تقضي عندها بضعة أيام كضيفة . فاستأذنت « جميلة » مسز برون ربة المنزل الذي كانت تقطن فيه . فأذنت هذه لها . ونزلت جميلة ضيفة اسبوع عند اللايدي مرغريت فيفر مسرورة

وكانت مرغريت تبالغ في اكرام جميلة والحفاوة بها والتودد اليها ، لأنها أحبتها فعلا حباً جماً . ولعل صلة مرغريت القديمة بمصر كانت من جملة العوامل في حبها للفتاة المصرية والفتاة انست لها كثيراً . وكانت مرغريت تسألها عن أحوال مصر وتتعمق معها في الحديث بأسلوب المتجاهل عسى أن تفهم منها اموراً جدت بعد تركها مصر . فظهر لها أن الفتاة لا تعرف الاشخاص الذين هي تود أن تعرفهم ، وانها لا تعرف شيئاً عن قصة الربيبي ، كأن القصة تنوسيت ، أو انها لم تشتهر قط

* * *

في ذات يوم من تلك الايام القليلة التي قضتها جميلة في ضيافة اللايدى مرغريت فيفر جاء رسول يقول أن معه طرداً (بقجة) صغيراً من سيدة معنون باسم الآنسة « جميلة المصرية »(كذا كانت تعرف جميلة عند معارفها) فاستقبلته مس نلي وصيفة مرغريت. فقال لها : انه يود أن يقابل مس جميلة المصرية لكي يسلمها الطرد

فدخلت نلي الى سيدتها اللايدي مرغريت وابلغتها ذلك. فحمي غضب مرغريت كعادتها وقالت : ان هذا الرسول وقح . خذي منه الطرد وقولي له انه لا يقدر أن يرى الانسة « جميلة » هنا

فعادت اليه نلي وقالت : ان اللايدي فيفر تقول أنه ليس ممكنا أن تقابل الانسة جميلة الآن. فهات الطرد وأنا اسلمه اليها

— بل اريد أن الانسة تمضي على الوصل

— لا بأس هات الوصل فتمضي عليه وأرده لك

فتردد الرسول وقال : عذراً يا سيدتي اني مأمور أن اسلم الطرد يداً بيد وان استلم الوصل كذلك . فارجو منك ان تأذني للانسة جميلة أن تقابلني ، ولا بأس أن تكوني حضرتك معنا

فعادت نلي الى اللايدي فيفر وأخبرتها ماكان من أمر الرسول وماذا يقول ، فاشتد غضبها جداً وقالت : انها لقحة لا مثيل لها يأتيها هذا الرسول . ان أوامري في قصري لا تنقض . لا يمكن أن يرى الفتاة أحد . دعيني أرى هذا الرسول الوقح

وكانت جميلة لا تزال منفردة في خدرها لا تدري بما هو حادث . وخرجت مرغريت من مجلسها الخاص الى رحبة القصر ، فرأت فتى في ثمرخ الشباب تدل ظواهره على أنه من طبقة العمال أو من طبقة فقيرة ، ولكنه مصعر الخد اشم الانف ، كأنه من الاشتراكيين الذين يكرهون النبلاء والاعيان ، وفي وجهه علائم الصحة والقوة معاً ، كأنه من الفتيان المعتدين بقوتهم الذين يشاجرون خيالهم اذا لم يجدوا من يشاجرونه ، فتهيبته قليلا وقالت له بسخط : ماذا تريد يا هذا ؟

فاجاب متمهلا التلطف والرقة متبسما : أريد أمراً غير منكر . أريد ان أرى صاحبة هذا الاسم الذي على الطرد (البقجة)

— لا يمكن ان تراها . فلك ان تدع الطرد هنا أو تأخذه

— ان هذا استبداد يا مدام لا يجوز في عصرنا هذا ، الانسة جميلة ليست تحت سلطانك ، انبئيها ان رسولا يريد مقابلتها . وهي وحدها ذات الحق في ان ترفض أو تقبل

فازداد سخط مرغريت وصاحت به : اني في بيتي صاحبة السلطان المطلق . ولا انتظر ان وقحاً مثلك يرسم لي قوانين سلوك . أن شئت ان تترك « الطرد » هنا وتدع

الوصيفة تمضي لك الوصل كان خيراً والا فخذ طردك ووصلك وامضي

فكاد الشرر يتطاير من مقلتي الفتى ولكنه تمالك عنفوانه وقال للوصيفة : ارجو ان تسلمي هذا الطرد للانسة جميلة ولست انتظر الى ان يمضي أحد منكم وصلا ، اسعدتم صباحاً

وخرج الفتى متهيجاً متغيظاً . والظاهر ان جميلة سمعت لغطاً فخرجت من مخدعها الى البهو لترى ما الخبر فكان الفتى حينئذ سولياً ظهره . فبادرتها اللادي مرغريت قائلة : عذراً يا عزيزتي . ان فتى وقحاً جاءك بهذا « الطرد » واصر على أن يقابلك لكي يراك تمضين الوصل بخط يدك. ولا يخفى عليك ما في هذا الاصرار من القحة .

فقالت جميلة متحيرة — لا ريب ان هذا التصرف قحة لا تغتفر مهما كان السبب

فقالت اللايدي فيفر : واظنني قد قمت بالواجب نحوك يا عزيزتي لان هذا الرسول تدل ظواهره على أنه من الطبقة المنحطة الفظة التي تكره طبقة الاكابر والاعيان لانها تريد أن تشترك بحظ الاعيان ونصيبهم من غير سعي وكدح بحجة ان الثروات مشتركة بين الناس بقطع النظر عن درجاتهم وطبقاتهم . ومن يدري ماذا يخبيء هذا المتشرد من الشر . فلذلك اظنك تحبذين تصرفي معه وطرده من غير ان يراك . هـذا هو الملف الذي أتى به

فتناولت جميلة الطرد وهي تقول : ممن هذا يا ترى ؟ يلوح لي ان فيه شكولاته

— يقول انه من سيدة ولم يقل من هي

وكانت مرغريت تود أن تعلم ما في الطرد وممن هو شأن كل انسان يود استكشاف الاسرار وأما جميلة فكانت تتردد وهي تخشى ان تسيء الظن بها اللايدي مرغريت اذا لم تفتح « الطرد » امامها وشعرت أنها ملزمة ان تفتحه حتى ترى اللايدي ما فيه ولا يبقى عندها شكوك وشبهات . ففتحته فاذا فيه شكولاته كما ظنت وبين الشكولاته رسالة . وكانت اللايدي مرغريت تحاول أن تستطلع طلع الامر بواسطة التساؤل فقالت ، لعل الهدية من صديقتك الآنسة دورا جيروم . لا بد أن تتضح لك الحقيقة من الرسالة التي ضمن الطرد

فلم يسع جميلة حينئذ الا أن تفض الرسالة حتى تدفع كل شبهة او مظنة . ففضتها وهي تتورد وتمتقع كأنها تتوقع أمراً باعثاً على الشبهة . فاذا هي بضع صفحات ، فجعلت تقلب الصفحات تارة وتقرأ أخرى ولون وجهها يتقلب مع تقلب الصفحات ، ومرغريت تقول لها ، اظن دورا نظمت لك قصيدة رداً على قصيدتك لها

فتلهبت وجنتا جميلة وظهر عليها الارتباك ولم تعد تدري ماذا تقول . ولكنها كانت مضطرة ان تقول شيئاً فقالت : لا . ليس الخطاب من دورا يا سيدتي

— أظنه من احدى السيدات اللواتي تعرفت عليهن في تلك السهرة الانيسة ياعزيزتي

فضاق ذرع جميلة وكاد الارتباك يعمي بصرها وقالت وهي تضطرب : لا أدري يا سيدتي لا أدري لعل الطرد ليس لي

— بل هو معنون باسمك يا عزيزتي

— اذاً هو من شخص أجهله . ربما كان ظنك في محله يا سيدتي . لا أعرف أحداً يهديني هدية كهذه ويضمنها رسالة كهذه . لا لا يا سيدتي ، ليست الرسالة لي لاني لا أعرف كاتبها .

وتركت جميلة الطرد والرسالة وولت ظهرها تريد أن تعود الى حجرتها . فقالت مرغريت : أظن أن حسابي قد صح . لا بد أن يكون هذا الفتى متطاولا وقحاً .

وتناولت مرغريت الرسالة وجعلت تقرأها مستغربة . وبالطبع أول ما ينظر فيه قاريء أي رسالة هو الامضاء . فألقت مرغريت نظرها على آخر الرسالة . وما كان أشد دهشتها حين قرأت اسم «جم» . فانتفض فؤادها في صدرها انتفاض العصفور بلله القطر وقالت : ويحي . الارجح انه ابني . لقد طردت ابني . هذه هي المرة الثانية ترميه المقادير بين يدي فأطرده عني كما نبذته بعد أن ولدته . فما أشقاني وأتعس حظي . ان الله يعذب قلبي لاني كنت سبب مجيء ابني كلقيط الى عالم الشقاء

وبقيت مرغريت برهة كالمجنونة وقد استحضرت في ذهنها صورة جم الصغير الذي ارسله لها شندي لال وقابلتها بصورة هذا الرسول فوجدت تطابقاً كلياً ولا فرق الا ما اوجبه كبر السن . فحارت لا تدري كيف تفسر تلاعب الاقدار بها وانما لاحت في خاطرها بارقة أمل وقالت في نفسها : اذا كان جم يعرف جميلة وهي تعرفه فقد سهل الاهتداء اليه

ثم جعلت تقرأ الرسالة مندهشة مما ورد فيها : وهاك نصها —

« يا كوكب سعدي الطالع

« لقد ضل مرصد قلبي عنك

« طاف فؤادي الراصد بهاءك جميع الافلاك التي يرسمها ضياؤك ، وتغافل بين جميع الكواكب والنجوم التي في سمائك ، فاذا بها حمراء أو قاتمة لأن أشعة ضيائك احتجبت عنها

« فالى أي سماء برحت ؟ وفي أي فلك تدورين ؟ وما الذي حجب أشعة ضيائك المتدفقة ؟

« ان الاجرام حسدت قلبي لانه لا يزال يشع النور الذي اختزته من فيض نورك وهي قد نفد نورها

« ان قلبي سابح في الفضاء وهو لا يزال شديد الانجذاب اليك بحبل الحب

« فرحمة لا تطيلي خيط جاذبيتك له لئلا ينقطع على تمادية فيصبح تائهاً في اللانهاية ويعود أخيراً الى العدم الذي ابتدعه حبك منه

« يا راديوم حبي الحار . مهما أقصتك الاقدار عني أو حجبتني صروف الزمان عنك فان أشعة راديوم جمالك التي لا تفرغ تبلغ الى فؤادي فتمده بمدد الحياة . الا رحمة بهذا الفؤاد الذى نفخ فيه حبك نسمة الحياة لكي يتمجد به . لا تقطعي أشعة راديومك عنه

« يا معجزة الخلق النادرة ، ان القوة القصوى اصطفتك لكي تكوني المثال الاعلى لقطبي الحب والجمال اللذين بينهما تتردد تلك القوة العظمى ، وجعلت كيانك صلة الحب بين القوة المبدعة الفاعلة وبين الحياة المبدَعة المنفعلة ، ألا رحمة بالنفس التي ضمنت كيانها ؟ لا تكفي فاعلية حبك عنها

« يا زهرة ربيعي الناضرة . لقد احتجت أزاهر الارض الذابلة على خلود نضارتك كما احتجت القلوب الشائخة على ربيع قلبي الدائم لزوال ربيعها . وانما لا قبل لها على مقاومة الفضاء الازلي الذي قضى بالخلود لنضارتك كما قضى بالدوام لحبي . ان الشمس التي وظّفتها القوة القصوى في مصنع الازاهر لكي تدبجها بألوانها تستمد قوتها من القوة القصوى باذنك ، وتتلون أشعة طيفها بألوان جمالك . الا رأفة بروحي التي حبلتها من مادة اثيرك الذي يتموج بنبضات بهائك . لا تكفي خيوط الاشعة الشمسية عن صنع أزاهر ربيعي الدائم

« قد انتقلت من سماء فضيلتك الرحيب الى سماء آخر غريب ، فاكمد الفضاء لانسحاب أشعتك ، واضطربت الاجرام في أفلاكها لفقدان التوازن بينها ، وتمردت عناصر الطبيعة لضعف نظامها ، فابرقت البروق الخواطف ، وأرعدت الرعود القواصف ، وتزلزل الجبل الواجف

« فبالله عودي الى عرشك الابهى الامجد حتى تقمع هيبة جلالك ثورة العناصر المتمردة ، ويرد صولجان بهائك النظام الى نصابه ، وتعود الطبيعة الى ربيعها ، والكواكب الى مداراتها ، ويعود قطبا الحب والجمال الى توازنهما

« اني أخاف أن يكون البرج الجديد الذي حللت فيه كشمر دليلة الذي أوهن قوة شمشون . فحاذري أن يسقط ملاك اقنومك من مكانته التي اختصته القوة القصوى بها

« ان قدس فضائلك يتلوث بسم حمة برج العقرب الذي حللت فيه شمسك ، وبشرة ذراعيك الناعمة تتجعد تحت ثقل تلك الكهرباء التي تظللت بها

صوني جمالك عنهم انهم بشر
من التراب وهذا الحسن روحاني

« جم »

فما أتت مرغريت على آخر هذه الرسالة الشعرية حتى وهنت قوتها سكراً من خمور البيان والحب والاسى معاً

أما من خمر البيان فلان شعر الرسالة الساحر ارقص لبها في قلبها .

واما من خمر الحب فلان غزل هذه الرسالة

اثار كل عواطف الحنو الوالدي في فؤادها فاصبح قلبها جمرة حب

واما من خمر الاسى فلأن التعريض الذي عرضه « جم » بها في العبارات الأخيرة من الرسالة اوقدت جمرات التبكيت في ضميرها. ان جم يحذر حبيبته من المكث عند اللايدي مرغريت فيفر لانه لا يزال يتذكر مقابلته المهينة لها حين كان رسولا بينها وبين صديقها القديم شندي لال مع أن شندي لال اكد له ان اللايدي مرغريت فيفر تحفل به حالما تسمع اسم شندي

فلذلك لم يبق ضئيل مرغريت شك بان جم هذا هو جم شندي لال نفسه وانه هو ابنها

بقيت مرغريت نحو ساعة وحدها في مخدعها كأنها في بحران وبدنها يقشعر من لحظة لاخرى كلما لاح في مخيلتها طيف جم وهو غلام ، وطيفه أخيراً وهو يافع او في مطلع الشباب . وكانت تنتفض كلما تذكرت كيف أهانته وطردته في المقابلتين

وقد قرأت الرسالة مرتين أخريين متفهمة معانيها . وكانت كلما قرأتها مرة تجددت ثورة عواطفها . وأخيراً نادت وصيفتها نلي قائلة : هاتي كاس شاي وكاس كنياك

فنظرت فيها نلي قائلة : سيدتي . لقد اقلعت عن الاشربة الروحية من زمان

— اجل . واما الآن فلا أريد أن أسكر بل أريد أن أتنعش . واريد الوسكي علاجاً لضعف الجسد لا انعاشاً للنفس . إن نفسي منتعشة يا نلي وانما جسمي واهي القوى

وبعد أن شربت مرغريت الشاي والكنياك دخلت الى حجرة جميلة باشة متهللة باسمة فوجدتها مستغرقة في بحران ودلائل الكآبة بادية على محياها وقالت لها. عفواً وعذراً يا حبيبتي . لقد اسأت اليك . فصفحاً ومغفرة

فنظرت جميلة فيها ممتقعة وقالت : ماذا تعنين يا سيدتي الفيكونتس ؟

— لقد قرأت الرسالة وفهمت انها من صديق لك . وأظن أن الرسول نفسه الذي جاء بها هو الصديق بعينه . فأسفت عظيم الاسف لمخاشنتي اياه .

فقاطعتها جميلة قائلة : عذراً يا سيدتي لا اعرف صديقاً يرسل لي رسالة أو هدية على هذا النحو . فأنا بريئة من مثل هذا

فقالت مرغريت وهي تريد أن تفهم جميلة باطن كلامها كظاهره أي أنها تعني ما تقول : لاداعي يا عزيزتي أن تتبرئي من صداقة صديق له هذه العواطف وهذا الوداد الصادق كما يفهم من رسالته . ان فتاة مثلك لا تقدر ان تصد صديقاً نادر الاخلاص والود كهذا . وليس في الصداقة الطاهرة معرة . كنا مثلك وكان لكل فتاة فتى يناجي فؤادها فؤاده . فلا تحسبي هذا عيباً او معرة . لقد أسفت اني خاشنته بالرغم من ان اللوم عليه لان اسلوبه كان مستهجناً.

فعذراً يا عزيزتي ومغفرة . خذي الرسالة فهي لك

وقدمت مرغريت الرسالة لجميلة فردتها هذه قائلة : معذرة يا فيكونتس . لست اقبل رسالة ولا هدية من فتى مهما كان . ان عادات قومي يا سيدتي تأبى علي أن تكون لي أقل صلة باي رجل مهما كانت احواله

— وهل افهمت هذا الفتى عادات قومك حتى لا يزعجك بمثل هذا السلوك ؟

فنظرت جميلة في مرغريت وفي نظرها شيء من الغضب وقالت : وهل رأيته حتى افهمه ذلك ؟

فانكمشت مرغريت محاذرة التطوح في الحديث وقالت كانها تهمس لنفسها : قلت لعله سعى اليك قبلا كما سعى اليوم فابلغته

— فقالت جميلة وهي تكاد تسخط وتنزق : لا يامولاتي . لم اقابله في حياتي ولا رأيته ولا عرفت من هو

فقالت مرغريت : وماذا يمنع ان تريه وتقابليه وتقابلي أي فتى متأدب ذكي رقيق العواطف مثل « جم » . أنت في بلاد راقية متمدنة ، المرأة فيها حرة كالرجل ، ويجوز لها كل ما يجوز للرجل . وما يستنكر منها يستنكر من الرجل ايضاً . فلا مانع يا عزيزتي أن . . .

فقاطعت جميلة كلامها وقد قطب حاجباها غضبا وقالت: عفواً وعذراً يا فيكونتس . قلت لك اني لا اعرف فتى متأدباً ولا غير متأدب ولا فتى ذكياً ولا غير ذكي . فهل تريدين من هذا الحديث أن تستجوبيني بحق استضافتك لي . . . . ؟

فقطعت مرغريت الخطاب عليها قائلة : عفواً ومعذرة يا حبيبتي . لست اعني هذا قط . فاذا كنت تتوسعين في تأويل كلامي فاني « اسحب » كل كلامي واسكت عن هذا الموضوع نهائياً . وانما قادني لهذا الموضوع اضطراري ان اعتذر لك عن مخاشنتي للفتى وعن قراءتي الرسالة الامر الذي سوغه لي سلوك الفتى نفسه وتصرفه المستهجن . فارجو منك الصفح لهذين الذنبين . واود منك أن تعلمي انك تزدادين كل يوم كرامة ووقاراً في نفسي . وقد انشأ وجودك عندي مسروراً لي لا ينسى . فاشكر لك شكراً جزيلا تفضلك بضيافتي . أظن انك تحتاجين الان الى منعش . انادي لك لكي تأتيك بكأس منعش

والقت مرغريت الرسالة على المقعد الى جنب جميلة وادارت ظهرها لتخرج فقالت جميلة : ارجو منك ياسيدتي ألا تدعي هذه الرسالة هنا

— ولكنها لك ومعنونة باسمك

— لا لا . لا اقبلها . ألا تأخذينها ؟

— يا عزيزتي لا حاجة لي بها

— اذاً . . . .

وجعلت جميلة تمزقها حتى جعلتها هباءً ورمتها في سلة المهملات

* * *

وحاولت مرغريت في ذلك اليوم أن تستأنف الحديث مع جميلة بهذا الموضوع عسى أن تفهم منها شيئاً عن جم فما استطاعت. بل بالعكس لما أعادت الحديث في الموضوع عادت جميلة تمتقع وتزمهر واستأذنت اللايدي فيفر أن تعود الى منزلها. فبالغت مرغريت بالاعتذار. وبالجهد استطاعت أن تقنعها بالبقاء حتى الصباح التالي حين ودعت جميلة مرغريت وامها العجوز وشكرت لها لطفهما العظيم وعادت الى منزلها

* * *

في ذلك اليوم استدعت مرغريت بافل البوليس السري الذي كلفته أن يبحث عن جم وسألته ان كان قد وقف على معلومات جديدة

فقال : أن المعلومات التي أعطيتنيها يا سيدتي لم تفدني شيئاً في التحقيق عن مصير الغلام لانه لم يعد قط الى منزل السيدة شومان حيث كان يقطن مع شندي لال. ثم استقصيت كثيراً في حي الهنود عن اشخاص يعرفون شندي لال علهم يفهم ماذا يعرفون عن جم فما وجدت أحداً يعرفه لانه لم يكن يختلط ببني جنسه. ولم أعثر الا على واحد يعرف اسم شندي لال وهو لا يدري انه مات. وقد قال ان شندي لال كان في لندن منذ خمسة عشر عاما وانه عاد الى بومباي

— ذلك قبل أن يعود عودته الثانية.

ولكن أما عرفت شيئاً من الطبيب الذي كان يعالجه ؟

— الطبيب يقول انه لم يعرفه الا في المدة الاخيرة ولم يعرف عنه شيئاً

— وفي المدارس ؟ اما أهتديت الى من يعرف « جم »

— ما عثرت في المدارس على اسم جم لال البتة . وانما عثرت على اسم جون دال فقلت لعله هو يحرف اسمه وربما كان اياه لانه ترك المدرسة منذ ذلك التاريخ أي منذ تاريخ موت شندي لال . ولم يعد يعرف أحد عنه شيئاً . ولذلك أهملت البحث عنه لان معلوماتك يا سيدتي عنه عقيمة لا تؤدي الى باب أو سبيل يولج منه للبحث المثمر

فابتسمت مرغريت وقالت : لقد وجدت لك معلومات مثمرة وفي امكانك الان ان تهتدي الى السبيل المؤدي للفتى بعينه على ما أظن

— حسناً . هاتي معلوماتك

— في شارع هنري الثامن رقم ١٢ عائلة باسم برون . ومع هذه العائلة تعيش فتاة مصرية في نحو السادسة عشرة من عمرها اسمها جميلة المصرية . وهذه الفتاة تدرس في مدرسة فكتوريا العليا . فعليك ان تراقب هذه الفتاة

فقال بافل ضاحكا : هل تحول فتاك الى فتاة يا فيكونتس ؟

فابتسمت وقالت . لا . وانما اذا صحت

ظنوني فقد أصبح مقود فتاي في يد هذه الفتاة . فهي الشمس التي يدور جم في فلكها. وهي الربيع الذي يتطال « جم » الى أزاهره . فعليك أن ترقب السيارات التي تدور حول تلك الشمس

فتنهد بافل الصعداء وقال : لا اسهل من ذلك يا سيدتي . وفي عهد قريب آتيك بالخبر اليقين ان شاء الله

الفصل الثامن

كيف تشترى الثقة وتباع

نرجع بالتاريخ الى الوراء قليلا فنرى انه في عصر أحد الايام كان الدكتور رولنصون أستاذ الفلسفة في كلية سنت بول جالساً في مكتبه يطالع تارة ويكتب أخرى حسب عادته . فجاءه الخادم يقول : هنا فتى يدعى جايمس لام يريد أن يرى حضرة الاستاذ

— ماذا يريد ؟

— يقول أنه يريد مقابلة شخصية ويدعي أنه يعرف جنابك

وجعل الاستاذ يفكر عسى أن يتذكر فتى بهذا الاسم الى ان قال: لا أعرف شخصاً بهذا الاسم . فدعه يدخل الى هنا لنرى من هو وماذا يريد

فخرج الخادم ودخل فتى طويل نضير الطلعة سمحها أنوف أشم وبين شفتيه ابتسامة خالدة وثوبه قديم فيه آثار الاهتراء وتحت ابطه كتاب. وحيا الدكتور بتأدب

فرمقه الدكتور رولنصون مرتكا بعض الارتباك لانه لم يقدر ان يحكم على شخصية هذا الفتى من مجرد رؤية ملامحه ، لان ظواهره تدل على التشرد وملامحه تنم عن نبل ، وعقاليته غير مألوفة . ثم رد له التحية بأحسن منها وقال : تفضل اجلس

فجلس الفتى وقال له الدكتور ! انى يا بني كثير النسيان فهل تذكرني أين التقينا ؟

— أي نعم يا سيدي الاستاذ . ان من كان مثلكم يستحيل عليه أن يعرف كل معارفه ، حتى ولا جلهم لأنهم أكثر من أن يحصيهم عد . واما أين التقينا أنت وأنا ففي هذا : — (وأشار الفتى الى الكتاب) . فقال الاستاذ : ما هذا ؟

— هذا كتاب الفلسفة الادبية تأليف الدكتور رولنصون . ومنه استقيت روح الدكتور وتطبعت بمبادئه ولا سيما في باب الحق والواجب. هنا تعرفت بحضرتكم وجئت لكي أعرفكم بنفسي ،

فأعجب الدكتور بحديث الفتى وجعل يستأنس به وبدأ يغير ظنه فيه ويصرف نظره عن زي التشرد الذي يظهر فيه وقال : على الرحب والسعة يا بني . .

— حلماً يا سيدي . اني شاعر بالثقيل على جنابكم تمام الشعور بهذه الزيارة ، لانه لو كان كل شخص مثلي درس كتبكم الثمينة يخول لنفسه الحق بأن يعرفكم بنفسه كما أفعل انا الآن لكان على الله تعالى ان يجعل عمركم ألف أو ألفي سنة على الاقل حتى تستطيعوا استقبال أمثالي . ليت الله يطيل عمركم هكذا حتى تصبح زيارتكم حق لكل مطلع على تآليفكم

فابتسم الدكتور رولنصون رداً على تقريظ الفتى له وبقي ساكتاً فاستمر الفتى يقول : أما أنا يا مولاي فما جئت لأزعجكم بمقتضى هذا الحق بل بمقتضى حق آخر توهم عليه في كتابكم في باب الحق والواجب

وجعل الفتى يروي ملخص الباب بكل اختصار وبكل لباقة كأنه يقدم امتحاناً في الموضوع لاستاذه . وكان الدكتور رولنصون يعجب أيما عجب بكلامه الى أن قال : وقد برهنتم في فصل التعاون الانساني على ان مساعدة القوي للضعيف دين عليه . فاذا لم يف هذا الدين كان من فئة مقوضي أركان العمران . .

فقال الدكتور باسماً مقاطعاً : ماذا استطيع ان اخدمك يا عزيزي

— عفواً ياسيدي الاستاذ . لست اريد خدمة ولا صدقة حتى ولا مساعدة . ولست أرجو منك أن تخسر لاجلي الا نصف ساعة من وقتك . وبهذا النصف الساعة تكون قد اغدقت علي فضلا عظيما

فاستغرب الاستاذ وقال : لك يا بني ما تشاء . فماذا تريد أن تقول وماذا تحتاج ؟

— احتاج ياسيدي الى ثقة . عندي قوة ونشاط واجتهاد فوق معدل البشر . وعندي معرفة وارادة وصبر فوق معدل البشر . وعندي أمانة واستقامة واخلاص ومحبة فوق كل البشر . وانما احتاج الى ثقة فجئت لكي أنالها منك . .

فقاطعه الدكتور قائلا ماذا تعني . .

فقاطعه الفتى قائلا : قد تسأل لماذا تطلب هذا مني خاصة لا من غيري ؟ فأقول لك يا سيدي اني عجمت عود كل صنف من الناس ، وقدمت نفسي لكل فئة من اصحاب الاعمال فقبلوا مني قولي ، وانما كان يقف في سبيلهم عدم ثقتهم بي وأنا اجد نفسي اهلا لان اكون محل ثقة جلالة الملك نفسه . فاحترت في اجماع الناس على عدم الثقة بي لاني لم اجد في نفسي علامة خاصة تدل على الخيانة . فجئت لكي استفتيك يا سيدي في الوسيلة التي اتوسل بها الى ثقة الناس بي ، ولكي ارجو منك ان تضيف الى كتابك هذا فضلا عن هذه الوسيلة لانه بدونها يبقى الانسان ناقصاً

فكان الدكتور الفيلسوف يسمع كلام

الفتى مستغرباً وهو يتفرس فيه كانه يخشى أن يكون مخادعاً له . وشعر حينئذ ان محادثة هذا الفتى خير درس له . فقال . اني افتيك يا بني واضيف الى كتابي الفصل الذى تقول عنه بعد ان استفيد من امرك ما استفيد . فهل في امكانك أن تقص علي كيف لا يثق الناس بك ؟

— نعم يا مولاي . قصدت الى محام اطلب منه ان يجعلني كاتباً صغيراً عنده . فبعد ان امتحنني اعتذر بانه ليس عندي شهادة مدرسية . فقلت الشهادة لا تضمن معرفة واهلية . فقال : صدقت ولكنك لا تعرف الكتابة على الالة الكاتبة . فقلت في برهة اسبوع احسن الكتابة عليها . فقال. ليس مكتبنا مدرسة . وهكذا صرفني من عنده من غير ان يقبل مزيداً من رجائي ان يجربني

— لا تلمه يا عزيزي . ولو كانت قاعدة الاشغال هكذا كما تبتغي أنت لكان كل يوم يأتي الى ذلك المحامي الف فتى مثلك يقولون مثل هذا القول

— حسناً . ثم قصدت الى مكتب تاجر بسيط (كومسيونجي) فقال اين أوراقك فقلت ماذا تعني ؟ قال شهاداتك . فقلت ليس عندي شهادة الا العمل والامتحان . قال : هل تعرف احداً ؟ قلت لا اعرف احداً ذا شأن . قال : في اي مدرسة تعلمت . قلت في بيتي . قال : بكل اسف لست الشخص الذي ينفعنا

— ولا هذا تستطيع ان تلومه ....

— حسنا فذهبت الى جزار وانا أقول في نفسي ان الجزار لا يسأل عن شهادات ولا عن شهود لان شغله بسيط ولكنه كان اقل ثقة من الاخرين . فقال هل من يضمنك فقلت : لا . ولماذا الضمانة ؟

قال : سأكلفك ان تجمع من الزبائن في آخر الاسبوع ديوني عندهم . فلابد من احد يضمن انك تدفع لي المال . فتركته من غير أن اجاوبه لان جوابي له قد يفضي الى معركة بيننا

— حاماً يا بني . انه معذور . فلطالما كان جباة الاموال خونة . وهو لا يعرفك ولم يجربك بعد

— حسنا . اخيراً قصدت الى ادارة جريدة مشهورة وقلت في نفسي : هنا وظائف كثيرة متنوعة لا تحتاج الى ضمانات ولا الى شهادات . فقدم لي مدير الاشغال ورقة طلب وظيفة مطبوعة وقال : املأ كل فراغ فيها هكذا

اسمي — جايمس لام

عمري — ١٣ سنة

شهادتي المدرسية — لا شهادة عندي واما اعرف كذا وكذا وكذا

اشخاص يعرفونني — لا احد

أين اشتغلت سابقاً — لم اشتغل بعد

شهادة ممن اشتغلت عنده قبلا — ليس عندي

شهادة سلوك — ليس عندي

ضمانة — ليس عندى

فلما أطلع مدير الأشغال على هـذا الطلب ابتسم وقال : بكل أسف أقول لك يا بني اني لا أقدر أن أقدم هذا الطلب الى المدير . فالأفضل أن تأخذ ورقة أخرى وتجتهد أن تملأها بالايجاب لا بالسلب . ثم اعتذر مني وقال أنه مشغول

فاجاب الدكتور رولنصون : وتريد أن تملأ هذه الورقة ؟

— لا يا سيدي . فقد تركتها في ادارة الجريدة وخرجت الى معمل حديد وقلت أن الله أعطاني عافية وقوة فلا أشتغل الشغل الشاق بالحديد وان كان يقف الشغل البدني في سبيل الرقي العقلي . فسألني مدير المعمل كم عمرك . فقلت ١٣ سنة فاستغرب وقال . تكذب ونحن لا نستخدم الكاذبين

فقلت: عفواً يا مولاي. انك لا تكذبني أنا بل تكذب الله الذي بيده الاعمار ، وقد رام أن يفهمك أن في مقدوره أن يجعل في ١٣ سنة رجلا بل كهلا بل شيخاً أن شاء فما ذنبي اذا كان الله انماني جسماً . فقال : ليس في الامكان قبول أحد عندنا بهذه السن لان قانون الحكومة يحظر ذلك

فقال الدكتور رولنسون وقد لذ له حديث الغلام

— وهذا معذور يا بني

— نعم يا سيدي وقد طفت على آخرين فكان عدم ثقتهم بي سبباً كبيراً في رفض خدمتي . فهل الثقة أمر يباع ويشرى أو هو درس يدرس في المدارس . فبالله قل لي يا سيدي كيف انال هذه الثقة من الناس وكيف يثق الناس بعضهم ببعض من دوني وأنا أرى نفسي أعظم أمانة واستقامة حتى من المطران والاسقف

فضحك الاستاذ وقال . لا تلم الناس يا بني لأن الثقة قليلة فى الدنيا وغالية ، والناس الخونة كثيرون ، وبجريرتهم يضام الامناء . يلوح لي أنك حديث العهد في العالم وكثير العلم وقليل الخبرة بالناس فقل لي الآن في اي مدرسة تعلمت ؟

— درست في المدرسة اليومية ٣ سنين حتى بلغت التاسعة . ثم درست في بيت مسز طمسن ٣ سنين ونصف سنة

— هل بيتها مدرسة ؟

— كلا وانما كنت في خدمتها وهي سيدة فاضلة وعالمة فدرستني بعض بسائط العلوم

— الا يمكن أن تعطيك مسز طمسن شهادة ؟

— كلا لانها ماتت

— الا يمكن أن يشهد على صحة قولك هذا أحد من أهل منزلها ؟

— لم يكن في منزلها غيري ، لان لها ابناً مزوّجاً منفصلا عنها . ولها بنتاً مزوّجة ايضاً . وكان بينها وبينهما جفاء لانها لم تشأ أن تشركهما بعقارها في حياتها بل حفظته لنفسها حتى مماتها لأنها كانت أبية النفس ، وخافت أنها اذا سلمت عقارها لابنها وسكنت معه أصبحت تحت رحمة كنتها . وكذلك خافت أن تكون العاقبه اذا سلمت العقار لبنتها . فبقيت في منزلها وحدها تستغل ريع عقارها وهو كان كافياً بسبب تدبيرها واقتصادها . لهذا السبب كان ابنها وبنتها مجافيين لها حتى انهما كانا يمقتانني لانها استغنت بعنايتي في خدمتها عن عناية ابنها وبنتها الى أن ماتت

— وهل من قرابة بينك وبينها

— كلا وانما كنت اعرف القسيس فرغوسن في مدرسة الأحد . فلما قصدت اليه أن يجد لي شغلا ارسلني الى مسز طمسن بكتاب توصية فقبلتني في خدمتها وكانت تعاملني كابنها وتعلمني ، وعليها درست كل علومي

— أما كافأتك مسز طمسن لخدمتك لها ؟

— لم يكن عندها نقد . ورامت أن تخصني بقسم من عقارها فقلت لها اني لا اقبله لئلا تكون هـذه الهبة سبب نقمة ابنها وبنتها عليها وعلي

— اما كانت تدفع لك راتباً ؟

— معاذ الله أن أقبل منها راتباً . اما كفى انها علمتني علماً يساوي مال بنك انجلترا : وانما كانت تدس في يدي في بعض الاحيان شلنات وتلزمني أن آخذها . فكنت احتفظ بها اذ لم تكن لي حاجة بها وكنت آكل معها واسكن عندها . وكانت في كل عيد ميلاد تقتني لي بعض الملابس . ولم يكن ريع عقارها ليربو على نفقاتها . ولما مرضت واشتد مرضها كنت مضطراً أن أدفع اجرة الطبيب وثمن الأدوية من الشلنات التي استفضلتها

وكان الدكتور رولنصون يسمع كلام الفتى وهو يتأثر من جودة اخلاقة وطيب نفسه حتى كاد الدمع يطفر من عينيه . فقال ولماذا لا تعود الى القسيس فرغوسن فتساله توصية؟ فان توصيته وحدها كافية لرد الثقة العمومية لك

— رحمه الله

— أوما تعرفت بغيره ؟

— في مدة وجودي عند مسز طمسن

لم أكن اذهب الى مدرسة الاحد بل كنا هي وانا دائماً نقتصر على المحادثة في الكتاب المقدس يوم الاحد ، واحياناً كنا نحضر صلاة الاحد . ولم يكن لها من اتصال كثير بقسيس كنيستها ، ولم يزرها في مدة وجودي عندها سوى مرتين

— الا يمكن أن تستصدر من ابنها أو بنتها شهادة بحسن خدمتك لها و ...

— لا . لا . يا سيدي لا اطلب منهما هذا الطلب لاني اعلم انهما يمقتانني ولعلهما يعتقدان اني سلبت من امهما نقوداً

فتحير الدكتور رولنصن في أمر الغلام وقال : من تعرف غير مسز طمسن ؟

— لا احد

— أين كنت قبل سكناك معها ؟

فارتبك الفتى قليلا وقال : كنت مع ابي ولما مات جئت الى مسز طمسن

— أليس لابيك معارف واصدقاء ؟

— فتردد الفتى قليلا وقال : لا . ربما كان له اصدقاء فلا اعرفهم

— عجباً من كان ابوك ؟

— كان يدعى شندي لال

— وانت تدعى ؟

— جم لال . وانما مسز طمسن فضلت أن يكون اسمي جايمس لام فارتحت لهذه التسمية

— شندي لال اسم غريب

— نعم ياسيدي . كان شندي لال هندياً

— هندياً ؟ .. ولكن ..... اذاً انت هندي . . . وانما ...

فازداد تردد الفتى وظهرت عليه أدلة الارتباك وقال : نعم انا هندي . . . وحضرتك تشتبه في انتسابي اليه وملامحي ليست هندية البتة

— عفواً يا بني . نعم من يسمع مقالك هذا يشتبه هذه الشبهة

— لذلك لا اريد أن تبقى مخدوعاً ياسيدي الدكتور . فابي كان يقول لي ان امي كانت انكليزية وماتت اذ كنت طفلا . ثم اني مشتبه بمولدي لما فيه من الغموض

— كيف ذلك ؟

— لا أزال أذكر ان شندي لال ظهر في بدء صحوي من غفلة الطفولية ظهوراً جديداً . أي أتذكر اني كنت قبلا مع أخرين . لا اقدر الان ان اتذكر ذلك الا كحلم ضعيف جداً . وكنت اذا ذكرت هذا لابي شندي كان يقول لي انه كان متغيباً مدة بعد وفاة امي وكان مودعاً اياي في عهدة اناس ثم استلمني منهم . وبعد حين

جاء بي الى لندن

— اينما كنتما قبلا

— في الهند في بمباي . ولكن لا اتذكر بمباي جيداً

— وما الذي يحملك على الشبهة بقول ابيك ؟

— هو اني صرت الان افتكر انه ليس فيّ من ملامح الهنود شيء . فلعل شندي كان يكتم عني اسراراً لا ازال اجهلها

— ولماذ لم تدقق في شأنك حينئذ

— كنت صغيراً لا يتسرب الى ذهني شك ولا سيما لان شندي كان يعاملني افضل جداً مما يعامل اي اب ابنه

— أما ترك لك شيئاً ؟

ـ كان على شي من المال . فكان يتاجر ببعض بضائع هندية ثم صار يشتغل اشغالا مالية اضاع فيها رأس ماله . ولهذا كان في اواخر حياته منقطعا عن الناس كزاهد

وبقي الدكتور رولنصون يفكر في حديث هذا الفتى مستغرباً حكايته . ثم قال اني أود يا بني ان اساعدك

ـ عفواً ياسيدي الاستاذ لست أرجو مساعدة ولا احساناً . أود ان اقدم عملا مضاعف الجزاء الذي اتقاضاه لاجله . وعندي والحمد لله صحة وقوة وشيء من المعرفة وارادة عظيمة للعمل . ولا أريد منك الا ان تقنع من يستخدمني انى فتى أمين

فابتسم الدكتور رولنصون كانه يقول في نفسه : هذا ما يحتاج الى برهان . ثم قال له : حسناً! هذا ما اعني به مساعدة لك

ـ شكراً يا استاذي

انا اثق بك . ولكني لا اقدر ان اشهد لغيري الا اذا كنت ابني شهادتي على اختبار

واردف الاستاذ كلامه قائلا : اذا شئت عملا فاني اكلفك بعض اشغال تقضيها لي لا تستغرق اكثر من نصف يوم وفي مقابلها ادفع لك عشرة شلنات في الاسبوع . ومن حيث ان عندي غرفة منفردة فارغة اسمح لك ان تسكن فيها بلا اجرة . هل عندك لوازم غرفة ؟

— لا وانما عندي بعض الشلنات فادبر بها امري ربما تتحسن حالي

ـ حسن . ونصف النهار الاخر تجد فيه شغلا آخر

ـ شكراً جزيلا لك يا سيدي . متى تريد مني وقتي ؟

ـ لك الخيار . قبل الظهر او بعده . وانما بعد الظهر افيد لي

ـ حسنا وهو افيد لي ايضاً

الفصل التاسع

بزوغ نضرة الحب مهد برعمة القلب

وكان جم اوجايمس ينسخ للاستاذ بعض مقالاته وفصول كتاب كان يؤلفه وبعض رسائل وبعض محاضراته التي يلقيها على طلبته ونحو ذلك. وكان يقضي بعض اشغال أخرى منزلية

وبعد بضعة ايام سأله الدكتور رولنصون : هل وجدت شغلا لنصف النهار الاول يا جايمس ؟

ـ لا ياسيدي وانما اشتغل نصف نهاري بالدرس في المكتبة العمومية

فتململ الاستاذ وقال : اخاف يا بني ان ما تتقاضاه مني لا يكفي نفقة معيشتك

ـ لا تخف يا سيدي . ان ما تجود به من الاجر يكفي وزيادة . لاني اتفقت مع مطعم ان اخدم بعض الموائد فيه عند الظهر حين يكثر فيه الزبائن مدة ساعة وثم اتغدى فيه مقابل هذه الخدمة . ثم طلب مني صاحب المطعم ان افعل كذلك مساء فاعتذرت لئلا اقصر في خدمتي لك ـ كلا لا تعتذر . يمكنك أن تخرج من عندي في الميعاد المعين واذا بقي عليك شغل في مكتبتي فتعود اليه بعد العشاء

ـ شكراً عظيما لتساهلك معي يا سيدي الاستاذ اني ضمنت رزقي ودرسي بفضل مساعدتك العظمى لي

ـ اني مسروراً جداً يا بني من شممك حيث يحسن الشمم ومن عدم تكبرك على نوع الشغل هذا

وكان الاستاذ يختبر يوماً بعد يوم ذكاء هذا الفتى ونجابته واجتهاده في تحصيل العلم وأمانته ووداده ، ولا سيما اذ كان يحسن القيام بكل عمل يكلفه به الى ان صار أخيراً يكتب رسائله العمومية ويساعده في البحث في الكتب عن المواضيع التي يريد التنقيب عنها . وشعر أنه نابغة

ثم نصح له ان يستعد للامتحان للدخول في جامعة اكس العالية . وتوسط له عند الدكتور جون جيروم ان يساعده في ذلك. فلما اطلع هذا الفيلسوف على شهادة الدكتور رولنصون فيه ووقف على ذكائه النادر ادخله في الجامعة واستخدمه لبعض اشغاله الكتابية في اوقات الفراغ

واستتب الامر لجم اوجايمس لام كما قدم اسمه للجامعة ولاستاذه الجديد الدكتور جيروم . فكان يشتغل لهذا الاستاذ بعض الاشغال الكتابية ونحوها فيدفع الاستاذ له اجرة وكان يخدم على موائد أحد المطاعم فيتغذى فيه . وقد سر بهذا الترتيب لانه مبلغه امنيته من العلم

وفي ذات يوم اذ كان في مكتبة الدكتور جيروم يكتب ويحبر كالعادة دخلت دورا بنت الدكتور ومعها فتاة صديقة زائرة الى المكتبة وسألت جايمس : هل عندك كتاب في علم الاشعاع يامستر لام ؟

فقال : أجل . بالامس جاء الدكتور بهذا الكتاب وهو جديد في الموضوع

ـ فقالت دورا : انه لموضوع جديد ايضاً .

ـ نعم . لقد اصبح الاشعاع علماً قائماً بذاته يا سيدتي

فقالت دورا : اليس المراد به الراديوم

فقال جايمس : بل الراديوم من جملة مباحثه لان المراد بالاشعاع البحث في كل مايشع أو يتموج تموجاً شعاعياً من مركز الى محيط أو في حيز كروي كامواج الكهرباء والحرارة ايضاً

فقالت دورا : اذاً الحق في جانب الانسة جميلة فقد كنا الان نتناقش وهي تقول كما تقول انت . وانا اقول ان علم الاشعاع مقصور على الراديوم : يلوح لي انك قرأت الكتاب يا مستر لام

نعم قرأت وانتهيت من قرائته أمس وفهمت منه هكذا . وها هو فتفضلي خذيه ـ شكراً لك

وخرجت الفتاتان وجايمس يحس أن نظرات الفتاة الضيفة لا تزال سهاماً متتابعة الى صدره

رأى ألوفاً من الفتيات الى ذلك العهد فلم تحرك نظراتهن ضلوعه فوق قلبه ، ولا جعلت فؤاده ينتفض تحت تلك الضلوع قبل ذلك الحين

ولكنه لما وقع نظره على عينين سوداوين دعجائين تحت حاجبين كقوسين ملتقيين على قاب واحد فوق وجنتين سمرائين كأن بشرتهما من الحرير الهندي وبينهما ثغر لؤلؤي بين شفتين حمراوين تهمان أن تنقلبا فوق ذقن صغيرة كأنها بقية كمثرى ناضجة تكاد تعصر قطراً ـ وكل ذلك تحت أكليل من الشعر الحالك السواد كأنه بدر يطلع من تحت أفق داج ـ لما وقع نظره على هذه الملامح الغريبة التي لم ير مثلها من قبل تحرك في صدره فؤاده كتحرك العصفور الصغير في جوف عشه وأحس بخفقان لم يحس بمثله قبلا واضطرب

مجموعه العصبي كأن زلزالا غير منتظر فاجأه. ولم يفهم سر ما طرأ عليه قط . فبقي برهة في بحران أو مثل ذهول وهو لا يدري بماذا يعلل هذا العارض الجديد الذي عرض له . العل هذه الفتاة الغريبة ساحرة ؟ لم يفهم معنى لاسمها الغريب ولا تذكره وانما من لفظ دورا له فهم انها غريبة - ليست انكليزية فهل هي فرنساوية أو المانية أو روسية ؟ رأى من هذه الجنسيات نساء ولكنه لم ير واحدة منهن كهذه الفتاة ملامح ونظرات . العلها اسبانية ؟ فقد تذكر انه رأى فتاة تقارب هذه بعض المقاربة في ملامحها وقيل له انها اسبانية

ما شعر جايمس الا انه وقف وتوجه الى الباب يريد الخروج ولكن الى أين ؟ فتردد ثم مشى الى أن بلغ شرفة واسعة فاذا هناك دورا والفتاة فقال مختلقاً حيلة: عفواً يا سيدتي الآنسة دورا . اظن في الكتاب ورقة لا تهمك

وكان الكتاب في يد الفتاة جميلة فجعلت جميلة تقلب أوراقه وألوان وجهها تتقلب من الاحمر الى الاصفر الى الابيض . ثم دفعت الكتاب الى دورا . فقلبت دورا الكتاب وهي تقول : لا أرى فيه ورقة

- لا بأس يا سيدتي : سأبحث عنها في المكتب . لا تهتما بها

وعاد جايمس وهو يحس أن نظرات تلك الفتاة ترمي على قلبه نبالا متتابعة. وعاد الى المكتبة وجلس وهو يقول في نفسه : لا ريب أن هذه الفتاة من أسرة سحرة . أن في عينيها لسحراً . ويلي لقد رمتني بدائها وانسلت

ونهض ثانية وجعل يتمشى في المكتبة بل كان يخطر فيها كالمجنون وهو لا يدري ماذا اصابه لانه لم يصب بمثله في ماضي حياته وهو لا يزال في السادسة عشرة من عمره

بعد هنيهة عادت دورا بالكتاب وفيه ورقة اعلان من الناشر يشتمل على ذكر مطبوعات جديدة وقالت : لعل الورقة التي تبحث عنها هذه يا مستر لام

فقال : لا يا سيدتي . اشكرك

ورأت دورا جايمس متلهب الخدين فقالت : أراك مضطرباً . لعل الورقة ذات اهمية عظمى

- لا . لا تهم سيدي الدكتور البتة . أخاف أن تكون صديقتك قد استاءت من تسآلي عن الورقة والكتاب في يدها

- لا داعي لاستيائها وهي فتاة كريمة الخلق جداً

- نعم اسمع أن الاسبانيات رقيقات لطيفات

ـ من قال لك أنها اسبانية

ـ كذا ظننتها لان ملامحها ..

ـ كلا بل هي مصرية واسمها جميلة المصرية وهي في مدرستنا وقد كسبت مودتها

ـ يلوح لي أنها ذكية

ـ أي نعم: يقولون أن في مصر ذكاء كثيراً

ثم خرجت دورا باسمة وبقي جايمس يفكر في ما سمع من حديث دورا ويجدده في ذهنه الى أن سمع زقزقة كزقزقة العصافير فاطل من الشباك فاذا جميلة تودع دورا في خارج باب المنزل ثم مضت

ذلك كان أول عهد جايمس بجميلة، وما لبث طويلا أن فهم أنه أصبح محباً لجميلة بل عاشقاً لها . ولكنه لم يجسر أن يسائل دورا عنها بعد ذلك اللقاء، اذاً كيف يتمتع برؤيتها ؟ أين تسكن؟ أين يمكنه أن يجدها؟ أصبحت تخيلاته بجميلة شغله الشاغل في أوقات الفراغ وجعل يقيم لاقنومها تمثالا في ذهنه وكل يوم يزيد هذا التمثال جمالا حتى أصبحت جميلة في ذهنه المثل الاعلى للجمال الجسماني والروحاني معاً

بعد نحو شهر عرف أن جميلة كانت زائرة لدورا بعد ظهر السبت وهو لا يكون يوم السبت في منزل الدكتور جيروم عادة فادرك انها وهي تلميذة لا تقدر ان تزور دورا الا يوم السبت . فتمرمر من جراء ذلك واحتار كيف يدبر الامر لكي يوجد في مكتبة الدكتور يوم السبت . فقدح زناد الفكرة حتى اوجد لنفسه شاغلا يشغله يوم الجمعة واستأذن الدكتور ان يعيضه يوم السبت بدل الجمعة . فاذن له في ذلك: ولكن مرت السبوت وجميلة لم تلح في بيت الدكتور وهو كان يخجل ان يسأل دورا عنها . وهكذا كان كصاحب السنارة ينتظر السمك في البحر

في ذات يوم صادف دورا وجميلة تتمشيان في احد الشوارع فرقص فؤاده في صدره وحاول أن يتعرض لهما لكي يغنم فرصة الحديث واللقاء . ولكن الخجل والخوف صداه صداً منيعاً : هذا القوي المتكبر الانوف الذكي اللبيب الحاذق جبن عن مقابلة فتاة

وما زال يتمشى وراءهما من بعيد حتى رأي دورا تودع جميلة عند أحد الابواب وهذه تدخل ودورا تستأنف المسير الى الترام لتعود الى منزلها

فعلم أن جميلة تقطن هناك وجعل يرصد تلك الجهة ولكن حين تكون جميلة عائدة من المدرسة يكون جايمس مشغولا . فعاد يرصد المكان في اوقات غير أوقات المدرسة كيوم السبت ويوم الأحد . فكان في بعض

الاحيان يصادفها ولكنه كان يحجم عن التعرض لها مخافة نفورها . ولاسيما اذ تقادم عهد لقائهما الأول. ولكن قيض الله له لقاء آخر كاللقاء الأول . وبالرغم من شدة تجرئه لنفسه لم يتيسر له الالقاء بضع دقائق . ذلك انهما تصادما نظراً لنظر وابتسامة لابتسامة وتورد وجنتين لتورد وجنتين، ثم اغضاء لاغضاء. ولكنه لما صار على قيد ذراع منها رفع نظره متواقحاً وقال:

اظن ان حضرة الانسة جميلة تتذكرني في بيت الدكتور جيروم وهي مع صديقتها الانسة دورا

فتوقفت الفتاة لتتحايد الصدام وقالت: نعم اتذكر

ـ وددت لقاءك لكي اعتذر عن ذنب جنيته

فقالت الفتاة مبغوتة : ماذا ؟ لا ادري

ـ انه لطف عظيم منك ان تتناسي ذنبي لكي تخفي وقره عن ضميري

ـ لست اتناسى ولكني لا ادري شيئاً مما تقول . فماذا تعني ؟

ـ استوقفتك لكي ابحث في كتاب « علم الاشعاع » الذي كان في يدك عن ورقة لي ظننتها فيه . فما صدق ظني

ـ اذكر ذلك جيداً . ثم ماذا ؟

ـ لا شيء غير هذا . وقد حسبته مسيئاً لك

ـ هذا امر اعتيادي لا يسيء

ـ اذاً لم تستائي مني حينئذ ؟

ـ كلا البتة . ما الذي فيه يسيء ؟

ـ هو جسارتي التي احسبها امراً مسيئاً

ـ ولكني لم استأ قط . فهل بدت مني امارة استياء حينئذ ؟

وشعر جايمس انه متشجع في مخاطبتها والفرصة سانحة فاسترسل في الحديث قائلا . نعم رأيت في وجنتيك تورداً

ـ لم أشعر بشيء من هذا

ـ اذن هذا التورد خلقة يا سيدتي وقد اخطأت ظناً . وكان هذا الظن يوقد ناراً في ضميري كل هذه المدة . ولهذا تجاسرت مرة ثانية على التعرض لك لكي استغفر فتغفري فتبرد نار ضميري :

ـ لقد بالغت يا سيدي في الاعتذار لغير ما ذنب . واتأسف أن امراً كهذا أقلق نفسك كل هذه المدة .

ـ اخاف من أن اكون وانا اعتذر عن جسارتي الأولى قد اسأت في جسارتي الثانية .

ـ كلا البتة .

وتظاهرت جميلة بمحاولة التملص فقال تجايمس : اذاً لست مستاءة مني بشيء

ـ كلا كلا .

ـ اشكر لك صفحك وتنازلك لقبول اعتذاري .

ـ لا داعي للشكر ولا للاعتذار

ـ يهمني جداً ياسيدتي ان تكوني راضية عني . وهذا الرضى يستحق كل شكر وامتنان . سامحيني لتعرضي لك واضاعة دقائق من وقتك الثمين

ـ ولا هذا يستوجب الاستسماح

ـ ما اعظم حلمك . اني مغتبط عظيم الاغتباط في هذه المقابلة . هي اسعد ايام حياتي . ليت في وسعي ان اكافيء هذه السعادة

ـ ارجو لك اغتباطاً لانهاية له

ـ ما زلت تغدقين علي نعمة الاغتباط فما اكرم خلقك ؟

فازداد تورد الفتاة بقدر ازدياد جرأة تجايمس وقالت : شكراً لثنائك

ومدت يد المصافحة ومديده وتصافحاوهو لا يكاد يشعر بكفها . وهل يشعر الانسان بالاثير ؟ بلى يشعر بالكهرباء التي يتموج بها الاثير . فقد شعر تجايمس بخلجة كهربائية عبرت في كل أسلاكه العصبية .

وانطلقت الفتاة في سبيلها وهو واقف ينظر اليها ولا يدري أنه واقف . نسي نفسه في وقفته الى أن انعطفت في طريق آخر فتراءى له انها رأته واقفاً فتلهب وجهه خجلا

توارت وبقي واقفاً يستعيد في ذهنه ثواني ذلك اللقاء وفي ذاكرته نغمات ذلك الصوت الرخيم وفي مخيلته ذلك اللطف الملائكي . ثم تمشى الهوينا وهو يتأوه ويقول في نفسه : ترى هل يستحيل لقاء آخر ؟ آه ما اجبني ! لم تنفر مني . فلماذا لم استرسل في الحديث ! ترى هل سمعت خفقات فؤادي وهل احست بخطرات افكاري المكنونة ؟

ومضى وهو يسترسل في هذه الافكار ويطمع النفس ثم يهاجمه اسد الياس

بعد ذلك تسنى له ان يلاقيها مثل هذا اللقاء فكان يحييها ويختلق سبباً للحديث فلا يجد منها نفوراً وانما يتراءى له كأنها متململة قليلا ، وهو لا يستطيع الا ان يؤول هذا التململ بالوجل وخشية التمادي في الحديث . وما درى ان الفتاة المصرية شديدة الحياء وليست جريئة كالفتاة الانكليزية . ولذلك كان يقتصر على الحديث في امور مختلفة بعيدة عما في نفسه

وفي لقاء ثالث او رابع ازدادت جرأته وماشاها قليلا وهو يخاطبها بحجة أنه يسألها بعض كلمات عربية فاجابته عليها وقالت : لماذا تسأل عن كلمات عربية ؟

— لاني شرعت أدرس هذه اللغة في جامعتنا

— عجباً . وماذا يهمك من دراستها ؟

— أود أن اطلع على آداب العرب فيها

— ولماذا يدرسون هذه اللغة في جامعتكم

— يدرسها المستشرقون والاشخاص الذين يبتغون التوظف في مصر

— ولماذا تدرسها أنت ؟ . هل تريد أن تتوظف في مصر ؟

— لا قصد خاص لي الآن . فان الغاية متعلقة بالمستقبل . وانما يقولون انها لغة قديمة وجميلة وشعرية ، ويمكن الانسان أن يعبر فيها عن عواطفه أكثر من كل لغة

وكان جايمس يتورد وجميلة يتلهب خداها أيضاً فقالت : عفواً ومعذرة لسؤالي عما لا يعنيني . وانما سألت سؤالي لان درس العربية بغية التوظف في وظائف الحكومة يختلف عنه لاجل درس آداب العرب وعلومهم . فهي لغة واسعة والعامي منها يختلف عن الفصيح

— اذاً سأدرسها درساً لغوياً علمياً حتى يتيسر لي أن أعبر عن أدق عواطفي

— عجباً أن تختار العربية لهذا الغرض وهي غريبة عنك

— لان عندي عواطف عجزت عن التعبير عنها في لغتي فأود أن الجأ الى العربية

وجعل صوت جميلة يهتز اهتزاز الوتر كأنها كانت تحس بمعان وراء معاني هذا الكلام فقالت : اني أستغرب أمرك يا مستر لام . هل جربت ذلك في لغتك ؟

— جربته ففشلت ولكني سأجربه مرة أخرى وأعرضه عليك لارى رأيك فيه . فهل يمكنني أن ألاقيك هنا أو في أي مكان تريدين ؟

عذراً اذا لم نلتق مصادفة فلا أقدر أن اعين موعداً للقاء . واعذرني لاني لا أستطيع أن ادعوك الى حيث انا مقيمة كضيفة هناك . ناهيك عن ان عاداتنا تختلف جداً عن عاداتكم وأريد أن أحافظ عليها اينما كنت

— ليكن يا سيدتي ما تشائين . اترك أمر تمتعي بشرف لقائك لرحمة المقادير . واظنها لا تبخل بها كثيراً على صديق صادق مثلي

وعند ذلك قالت له « جود باي » اخاف أن تستبطئني مسز برون

***

عقدت الحفلة التي روينا خبرها في الفصل الاسبق في بيت الدكتور جيروم لاجل بنته بعد نيلها الشهادة المدرسية ودعي لها جايمس ولكن جايمس لم يحضر لانه لم يكن عنده الثوب الرسمي اللائق للحفلة . وما ندم على ذلك الا بعد أن علم أن جميلة كانت مدعوة وحضرت ورنمت قصيدة من نظمها . فلعن

الظروف والاحوال التي حرمته حضور الحفلة . ولعن التقاليد التي توجب لبس الملابس الرسمية

ثم علم ايضاً أن الفيكونتس مرغريت فيفر كانت في جملة المعجبين بذكاء جميلة وشعرها وصوتها الرخيم فدعتها لقضاء اسبوع عندها في قصرها . فحمى غضبه وهاج سخطه لانه حسب خيلاء مرغريت مهانة لجميلة . فلذلك رام أن يقابل جميلة ويحذرها من عواقب وجودها عند الفيكونتس . فكتب لها تلك الرسالة التي وردت في فصل سابق وتذرع لتسليمها بالوسيلة التي عرفها القاريء وعرف نتائجها

بعد ذلك جعل جم يراقب جميلة لكي يجتمع بها ويستفهم منها عما كان من أمرها مع الفيكونتس . وبالطبع كان يترصدها في المكان الذي اعتاد أن يراها فيه وهي عائدة الى منزلها . فلمحها مرة من بعيد فأسرع لكي يدركها فاذا بها تعجل كأنها تهرب منه . وتوارت قبل أن يدركها

وفي اليوم التالي صادفها أيضاً وأسرع ليدركها ففعلت نفس الامر . فضاق ذرعاً . وفي اليوم الثالث ترصدها في السبيل الذي لا بد ان تسير فيها أي قبيل منزلها فلما التقى بها احجمت واعرضت وقالت : بربك دعني لا تحاول لقائي بعد

واجتهد ان يخاطبها فأسرعت كالغزال النافر ودخلت الى منزلها . فارتد عائداً من حيث اتى . فالتقى برجل ذي لحية صغيرة تذكر انه كان يراه في اليومين الاخيرين كأنه يترصده . فحسبه رقيباً من قبل ذويها عليها . وخاف ان يكونوا قد شعروا بالتقائها به فراموا ان يحولوا دون لقائهما

فكاد جم يلتهب غيظاً من هذه المعاكسات . فحار في امره وجعل يتلظى شوقاً الى وسيلة للتفاهم مع جميلة . فقدح زناد فكره الى ان توفق لخاطر ظنه بديعاً فكتب اليها الرسالة التالية :

« يا علة حياتي . لم أعد احتمل أن أكظم حبي بل عبادتي لك . فان كنت راضية عني فضعي رداً لهذه الرسالة كلمة مختصرة واخبريني اين يمكن أن نلتقي لحظة واحدة ولو مرة لكي نتفاهم . وبعد ذلك نعتصم بحبل الآمال الذهبية الى أن يتيح لنا الحظ باللقاء الدائم السعيد الشريف »

ثم طوى هذه الورقة ووضعها في وكر صغير في زاوية جدار منزلها . ومضى الى حيث ترصدها في الميعاد المعين . فلما رأته عدلت الى طريق آخر . فضاق ذرعاً

وأسرع لكي يدركها في الطريق الآخر فاذا به يلتقي بالرجل ذي اللحية . فقال كأنه يخاطب الفضاء : « لعنة الله على وجه الشؤم » وما زال يسرع الخطى حتى ادركها وسار الى جنبها وهو يقول على مسمع منها . « لك رسالة في الوكر الذي في زاوية جدار منزلكم. اعذري ثقالتي »

وبقي سائراً في سبيله حتى انعطفت في طريق آخر فعاد ليراقبها . فاذا به يلتقي بذي اللحية وقد استوقفه سائلا . عفواً ومعذرة يا سيدي الفتى . أرجو منك ان ترشدني الى دار الفنون الجميلة

ـ لا أدري أين هي

ـ لا بأس ارشدني الى النادي الموسيقي

ـ لا أعرفه

ـ ارشدني الى جامعة الفنون فهي على مقربة منهما

ـ تباً لك من ثقيل . ألا تفهم اني مشغول وأنت بارد . فدعني

وأسرع جم فاذا جميلة قد توارت . ثم ذهب الى وكر الجدار فلم يجد الرسالة فسر وابتهج اذ اعتقد انها اخذتها

وعاد بعد ذلك الى ذاك الوكر مراراً لكي يأخذ الرد . وكان يستغرب انه رأى الرجل ذا اللحية بعد ذلك مراراً كأنه الشيطان الحاضر في كل مكان

الفصل العاشر

نبضات القلوب أصدق لغة

نعود الآن الى أحد افراد حكايتنا الذين في مصر واهمهم من سياق الحديث كما لا يخفى على القارىء علي بك سيف . وقد حزر القارىء ، ان جميلة بنته. وانه اخذها الى لندن لكي تدرس في احدى الكليات وتتعلم تعليما عالياً. فصار في كل صيف يرحل الى اوروبا بغية النزهة والاصطياف والاجتماع ببنته في لندن

في ذات يوم كان علي بك يتغدى في مطعم ، وكان الخادم الذي يخدمه في المطعم مشرق المحيا صبوح الوجه بشوشاً . فلما انتهى علي من الغداء وهبه شلناً لسروره بحسن خدمته . فرده له الخادم قائلا . شكراً جزيلا ياسيدي. لست اقبل «بخشيشاً»

ـ عجباً ألأنه قليل أم كثير ؟

ـ انه لكثير جداً . ولكن لست لهذا

السبب ارفضه ، بل لأني لا أقبل جزاء بلا عمل مقابله

– ولكنك عملت . فقد احسنت خدمتي

ـ انها لواجبة علي لاني آخذ اجري من المطعم

ـ عجباً . كل خدمَة الموائد يتقاضون اجراً ومع ذلك يقبلون بخشيشاً

– اما أنا فاستقبح هذه العادة جداً

ـ كم تأخذ أجرة عملك هنا ؟

ـ اخدم ساعة فاتغدى في مقابل عملي

فاستغرب علي بك ذلك كل الاستغراب وقال : وماذا تفعل في بقية النهار ؟

ـ ادرس في جامعة اكس واشتغل بعض ساعة او ساعتين عند احد الاساتذة

فدهش علي بك . وقال : لله درك ! تدرس في جامعة وتشتغل في مطعم. هو أمر لا يكاد يصدق

فضحك الفتى وقال : ان لهجة جنابك تدل على انك غريب . فمن اي البلاد حضرتك ؟

ـ من مصر

فأجاب الفتى بعربية مكسرة : اذاً تتكلم العربية التي ادرسها في جامعتنا

فاستغرب علي بك وقال : انك يا هذا لجدير بأن تكون رجلا عظيما يوماً ما . لانك تفعل مالا يستطيعه أي انسان . وهل انت مضطر أن تشتغل ؟

ـ نعم اذ ليس لي من ملاذ غير نفسي

ـ ابواك ؟

ـ لا أبوين لي

ـ واقارب

– ولا اقارب البتة

ـ عجباً . كيف ذلك ! أليس لك اهل هنا ؟

ـ كلا ياسيدي . لاني هندي الاصل

ـ عجباً . ليس فيك ملامح الهنود بتاتاً

– امي انكليزية

ـ واسم جنابك ؟

ـ اسمي جايمس لام

ـ ولا في اسمك حرف من حروف الهنود

ـ اسمي الاصلي جم لال . فغيره بعض اصدقائي لكي لا يكون غريباً مستهجناً

فدهش علي بك اذ سمع لفظ لال وخامرته الظنون فقال : ماذا كان اسم ابيك

ـ شندي لال

فاختلج بدن علي وقال في نفسه : شندي لال الساحر الذي لعب دوراً على الصنوبري عمدة طنوف وسرق الطفل جميلا . هل يمكن ان تكون المقادير عاقلة فتجمعني بجميل . هل يمكن ان يكون هذا جميلا بعينه؟

ورأى جم لال ان الرجل المصري قد

اضطرب قليلا وتقلبت الوان وجهه وقال هل تعرف شندي لال ؟

فتردد علي بك ثم قال : يمكنني ان اقول اني اعرفه أو أعرف عنه أموراً تهمك

فاصبح الفتى قلقاً يود ان يعلم ما يعلمه هذا المصري عن شندي لال . فقال : هل يمكنك ان تخبرني ماذا تعرفه عنه ؟

ـ بلا شك . فهل يمكنك ان تتمشى معي الى أي مكان بعد انتهائك من الشغل هنا فنتحدث ؟

فالتفت جم الى الساعة وقال : لقد انتهى شغلي هنا . نتمشى الان الى الحديقة العمومية القريبة

ـ حسناً . هلم

ومضيا معاً وعلي بك مضطرب البال تجول في نفسه الافكار والهواجس، الى ان بلغا الى الحديقة العمومية فجلسا على مقعد وقال علي بك : هل شندي لال يقول لك انه ابوك ؟

ـ كذا كان يقول وكان يعاملني كاب شديد الحنان

ـ شكراً له ورحمة عليه . وهل كنت مقتنعاً انه أبوك ؟

ـ كان يخامرني الشك بذلك

ـ لماذا ؟

لاني اتذكر اني كنت مع أناس آخرين قبله . أما هو فكان يقول ان امي ماتت وانا طفل رضيع ، فاضطر ان يودعني مع آخرين لكي يربوني ريثما اكبر قليلا . ثم اخذني منهم

وكان علي بك يسمع هذا الكلام ويدهش اذ لم يبق عنده ريب ان هذا الفتى هو جميل . فقال : وهل تذكر احداً من الناس الذين كنت معهم قبلا ؟

ـ كلا البتة . ان تلك التذكارات كالاحلام الضعيفة الخافقة

فهز علي بك رأسه وقال : اود ان اعلم منك أمراً اللهم تصدقني الخبر

— يستحيل ان اكذبك في خبر

— هل عندك في ايسر صدرك وشم كهذا ؟

ورسم علي بك على ورقة رسماً

فدهش جم كل الدهشة وقال : اجل في صدري الايمن هذا الوشم . ولم افهم سره . وكان شندي يقول لي انه طبيعي . ولكني اخيراً صرت أغالط نفسي ولما صرت اعلم عملية الوشم فهمت انه غير طبيعي . كيف كنت جنابك تعرف ان في أيسر صدري وشما كهذا ؟

ـ لانك قبل ان يسرقك شندي لال كنت عندي في منزلي وبعنايتي

فازداد جم حيرة ودهشة وقال : لماذا

كنت عندك في عنايتك ؟ ولماذا سرقني شندي لال ؟

فتردد علي بك في الكلام وقال : أن تاريخ مولدك يا بني محفوف بالحوادث الجسام فقد كنت انا في ذلك الحين قائداً في جيش عرابي باشا الثائر الذي كان الانجليز يقمعون ثورته حينئذ . وقد خفت على حياتك في غيابي من اعدائنا . فأودعتك عند شخص يحتفظ بك الى ان اعود من الحرب ، أو ان يربيك اذا مت . فسرقك شندي لال وكان معه زنجي حينئذ يدعى عنبر .

فصفق جم كفاً على كف وقال : ويلي . لقد تذكرت الزنجي عنبر الان فانه سكن معنا مدة ثم فارقنا قبل ان نأتي الى لندن .

ـ اذاً لم يبق عندك شك في صحة كلامي

ـ كلا . وانما لماذا سرقني شندي لال؟

ـ هذا هو السر الذي لم افهمه ولم أتحققه حتى الان . وانما رجحت ان اعدائي دسوا ذلك الهندي شندي لال لكي يسرقك نكاية بي . فلعب على ذلك الشخص الذي أودعتك عنده دور شعوذة غريب حتى أنامه أو اسكره وسرقك منه وتركه نائماً

وكان جم يسمع هذا الكلام ويدهش ويكفهر تارة ويمتقع اخرى وقال : ولكن الى الان لم تقل لي ابن من أنا وكيف كنت في ظل عنايتك ؟

فابتسم علي بك مكفهراً وقال : أحسبك قد علمت من نفسك ان اباك هو الجالس الى جنبك الان ولا تبقى في حاجة الى برهان آخر

ووضع علي بك كفه على كتفه يربته ويقول له : نعم انت الى جنب ابيك الان الذي ذاب حسرة عليك

فوجم جم واجفل ونفر ثم وقف . فقال له علي بك : وانه ليعز علي يا بني ان اراك تخدم في مطعم لكي تعيش وتتعلم . وفي وسعي ان انفق عليك ماتشاء من المال لكي تتعلم ماتشاء وتعيش منذ الان سعيداً . وفي وسعي ان أزوجك اجمل فتاة وافضل الفتيات ادباً واخلاقاً وفضلا وعلماً . اني والحمد لله في يسر وعندي ثروة ليست بصغيرة .

فتجهم جم حين قال له انه سيزوجه أجمل بنت في العالم اذ خطرت له في الحال جميلة وهو لا يدري انها بنته فأثار خاطرها شجونه . ثم مشى فتمشى معه علي . وفي الحال اجفلته رؤية ذي اللحية وهو يمشي في نفس الطريق على مقربة منه . وقال في نفسه : اعوذ بالله العلي العظيم . ما بال هذا

الشيطان قد اصبح لي كظلي . يراقبني في هوى جميلة حتى صار يترصد طيفها اذيلوح في مخيلتي . تباً له

كانت هذه الافكار تلوح في بال جم وهو يتمشى وعلي بك الى جنبه حائر في تفهم سرائره وما يجول في خاطره حينئذ فقال : ماذا تقول يابني ؟

فقال جم : ومن هي أمي ؟

— سأطلعك على اسرار مولدك بعد حين يابني . يكفي ان تطمئن لابيك وتعلم انه يضحي بالغالي والرخيص لاجلك . اني مستعد لتقديم كل نفقاتك مهما بلغت بحيث تعيش عيشة تليق بنسبك وذكائك ومكانتك الاجتماعية . منذ الان تغير اسلوب معيشتك فتسكن في غرفة حسنة لائقة بك وتقتني الملابس الفاخرة . هذه الان عشرون جنيها . تشرع باقتناء لوازمك الاولية وغداً نلتقي فتخبرني كم يلزمك من النفقات لعام فأقدمها لك

فامتنع جم عن أن يمس اوراق النقد التي قدمها له علي بك وقال : معذرة . رد نقودك ياسيدي الى جيبك . فلست في حاجة الى معونة احد . اني انفق من اجرة عملي على نفسي واعيش حراً كما اريد . واتعلم ما أريد ولا أكون تحت سيطرة أحد

— حلمك يابني لست أريد أن اسيطر عليك وأنت في هذه الاخلاق النبيلة وهذه الفضائل السامية وأنت في غنى عن كل من يرشدك . واذا قدمت لك نفقة من المال الذي يستحق لك بعدي فلست أمنك أو آسرك بما انفقه عليك

ـ لا . لا . لاتصدق اني اقبل أبوتك واقدم لك بنوتي لمجرد أنك تنفق علي . لست في حاجة الى نفقة . فقد عشت عشر سنين وأنا غلام قاصر على حساب نفسي وقد ربيت نفسي واستغنيت عن أي صدقة أو احسان . فما أنا في حاجة الى مال ولا الى نفقة ولا أنا عاجز عن أن أعيش بقية حياتي في يسر وسعادة ومكانة سامية

— اذاً الى ماذا أنت في حاجة ؟

— اني في حاجة الى عواطف . الى الان لم أر فيك عواطف الاب . عذراً . لست أشعر أن لي بك اقل صلة من صلات الدم . لا أحس أن دمي ينبض لكلمة من كلماتك . ان قلبي كان ينتفض عطفاً على شندي لال الهندي يوم كان يحتضر ولاملاذ له ولي ، اكثر جداً مما ينتفض لحكايتك الان . فدعني ياسيدي . لا ارتاح الى هذه البنوة لا ارتاح . قد تكون أبي حقيقة وقد يكون دمي مشتقاً من دمك .

ولكن قد انقطع حبل القربى بيننا منذ فصلني عنك شندي لال وما سعيت لاستردادي منه .

— فكسف بال علي بك وشعر أن حربة طعنت عزة نفسه وقال : صدقني يا بني اني بحثت عنك جهد طاقتي . فما استطعت اليك سبيلا

— يستحيل . لو كان ذلك الدم النابض في عروقي مشتقاً من دم عروقك لكان دمك العطوف يسمع دمي الصارخ اينما ذهب به شندي لال ، ولا سيما وانت في بحبوحة من المال ، وفي امكان مالك أن يصنع جناحين لعواطفك . لقد اهملتني يا هذا صغيراً فلا تجدني كبيراً

— وربك اني لم اهملك . قضيت كل هذه السنين ابحث عنك وابتهج الان اذ وجدتك

— لقد وجدتني مصادفة فدعني يا هذا ما انا ابنك ولا أنت ابي

— بربك يا ولدي . قل لي كيف استطيع أن أبرهن لك ابوتي ؟

— مازلت الى الان تمكر علي . اسألك عن أمي فتراوغ

— أما قلت لك أن المستقبل يكشف لك المخبآت

— المستقبل غير محدود ياسيدي فقد تمضي ايام العمر كلها ونحن ننتظر المستقبل فلا يحضر . فالمستقبل موجود الان

— فتململ علي بك وقال : الامور مرهونة باوقاتها يا بني

— اذن دعها مرهونة . اسمح لي الان ان أودعك لان عليّ واجباً في هذا الميعاد يجب أن اقضيه

— اذاً متى نلتقي ؟

— متى قضت المقادير

وأفلت جم من يد علي بك وعداعدو الغزال النافر

وبقي علي بك يفكر في هذا الدور الذي لعبته الاقدار وهو كانه في حلم حتى كاد يغالط نفسه فقد لا يكون هذا الفتى جميلا بعينه . ولكن ذكره اسم شندي لال وتذكره الزنجي واعترافه بالوشم — كل ذلك برهن على أنه هو جميل . ثم جعل علي بك يلوم نفسه لانه لم يخبره بالحوادث الخطيرة التي اكتنفت بدء حياته وعهد طفولته . وبعد تفكير طويل عقد النية على ان يجتمع به مرة أخرى ويروي له الحقيقة بالتفصيل

وفيما هو يتمشى سابحاً في بحر من الخيال لاح أمامه في تلك الحديقة الاخوان حسن وحامد بك المهندي . فاجفل وقال في نفسه : بالله كيف حضر هذان الرجلان الى هنا الان ؟ ومتى جاءا الى لندن وماذا يبتغيان ؟ هل يمكن انهما يعلمان ان الغلام

جميلا هنا فقصداه لكي يفعلا فعلتهما الخبيثة ؟ بل اظنهما علما اني جئت الى لندن فظنا اني اعرف مقر جميل واني اجتمع به سراً فجاءا يترصدانني . ان هذين الشقيقين الشريرين يبتغيان ان يحصدا من غير زرع وان يحلبا من غير تربية ضرع . فلن ادعهما ينالان مأربا . انى لهما بالمرصاد

ولا يخفى على القاريء أن علي بك سيف يملك الحقيبة التي فيها وصية علي باشا الربيعي ابي جميل او جم . وبموجبها يستحوذ جميل على تركة الربيعي . وكانت بغية علي بك سيف ان يزوج بنته لجميل لتتمتع معه بتلك الثروة الطائلة . وكان آل المهندي يحاولون قتل جميل او اغتياله لكي تؤول الثروة اليهم

في اليوم التالي قصد علي بك سيف الى المطعم لكي يلتقي بجم هناك فلم يأت جم فسأل عنه صاحب المطعم : فقال : انه لا يدري سبباً لغيابه اذ لم يرسل خبراً قط

في اليوم التالي سأل عنه أيضاً في المطعم فقال صاحب المطعم انه جاء أمس واعتذر لغيابه واستعفى من المجيء فيما بعد . فلن يأتي

الفصل الحادي عشر

مكيدة غامضة

في تلك الاثناء وردت الى جم الرسالتان التاليتان :

الاولى : « جامعة اكس ، مستر جايمس لام . أو جم لال

«أرجو منك أن تقابلني في الموعد الذي تعينه . لكي أكشف لك الاسرار الحقيقية وأؤيدها لك بالبراهين الدامغة . ولا تتأخر لانه قد يكون في التأخر ضرر لك . اكتب لي الى نزل « بريستون شارع فولر »

على سيف

ففهم جم ان هذه الرسالة من الرجل الذي تعرف به في المطعم وماشاه الى الحديقة وادعى أنه ابوه

والرسالة الثانية هي هذه :

« جامعة اكس

«حضرة المستر جايمس لام أو بالاحرى جم لال المحترم . بعد السلام نرجو منكم ان تشرفونا غداً الساعة العاشرة مساء الى منزلنا في حي الهنود في شارع غندى نمرة ٢٣ لان لايكم المرحوم شندي لال في ذمتنا

نحو ستة عشر جنيهاً نود أن ندفعها لكم ونبريء ذمتنا . ولكم علينا بيان سري يختص بأبويكم فنود أن نبسطه لكم

« المرجو ان تأتوا بهذه الرسالة معكم وبما عندكم من الاوراق الرسمية التي تثبت شخصيتكم. واقبلوا فائق الاحترام ـ سنغ فند»

فاستغرب جم هذا الخطاب ايضاً . وقال في نفسه : أن الاسرار المحيطة بعهد طفولتي تكاد تشغل لبي وقلبي معاً . لا ريب أن شندي لال لم يكن أبي فمن هو أبي . هل يمكن أن يكون هذا الرجل المصري الذي ادعى الابوة لي ابي حقيقية ؟ وهل يمكن أن تكون أمي قد ماتت حقيقية؟ وان لم تكن قد ماتت فمن هي ؟ ومن هم أهل أمي على كل حال ؟

أصبح جم شغوفاً بمعرفة أسرار مولده وقال : لا يهمني الستة عشر جنيهاً التي يذكرها « سنغ فند » وانما يهمني بيانه السري . فلا ذهب اليه أولاً . اذا لم أكن مخطئاً فسنغ فند هذا هو الذي كان شندي يشترك معه في حانة اللآلىء التي لم يطل عهدها حتى أفلست. فلعل سنغ بقي مديوناً لشندي بهذا المبلغ ولم يتيسر له دفعه حينئذ فرام أن يدفعه الان . ولعل شندي أطلع سنغ فند على أسرار طفولتي والان يروم أن يبسطها لي. فلا ذهب اذاً الى سنغ . أما ذاك المدعي الابوة لي فيلوح لي أنه أفاك

في الساعة المعينة كان جم في حي الهنود يبحث عن رقم ٢٣ في شارع غندي فوجد هناك منزلا قديماً تحته لوحة باسم سنغ فند. عطار . ـ دكان لبيع الافاويه ـ والباب الذي تحت اللوحة مقفل لانه ليل . ففهم ان سنغ صاحب هذه الدكان ، وانه تاجر الافاويه التي ترد من البلاد الحارة ، وان منزله فوق دكانه . ولكن أين الباب ؟

فجام حول الدكان فوجد مدخلا بين بنايتين وعلى المدخل نمرة ٢٣ ، وكان ذلك الشارع الصغير الضيق قليل الانوار ، ولا تزال زبالة النهار اكواماً فيه والرائحة الكريهة تنبعث منه . فقال في نفسه : لا ريب أن هؤلاء الهنود يعيشون عيشة الخنافس والا لما طاقوا السكنى بين هذه الاوساخ . وكان الشارع هادئاً لا نسمة حياة فيه كأنه حي الأموات اللهم الا حانة في آخر الشارع لا تزال مضاءة . ولما مر جم بها شم رائحة الافاويه ممزوجة بريح دخان كريه

فدخل جم في ذلك الممر . وما مشى خطوتين حتى وجد باباً . فنقر عليه . وفي دقيقة انفتح الباب لنفسه لان مصراعه مرتبط بحبل يمتد الى الطبقة الثانية . فيكفي شد الحبل حتى ينفتح الباب

ولاحظ جم أن الباب ثقيل كأنه محدد من قفاه . فقال في نفسه : « ما كأنه الا باب سجن »

ثم رأى نوراً لمع ، فابصر سلماً . وسمع صوتاً رناناً يقول : تفضل اصعد

فصعد حتى دخل الى ردهة منزل مفروش بالطنافس والسجاد واستقبله رجل لا شبهة في هنديته يتجاوز الخمسين عمراً وعلى عينيه نظارتان وقال: أظن جنابك.. نعم أنا — جم لال

— على الرحب والسعة . لطالما بحثت عنك فلم اهتد اليك الا اخيراً مصادفة . وسأروي لك حكاية ذلك . تفضل ادخل الى حجرتي الخاصة

ودخلا الى غرفة انيقة الرياش وجلسا وجم يجيل نظره في الغرفة ويستغرب ما فيها من ابهة ونفاسة وقال في نفسه : عجباً ، أمن هذا الدكان الحقير يجمع « سنغ فند » ثروة ويسكن بيتاً فاخراً كهذا ، ثم قال : ان بيتك يا سيدي « سنغ فند » لجميل وانيق . ولكن هذا الشارع لا يليق له . فلماذا لا تسكن في حي آخر ؟

فضحك سنغ وقال : ان هذا البيت ملكي وهو قرب دكاني ولا أود أن اسكن بيتاً بالأجرة

— ولكن الشارع وسخ يا سيدي سنغ فلماذا لا تطلبون من مصلحة الكنس ان تنظفه دائماً

فضحك سنغ وقال : المصلحة تفعل اكثر من الواجب عليها ولكن السكان لا يفعلون شيئاً من الواجب عليهم . فهي تنظف وهم يوسخون اكثر مما تنظف

— ولكن كيف يطيقون هذه الروائح الخبيثة .

فضحك سنغ وقال: لقد تعودوها حتى صاروا يشكون بوجودها اذا لم يشموها . ويخافون من اعتلال صحتهم اذا شموا غيرها

— أما أنا فلا أظن اني استطيع تعود هذه الروائح

— سأقدم لك نقيعاً بهارياً مغلياً زكي الرائحة شهي الطعم . فيزيل هذه الرائحة الكريهة من انفك

وصفق تصفيقاً خفيفاً . فدخل غلام هندي فقال له : هات النقيع حالا

وعاد الغلام وعاد سنغ يقول: لا يخفى عليك اني اتجر بجميع أصناف البهارات والافاويه كالقرفة وحب الهان وجوز الطيب وخشب الصندل وجميع أنواع البخور الخ مما يصدر من البلاد الحارة كجنوبي الهند وجزر مالقا وجاوه وسنجابور ومدغسقر الخ . وأصنع منها نقيعاً لا مثيل له في النكهة

والرائحة ، يقوي المعدة والقلب والعصب . وسترى تأثيره العظيم حالما تذوقه

وعند ذلك دخل الغلام بكأسين كبيرين من الشاي مملوءتين بمادة لزجة كالعصيدة والبخار يتصاعد منها ومعه رائحة عطرة شهية حقيقية أسالت لعاب جم . فتناول سنغ جم كأساً وأخذ لنفسه الاخرى ومع كل كأس ملعقة صغيرة من خشب الصندل وجعلا يلعقان . وقال سنغ : هل جئت جنابك بالرسالة التي أرسلتها لك ؟

نعم ها هي . وها بعض أوراقي المدرسية الرسمية

— عفواً ومعذرة يا عزيزي جم . لم أعرفك قبل الآن وانا ملزم أن اتحقق شخصية من اود أن ابريء له ذمتي

— معاذ الله أن الومك يا سيدي على ذلك . بل كنت الومك وأرتاب بصدقك لو لم تحتط هذه الاحتياطات

وتناول سنغ من جم الاوراق وفيها الرسالة وقلبها قليلا ثم ردها له وهو يقول: أرجو أن تمضي لي هذا الوصل اشعاراً باستلامك المبلغ . وها الستة عشر جنيهاً نقداً ورقياً

فقال : جم الحق أقول لك اني لم آت لاجل الستة عشر جنيهاً بل لاجل البيان السري الذي وعدتني به

— أما الستة عشر جنيها فلا بد لي أن أدفعها لاني أود ان أبريء ذمتي ولذلك أرجو منك أن تمضي لي وصلا بها . وأما البيان فلا أطلب وصلا به وسأشرع في أن ارويه بعد انتهائنا من النقيع

وقدم سنغ الوصل فامضاه جم ثم دفع سنغ الستة عشر جنيها فاودعها جم في جيبه وجعلا يلعقان النقيع اللذيذ وسنغ يشرح لجم بعض خواص البهارات التي في النقيع الى أن انتهى جم من كأسه فردها الى خوان صغير الى جنبه وهو يقول : الحق ان هذا النقيع لذيذ وشهي ومبهج في الوقت نفسه لاني شاعر بانتعاش

فقال سنغ : ان أبي عاش مئة وخمس سنين لانه كان يشرب هذا النقيع القوي مرتين في اليوم كل حياته . وعمي تجاوز المئة ولا يزال حياً

— فكم عمرك ياسيدي سنغ

— تجاوزت الثمانين يا بني

— يا لله . لا يصدق ذلك من رآك

— ان هذا النقيع يجعل الشباب اطول مراحل العمر كلها بل يجعل كل الحياة شباباً .

ـ اني شاعر بترنح في رأسي ولكن السرور مفعم فؤادي

ـ وستحلم الليلة احلاماً ذهبية

فجعل جم يضحك نحو دقيقة ثم انتهى ضحكه باستلقائه على المقعد وغاص في بحر من النوم وكان ذلك آخر عهده

فمد سنغ يده الى جيب جم وتناول أوراقه وأخذ الرسالة التي ارسلها اليه واحرقها بعود ثقاب حتى صارت رماداً وسحقها بين كفيه ثم خرج وغسل كفيه وعاد الى الحجرة ومعه شخصان يهامسانه قائلين . متى يصحو بعد الان ؟

ـ لا يصحو حتى مطلع الفجر

ـ هل أنت واثق أنه لا يصحو في الاوتوموبيل متى استنشق الهواء النقي

ـ بلا شك . حركاه وامتحنا ثقل نومه

فدنا احدهما وهز جم فاذا هو كالجثة التي لاحياة فيها لولا انه يتنفس تنفساً ضعيفاً . وهزه الاخر أيضاً قائلا : أخاف أن يصحو بعد ساعة أو اكثر قليلا ونحن نريد ان يبقى في سباته حتى الصباح فهل لك يا شيخ سنغ ان تحقنه حقنة أو ...

فاجفل سنغ وقال : لا لا . الشرط ان اسلمكما اياه جثة حية ولكنها لا تتحرك مهما كانت المحركات . وهاقد انفذت الشرط

ـ والاوتوموبيل ؟

ـ لقد عرفتكما بحوذي أمين يخدمكما بكل صدق وشرف اذا انجزتما وعدكما له

ـ ولكنه لم يأت حتى الان

ـ هذا شغلكما . أما اتفقتما معه على ميعاد ؟

ـ نعم . الساعة الحادية عشرة تماماً

ـ اذاً بعد خمس دقائق . . صه اني اسمع دوى الاوتوموبيل . فعجلا بدفع بقية الحساب . يبقى لي ثلاثون جنيهاً و١٦ دفعتها للغلام وهي لا تزال في جيبه فافحصا جيبه . ادفعا حالا ولا تجعلا الاوتوموبيل ينتظر اكثر من دقيقة تحت بيتي

فاسرع الرجلان ودفعا لسنغ ٤٦ جنيها واحتملا جثة الغلام جم وخرجا بها والقياها في الاتوموبيل وهما يقولان على مسمع الحوذي لكي يوهماه : ان فتانا هذا فاسد الاخلاق وكل يوم نبحث عنه وناخذه من حانة سكران لا يعي. يستعمل كل المكيفات كالحشيش والافيون والكوكايين الخ

ثم دخلا الى الاوتوموبيل والحوذي سامع لا يئبس ببنت شفة. ثم ساق الاتومبيل بمنتهى السرعة القانونية . وما ان انعطف في شارع آخر حتى بدا اوتوموبيل آخر وجرى وراءه على بعد مئة متر تقريباً

فأوجس الرجلان شراً وقالا للحوذي

هل أنت عالم الى أين تأخذنا !

فقال ـ طبعاً الى شارع البرت

ـ حسنا . وانما الان غير الطريق ...

وسار الحوذي على هواه وهما يظنان انه يضلل الاوتوموبيل الذى وراءهما ولكنهما ما لبثا ان شعرا انهما اصبحا بعيدين جداً عن الجهة التي يقصدانها . فقالا له : عجباً . لقد بعدت بنا كثيراً

ـ ذلك امركما

ـ ولكن الاوتوموبيل الذي يتعقبنا لا يزال يتعقبنا . فلماذا لا تسرع حتى تضلله .

ـ لم تقولا لي هذا

ـ اسرع فضلله

فاسرع حتى تجاوز سرعته القانونية وهو لا يزال يشرد عن الجهة التي يقصدانها وقد اصبح الاتومبيل الذى وراءه بعيداً جداً : فجعلا يوعزان اليه ان ينعطف من شارع آخر ويعود الى الحي الذي يقصدانه ولكنه لم يذعن لقولهما . فاوجسا شراً منه وخافا ان يكون ذا مكيدة لهما . فانتهراه ان يقف فما بالى . فشددا عليه النكير وهدداه من خلفه بمسدس

فتوقف حالا والتفت اليهما وفي يده مسدس (بلا صوت) فابصر احدهما وفي يده حقنة يريد ان يحقن بها الغلام فاطلق رصاصة على ذراعه فوقعت الحقنة من يده وسال الدم منها وفي الحال تهددهما قائلا : اذا اتيتما امراً إداً بالفتى سحقت رأسيكما .

وأصبح دوي الاوتومبيل الذي يتعقب اوتومبيلهما مسموعاً . فلم يجد الرجلان امامهما سبيلا للنجاة الا الفرار فوثبا من الاتوموبيل وغلغل كل منهما في ناحية . اما الحوذي فعاد واطلق لاوتوموبيله العنان بملء سرعته الى أن وقف لدي باب منزل فنزل وقرع الباب فخرج رجل فقال : له احمل هذا الفتى واصعد به الى فوق

فتقدم الرجل في الحال فرفع الحوذي الفتى الى ظهر الرجل وهذا صعد به وبقي الحوذي هنيهة . فاذا الحوذي الذي يتعقبه قد قارب اليه وصار يدرج على مهل كانه يراقب أو يتجسس . فلم يجد فيه سوى شخص واحد مخبيء وجهه حتى لا يرى تحت نور الشارع . ثم تجاوزه هذا الاوتوموبيل وسار بسرعة

عند ذلك نزل الرجل الذي صعد بالغلام . فقال له سائق السيارة خذ الاتومبيل الى اسطبله وعد الي عاجلا فقد أكون في حاجة اليك

فصدع الرجل بالامر وصعد السائق الى المنزل فوجد الفتى ملقى على مقعد وهو لا يزال في سبات وفحصه فاذا به لا يزال سليما . وانما كان تنفسه ضعيفاً

فحاول ان يوقظه فلم يستيقظ وانما ادرك من حالته انه في سبات غير خطير كانه سكران من احد المخدرات

وبعد دقائق عاد الرجل الذي اخذ الاوتوموبيل الى الاصطبل وفي يده حقنة ذات ابرة مكسورة . فقال ذاك نعم نعم نسيتها مع انها ذات اهمية عندي . ثم جعل يفحص الفتى ثانية وقال . نعم نعم هذه آثار الدم من تلك اليد التي كانت تمسك هذه الحقنة . اعدد لي يا جاك كاساً من الشاي أو كاسين . وسأحاول انعاش هذا الفتى

الفصل الثاني عشر

احلام في اليقظة

صحا جم لال اوجايمس لام من سباته أو من نومه كما كان يتوهم وهو يستغرب كيف انه كان نائماً لان آخر عهده بنفسه انه كان يلعق النقيع الهندي السخن البهاري الطيب عند سنغ فند . فكيف نام عنده . استغرب ذلك جداً وصار يفكر في سبب هذا النعاس الذي سطا عليه . وفتح عينيه فاذا به ملقى على سرير ناعم لم يشعر في حياته براحة الاضطجاع كما شعر براحته عليه وهو في غرفة فيها نور كهربائي ضعيف. وعهده أن حجرة سنغ فند ليس فيها نور كهربائي بل فيها مصباح هندي قائم على عمود مزخرف والمصباح في مثل فانوس مزخرف ايضاً . ترى هل نقله سنغ فند الى غرفة اخرى ؟ ثم اجال نظره في الغرفة فاذا هي على غاية من الاناقة والزخرف والجمال . لم ير في حياته مخدعاً للنوم مثل ذاك. ورأى رياشها فاخراً ثميناً . فتعجب كل العجب . لا يمكن أن يكون في منزل سنغ فند الحقير القديم في حي الهنود غرفة كهذه

اصغى فاذا المكان هادىء تام الهدوء . حاول أن ينادي فاحس أن صوته ضعيف كانه لا يستطيع أن ينادي أو يتكلم . ورام أن يجلس في السرير فشعر أن قواه منحلة. فازداد استغراباً . عجباً هل انتقل من عالم الارض الى عالم آخر . كاد عقله يوهمه انه مات في الارض وصعدت روحه الى السماء. ولكن لا . لا يزال في جسده وشعوره وافكاره

ثم شعر بونى كثير فاسترخت عضلاته

واستعاد جفناه النعاس فعاد الى سباته ثانية. ولكنه كان سباتاً خفيفاً فما لبث ان تنبه لمثل همس أو كلام حوله فاصغى فاذا به يسمع كلاماً حقيقياً . فانصت وسمع

— هل صحا ؟

— لا لم يزل في نومه . فقد فحصته منذ هنيهة فاذا هو لا يستيقظ . وانما حالته حسنة جداً . لا بد أن يصحو بعد بعض الساعة .

— لقد تأخرت كثيراً يا بافل

— لاني قصدت أن اكتشف مقر الشخصين اللذين كانا في الاوتوموبيل وهربا

— ولكن كيف اكتشفت مكيدتهما

— مصادفة. اشتبهت في انهما يترصدانه فراقبتهما جيداً ولاحظت انهما يهامسان احياناً سائق اوتوموبيل اعرف انه من ذوي الجرائم وانه يقصد الى حي الهنود . فلما تسنى لي أن اخلو به قلت له : انك مساوم على مكيدة لك منها أجر . فهل تريد أن تقبض الربح وتنجو من جريمة أو أن تقع في تهمة فظيعة وتخسر الاجر ؟ فقال : بل أفضل الأمر الأول اذا صح ما تقول ولكني لست مساوماً

فقلت : أنت حر أن تصدق أو تكذب كما انك حر أن تختار الوجه الرابح الامين

فتردد وقال : ولكن لا أعرف كيف أجاوبك ما لم اعلم من انت

فقلت: الأمر بسيط لا يهمك أن تعلم من انا فانت تطمع بأجر لعمل منكر اذا أمسكت به وقعت تحت طائلة العقاب . واذا شئت أن تبيعني مركزك فادفع لك المبلغ الذي تطمع فيه فاحل في مركزك وأتدارك الجريمة التي تخاطر بنفسك فيها. فما رأيك؟

فتردد متحيراً وقال : لا بأس. ما هو المركز الذي تريد أن تشتريه مني

فقلت أن تدعني أقوم مقامك في تلبية طلب الشخصين الغريبين اللذين كانا يهامسانك اليوم صباحاً

فقال : لا بأس

— قلت : اذاً على ماذا اتفقتما ؟

فقال : الاجرة اولا

فقلت : كم ؟

فقال : ١٥ جنيهاً

فقلت : هاكها . ولكن اذا كذبت عليّ قبضت على روحك ١٥ مرة

فقال : ولماذا اكذب : انت توفي بعهدي للشخصين وانا اقبض الأجرة

— اذاً ماذا طلبا منك ؟

— طلبا أن الاقيهما الساعة الحادية عشرة في شارع غندي في حي الهنود امام رقم ٢٣

قلت : حسناً وماذا طلبا أن تفعل لهما هناك ؟

قال: أن انتظرهما ريثما ينزلان بشخص سكران الى الاوتوموبيل وثم آتي بهم جميعاً الى شارع البرت . وبعد ذلك يأخذان الشخص من الاوتوموبيل

قلت : او ما خفت أن يكون الشخص قتيلا ويتركا جثته في اوتوموبيلك ؟

قال : كلا لاني تهددتهما اذا فعلا كذلك استصرخ البوليس الا اذا راما مني أن آخذ جثته الى اي مكان فاخذها في مقابل مئة جنيه . وماذا يهمني أن القي من اوتوموبيلي اي جثة وامضي ما دمت لست القاتل

فقلت وما هي علامة السر بينكم ؟

فقال : لفظة البرت

فقلت : هات معطفك وقبعتك ايضاً وغداً تجدني في هذا المكان فاردهما لك

(وهنا سمع جم تنهداً من أعماق صدر وصوتاً خافتاً يقول : ثم ماذا ؟ هل . .)

— نعم ركبت اوتوموبيلي في نفس هذا الميعاد ووفيت عهد ذلك الحوذي للرجلين ولم يعرفا أن حوذيهما تغير . وفي الميعاد نزلا من منزل ٢٣ بالغلام كأنه جثة بلا حراك ووضعاه في الاوتوموبيل وجلسا الى جنبه وسألني أحدهما : هل تعلم الى اين تذهب بنا ؟

فقلت : الى شارع البرت

ودرجت بهما وعيني عليهما مخافة أن يجترما أمراً غير منتظر أو أن يقتلا الغلام . ولكن ظهر لي أن هناك عيناً أخرى تحرس الغلام . فقد طارد اوتوموبيلي اوتوموبيل آخر لا علم لي بأمره . فكانت مطاردته تمنع الرجلين من اتيان شر بالفتى . أو أن الرجلين لم يجسرا أن يقتالا الفتى قبل أن يضمنا لنفسهما السلامة فلم تتح لهما الفرصة المناسبة لذلك . بل خافا عظيم الخوف اذ رأيا اوتوموبيلا من ورائهما يطاردناه واني أنا أسير بهم في شوارع لا يجسر أحد أن يرتكب فيها جناية . وأخيراً انتهراني لكي اقف . فوقفت وأدرت وجهي مهدداً لهما بمسدسي الصامت . فاذا أحدهما ينوي أن يخز الفتى بابرة حقنة ميتة طبعاً . فاطلقت مسدسي الذي لا صوت له ، فاصاب كفه . فسقطت الحقنة من يده . وكاد الاوتوموبيل الآخر يباغتهما . فقفزا من اوتوموبيلي وتغلغلا هنا وهناك . وثم استأنفت السير الى منزلي . وأما الاوتوموبيل الآخر المجهول أمره فبقي يتعقب اوتوموبيلي حتى ادركه واقفاً لدى منزلي وصار يسير الهوينا فتجاوزه ولم أعد ادري بأمره .

(انتهت حكاية بافل)

وكان جم يسمع هذه الحكاية بكل وضوح لان الحديث كان قرب سريره. وعند ذلك سمع التنهد ثانية وسمع الصوت الخافت يقول: شكراً جزيلا لك والف شكر يا مستر بافل. وهل استطعت أن تعلم مقر الشخصين!

— لما خرجت بالفتى من منزلي لكي آتي به الى هنا رأيت الرجلين واقفين عند زاوية، ورأيت أحدهما رابطاً كفه بمنديل، والظاهر أن رصاصتي الصغيرة اللطيفة اخترقت كفه. ولا أدري في أي نقطة اخترقتها، حتى بقي مجالداً وهو ورفيقه لا يزالان يترقبان. فقلت في نفسي لا بد أن يتتبعاني ليعلما أين أنا ماض بالفتى. ولهذا بعد أن جئت به الى هنا ورجعت حالا رأيتهما قد أتيا باوتوموبيل آخر الى هذا الشارع وتركاه وصارا يتمشيان حول الدار وكنت قد غيرت زيي في الحال، فما زلت اترصدهما حتى علمت انهما أويا الى منزل معين. فعدت من غير أن يشعرا اني اكتشفت محلهما

— برافو يا بافل! والشخص الآخر الذي كان في الاوتوموبيل يتعقب اوتوموبيلك؟

— رجحت انه شخص ثالث رأيته مرة واحدة فقط مع الفتى. ولا أدري ماذا كان قصده، وهل يعرف الرجلين اولا يعرفهما، وهل هو عدو أو صديق للفتى؟ سأعلم كل شيء

— اذاً تظن انهما كانا يريدان أن يغتالا الفتى؟

— كذا ظهر لي. ولا أدري السبب. والظاهر أنهما يمقتان حياة الفتى

— شكراً شكراً والف شكر يا سيدي. هلمّ نرتاح في البهو. لعلك تريد أن تنام قليلا

وعند ذلك تحرك جايمس في سريره قليلا فسمع وقع الأقدام الخفيفة والصوت الخافت يقول: اظنه قارب يصحو. الافضل أن نخلي الغرفة

واحس جم أن الغرفة خلت فعلا. وما بقي فيها الا همس أفكاره في لبه عن الحكاية التي سمعها وهو يغالط نفسه ويقول «لعلي كنت أحلم حلماً» فحاول النهوض ليتحقق ان كان يحلم أو انه صاح. فنهض وجلس في السرير حتى سمع حفيف الفراش تحته واللحاف من فوقه وتأكد انه صاح حقيقة لا يحلم. ولكنه ما لبث أن شعر بونى ووهن: فعاد واضطجع وارتاح لاغماض جفنيه. وعادت الهواجس تتحاور في ضميره وهو يقول لنفسه: يا لله. احقيقة اني كنت

تحت خطر الاغتيال ؟ ولماذا ؟ ماذا فعلت من السيئات للناس ؟ وأي انسان اذيت ؟ ولمن اذنبت ؟ وأي مطمع بي للطامعين والأشرار ؟ لا أظن أحداً في الدنيا افقر مني الا بالحب فانا اغنى الناس » وليس أحد مثلي عديم الاذى الا اذا كان حبي هذا اذى لاحد. فما فائدة الناس من موتي؟ وماذا تضر الناس حياتي ؟ رباه هل يمكن ان حب « جميلة » يعرضني للخطر ؟ ان كان أحد يحسبني منازعاً له في هواها فاجعل ارادتها حكماً بيننا وانا أرضى بحكمها حتى ولو كان النبذ لي . وان كان في وجودي ضرر لها فلينجح المغتالون

واستغرق جم في هذه التخيلات والتصورات حتى أصبح كالنائم الحالم . وما استيقظ الا محفلا فازعاً اذ أحس بكف على جبهته . فارتعش . فارتفعت الكف عن جبهته ورأى في الحال أمامه وجهاً باشاً وثغراً باسما وعينين زرقاوين كأنهما حجرا فيروز في بيضة صغيرة من عاج ، واكليلا من شعر ذهبي يحيق بذلك الوجه البدري. فاستغرب ثم سمع ذلك الفم العندمي يقول بهمس ناعم : كيف حالك الان . هل صحوت ؟

فلم يجب . فعاد الفم يقول : هل تشعر بالم أو بانزعاج ؟

فقال متكلفاً : اشعر بوني ووهي . أين أنا الان

فقامت تلك السيدة وضغطت على زر كهربائي فضاءت عدة مصابيح أخرى وشعشع النور في المكان وعادت اليه : فقال : أين أنا يا سيدة ؟

— في منزل موقوف على خدمتك

— هل نقلت حقيقة من منزل سنغ فند ؟

— اظنك لم تمكث هناك الا هنيهات

— كيف جيء بي الى هنا ؟ ومن جاء بي ولماذا ؟

— المقادير التي تتلاعب بك منذ الفطام

— عجباً . هل حقيقة أنا في يقظة : هل كنت عند سنغ فند ؟

— لا أدري تمام الحقيقة يا عزيزي

— اظنني لم أزل لابساً ثوبي . اني اشعر بثقله على صدري . اذكر اني أخذت من سنغ فند ١٦ جنيهاً فهل لم تزل معي ؟

ودس يده في جيبه واستخرج محفظة وفحصها فاذا الورق النقدي لا يزال فيها فقال : يا لله . هذه هي . اذاً كنت عند سنغ فند حقيقة فماذا جرى لي ؟

— لا تخف يا عزيزي . لقد كنت تحت خطر فسلمت منه والحمد لله

— عجباً . لماذا يريد بعض الناس ان يغتالوني ؟

— ستعلم كل ذلك فاطمئن يا حبيبي . الان انت في حاجة الى الراحة فهل تريد كأس لبن ينعشك ؟

— شكراً لك يا سيدتي . وانما قبل كل شيء أود أن أعلم أين أنا ؟

«وشد حيلة» ونهض وجلس في السرير وكانت السيدة قد وقفت ووقع نور الكهرباء على وجهها فحملق فيها جم ثم ادلهم وجهه وازمهرت عيناه وصاح : من أنت يا أمرأة

فاجفلت المرأة ولم تجب فقال : ويك . اليكونتس فيفر المتكبرة الثقيلة التي تحتقر الناس الذين ليس عندهم مال ؟ السليطة التي تحول دون القلوب المتحابة كما يحول ابليس بين الابرار . ويحك بل ويح من جاء بي الى منزلك

وهمّ جم ان ينزل من السرير ساخطاً : فتضرعت اليه قائلة : حلمك وعفوك ياعزيزي لا يثر غضبك لئلا ترهق قلبك . ستحاسب . واستغفر منك . ارتح الآن ريثما تستعيد عافيتك

— تباً لك ولقصرك وتباً لمن حملني اليك . لقد كنت سبب تعاستي . لقد سحقت قلبي . لقد قتلت حبي لقد سفكت دم سعادتي

— حلماً يا عزيزي ومغفرة وصفحاً . سأفسر لك كل شيء . والافضل ان تهدأ الآن وترتاح والا لأضررت بنفسك

ورام جم أن ينهض وينزل من السرير ولكنه لم يستطع لان المخدر الذي اخذه عند « سنغ فند » في النقيع هدم جانباً من عافيته وشل قوته . فجعلت مرغريت تتضرع اليه ان يضطجع في السرير . وعند ذلك اشغل بالها لغط وضوضاء في قصر الفيكونتس

فقالت : حلمك مهلاً . دعني ارى ماذا حدث في القصر

وخرجت الى ردهة القصر فاذا هناك شرطيان ورجل غريب وبافل البوليس السري يجيب على اسئلتهم . فقالت مرغريت موجهة السؤال الى احد الشرطيين . ما الخبر ؟

فقال : هذا الرجل (يشير الى الغريب) يدعي أن هذا الرجل (مشيراً الى بافل) جاء الى هنا بجثة فتى قد ارتكبت فيه جناية . وأن الفتى يخصه فنريد أن نتحقق جلية الامر . فاسمحي لنا يا سيدتي أن نقوم بالواجب

فهزت مرغريت رأسها مستشيطة (وهي تستشيط لاقل سبب) وقالت : لا أسمح

فقال الشرطي . ولكنك تعلمين ياسيدتي اننا موفدان من قبل دائرة البوليس ومعنا

أوامر علينا أن ننفذها . فهل جيء باحد اليك في غلس هذا الليل

فتناول بافل الحديث عنها : وقال حالماً يا سيدتي . اسمحي لي ان اواجه القضية بنفسي

والتفت الى الشرطيين والرجل المبلغ وقال : نعم انا جئت بفتى الى هنا . وانما اود أن اعلم ما شأن هذا الرجل ؟

فقال الرجل الغريب : اولاً اني مبلغ عن جناية حصلت وانا شاهد فيها . وثانياً لي صلة بالفتى نفسه

ـ ما هي صلتك بالفتى ؟

ـ لست مكلفاً أن أجيبك الآن

ـ حسناً . وما هي شهادتك

ـ اذا كنت الذي جاء بالفتى الى هنا حقيقة كما اعترفت ، افما انت الذي كان يسوق الاوتوموبيل الى حي المنود حتى شارع غندي وقد وقفت به امام منزل ٢٣ ثم عدت به تحمل رجلين بينهما جثة فتى ، وما زلت تراوغ في الطريق حتى وصلت الى شارع البرت فانزلت الجثة وادخلتها الى منزل ٣٣ . وبعد نحو ساعة جئت بها الى هنا؟

ـ برافو . كل شهادتك هذه صادقة ولكن كيف عرفت ذلك !

ـ كنت مراقباً للرجلين اللذين اشتبهت بهما . وقامت عندي ظنون بانهما ينويان اغتيال الفتى ، فصرت اراقبهما وهما يذهبان الى منزل هندي في شارع غندي . ثم رأيت الفتى دخل الى المنزل نفسه ولم يخرج منه الا محمولاً على ايدي ذينك الرجلين الى اوتوموبيلك

فقال بافل : حسناً جداً . لقد صدقت في كل ما قلته حتى الآن . ولكن لم تقل من هما هذان الرجلان اللذان اشتبهت بهما؟

فتردد الرجل في الجواب ثم قال : لا اعرفهما وانما رأيتهما يحومان حول الفتى فاشتبهت بهما

ـ من هو الفتى ؟

ـ هو تلميذ يدعى جايمس لام

ـ وما شأنك به ؟

ـ لي به شأن يخصني . هو قريب لي

عند ذلك برزجم من الداخل مستشيطاً وهو يقول : خسئت . لست قريبي ولا اعرفك ولا أريد أن تتداخل بشؤوني ، لانه منذ جعلت تتداخل بدأت المصائب تتوالى . فلا اسمح لك ان تنوه باسمي . انك لافاك إنك لمكار انك لمحتال . ماذا تريد مني ايها العلج ؟

فاكفهرّ الرجل وقال : حلمك يا بني . احمد الله على سلامتك . كنت اخشى ان

يغتالك اعداء ، ولهذا كنت اسهر على سلامتك سهري على الابن العزيز الحبيب

— تباً لك . ما انا ابنك ولا أريد أن انتمي اليك . من انت حتى تدعى الابوة لي؟ وانت لا تدري اي المصائب جلبت علي وأي حمأة افضى تداخلك الى طرحي فيها. انصرف يا وجه الشؤم

فاستغرب الجميع سخط جم . وقال أحد الشرطيين للرجل الغريب . هل هـذا هو الفتى الذي ظننته . . . ؟

— نعم . نعم . انه لسليم . والحمد لله .

— وهذا الرجل الذي تتهمه بالاشتراك بالجريمة هو البوليس السري الكبتن بافل الذي لا يساء الظن به. فنحن وانت لم يبق لنا شغل هنا . فلنعد ، وكفانا ان نسمع سخطاً ونرى نزقاً

فقال الرجل الغريب : أجل لقد انقلب الخير شراً . يالضيعة الامل بهذا الفتى . ما كنت اظن اني اضع عواطفي في غير محلها . لا ريب اني قد اخطأت نية . هلما يا سيدي

وخرج الشرطيان يتبعهما الرجل الغريب وقد فهم القارىء انه هو علي بك سيف

وعند ذلك امسكت مرغريت بيد جم باسمة وجذبته تريد أن تدخله الى حجرتها فنزق قائلا : دعني يا امرأة

— تعال يا حبيبي لنسمع تفصيل الحكاية من الكبتن بافل

وأشارت الى بافل وهو متنكر بلحيته المعهودة. فنظر اليه جم نظرة غضب وعيناه تقدحان شرراً وقال : ويحك يالحية النحس حتى متى انت أمامي : يا واقفاً في سبيل مستقبل سعادتي ، يا مقاطع فلك كوكب حظي ، يا معكر صفائي : ماذا تريد مني ؟

فابتسم بافل وقال : اني العناية التي ترقب حياتك وترد الكيد عنك ولسوف..

فقاطعه جم متغيظاً وقال: خسئت يا نذل الانذال لقد قتلت جنين سعدي في رحمه . واهلكت جرثومة سروري . انك لثقيل فضولي طفيلي . كفى كفى

وهمّ جم أن يخرج فامسكت مرغريت به وقالت: بربك يا هذا مهلا . دعنا نتفاهم

فسخط بها جم وقال : علي يا كبرياء! قصياً يا خيلاء ! بعيداً يأتيه ، ويا عظمة ، ويا جبروت . تباً لك من مغرورة . لقد سلبت روح هنائي وفوّرت دم غضبي . دعيني . ما الذي جعلك تقفين في سبيل غبطتي يا مغرورة

— ويحك! الا تسمع حتى نفسر لك؟

فازداد غضب جم وقال. ماذا اسمع ؟ اسمع ماذا ؟ اسمع انغام كبريائك ؟ اسمع مواعظ انانيتك ؟ اسمع اخبار تدخلك

يشؤون غيرك! ماذا تريدين أن تخبريني! اتريدين ان تموّهي عليّ انك لم تتفقي مع ذي لحية النحس هـذا على مؤامرة ضد سعادتي. لقد هصرت غصن سروري. لقد قصفت شبابي. كفى كفى ايها الاشرار

واندفع جم كالاسد الضاري المفزع وانطلق من باب الردهة الى السلم فوثب فيه وثبات الظبي النافر حتى وصل الى اسفل الدار وخرج لا يدري الى اين

وكانت مرغريت مبهوتة من كلامه. وكان باڤل منصتاً يسمع ويستوعب ويفسر. فلما خفت دوي وثباته في السلم نظرت مرغريت الى باڤل متجهمة وقالت: ماهذا الجنون ما هذا الهيجان؟ ما سمعت ولا لا رأيت ولا خطر لي

فقال باڤل: اظن هذا فعل المخدر الذي جرعه اياه «سنغ فند» الشرير

— ولكن اما فهمت ماذا يعني وماذا في قلبه من الحقد

— فهمت فهمت جيداً. ولكنه في غير ظرف التنبه من المخدر لا يثور هذه الثورة

— يظهر ان مسألة الفتاة المصرية أثرت في نفسه كثيراً

— اجل ظهر انه يحبها حباً فوق العبادة سنرى كيف ترقع المسألة يافيكونتس

— يلوح لي انه يعتقد اننا نراقبه ونتجسس عليه لكي نحول بينه وبين الفتاة. والارجح انه يظن ان لنا غرضاً في الحيلولة بينه وبينها. أو اننا نريد ان نفرق بينهما الى الابد بأية الوسائل. ولهذا هو غاضب شديد الغضب يجب ان نتفاهم معه ونغير ظنه هذا. بربك اجتهد ان تقابله ثانية وتقنعه بحسن قصدي

***

ولعل القاري يستغرب كيف اهتدى البوليس السري باڤل اليه واكتشف المكيدة ضده. عرف باڤل شخصه من لقائه المتواتر بالفتاة التي دلته عليها الفيكونتس.

ومن ثمة جعل يراقبه لكي يعلم مقره واحواله ويدبر وسيلة للاتصال به واستدراجه لمقابلة الكونتس. ولكنه ما كاد يتحقق بعض اموره حتى اكتشف تلك المكيدة المدبره ضده. فبذل جهده لانقاذه منها كما علم القاري.

بقي ان القاري يودان يعلم كيف اهتدى اليه المهنديان اللذان ينويان اغتياله لكي لا يبقى حائلا دون استيلائهما على ثروة نسيبهما الباشا الربيبي

فلا يخفى على القاري انهما كانا دائماً يراقبان حركات علي بك سيف ويوجسان منها ويعتقدان انه يعلم مقر الغلام غريمهما. ولكنه يتريث في اظهاره الى ان يبلغ رشده ويستطيع المطالبة بميراث ابيه الحقيقي علي باشا الربيبي. فلما علما ان علي بك سيف صار يسافر الى لندن قام في ذهنهما انه مودع الفتى في لندن ولعله

لاح في ظنهما انه اودعه في احدى المدارس لكي يتعلم . ولذلك قصدا الى لندن خفية حيث كانا يراقبان حركات علي بك ليستدلا منها عن مقر الفتى الى ان شاهداه مع جم لام حين كان يحادثه ويتعرف عليه ويعرفه بحقيقة امره كما علم القاريء . فثبت لهما انه هو الغلام ضالتهما المنشودة. فعقدا النية على اغتياله ودبرا المكيدة التي مر شرحها . ومن ثم جعل علي بك يراقب حركاتهما أيضاً ليقي الفتى من مكيدتهما

الفصل الثالث عشر

ففراق يكون فيه دواء أو فراق يكون فيه الداء

وعاد جايمس في ذلك الفجر الى غرفته وهو كمن لا يزال تحت فعل السكر . واضطجع في سريره وجعل يفكر فيما حدث له من غرائب اعمال البشر الشريرة . هل كان هؤلاء الناس يمثلون دور مزاح حتى ينتهي الدور بتمنين الكونتس مرغريت لهانها انقذت حياته لكي يحق لها ان تهيمن عليه ؟ ولماذا ؟

هذا ما خطر على باله . ولكن ماذا كان غرض الكونتس من ذلك ؟ هل تعشقه حتى تقول له ياحبيبي و ياعزيزي فعلت كيت وكيت لاجلك . الم تجد في الناس شاباً اجمل واكثر « قيافة » واناقة منه ؟ وهل لاجل هذا الغرض جعلت تحول دونه وجميلة حتى تفسد الحب بينهما ؟

احتار جم كيف يعلل هذه الالاعيب ولم يجد وجهاً معقولا لتعليلها غير هذا التعليل فاعتقد ان الرجل الغريب المدعي الابوة مأجور يمثل دوراً « وسنغ فند » يمثل أيضاً مأجوراً ، والرجلين اللذين قيل على مسمعه انهما قد أخذاه من عند « سنغ فند » ان كانا قد وجدا حقيقة ، يمثلان دوراً باجرة ايضاً ، والمسمى باقل يمثل أيضاً . هل هؤلاء يمثلون ويقبضون اجرتهم من الفيكونتس فيفر لاجل الحيلولة بينه وبين جميلة المصرية ؟ هذا ما تجسم في ذهن جم اذ لا يعرف سبباً لكل ذلك غير هذا السبب

وخطرت له حيلة سنغ فند ونقيمه الذي دس له المخدر فيه . ثم خطرت له الستة عشر جنيها . فنهض حالا من سريره وكتب لسنغ :

« يا سنغ الساحر : لقد ظننت انك قدتني اليك بستة عشر جنيهاً لكي تسلمني كما سلم يهوذا المسيح . ولكن

لقد سئت ظناً . ما قادني اليك الا حسن ظني بكل الناس . ولذلك أرد اليك الثمن الذي ظننت انك اشتريت به ارادتي مني . ففي هذا الخطاب تجد الستة عشر جنيها التي اخذتها منك . لاني اجل نفسي عن الشهوة للمال »

(الامضاء) جم لال

وبالطبع ارسل الخطاب حالما خرج من منزله . ومما عظم الامر عنده جداً انه لم يجد رداً لتلك الرسالة التي اودعها في الوكر الصغير في جدار زاوية المنزل الذي تقطن فيه جميلة ، وقد نبهها اليها لكي تأخذها . فحص الوكر فوجده خالياً من الرسالة . وفحصه بعد ذلك مراراً فوجده خالياً من رد . ففهم ان جميلة جافته . ولم تحدث هذه الجافاة الا بعد اجتماعها بالفيكونتس . فلا بد ان تكون الفيكونتس قد اوغرت صدرها عليه . او انها توعدتها لكي تكف عن مقابلته . والا فلماذا جفته بعد ان كانت عطوفه انيسة ودلائل الحب ظاهرة في ملامحها ؟

لذلك عظم الخطب عنده جداً وحار في ماذا يفعل حتى يجتمع بجميلة ويتفاهم معها

حاول بعد ذلك أن يراها في طريقها الى المنزل فلم تبدو بتاتاً . مدة الدراسة في المدرسة انقضت وحلت العطلة المدرسية . ولم تعد جميلة تخرج وتعود في اوقات منظمة . فانتحل سببا للسؤال عنها عند مسز برون . فعلم ان أباها جاء من لندن واخذها . فكاد يجن من مقاومة المقادير

حاول ان يعرف شيئاً من دورا ابنة الدكتور جيروم . فجر أنفسه على الحديث معها عنها . فعلم منها انها وأباها زارا بيت الدكتور منذ يومين . فتغيظ جداً لانه تخلف عن المجيء الى بيت الدكتور كل ذلك الاسبوع . سأل دورا عن الفندق الذي ينزلان فيه فلم تتذكره . فكاد يجن من هذه الخيبة

وجلس الى المكتب الذي يقضي عليه اشغال الدكتور ، فوجد خطاباً معنوناً باسمه بالآلة الكاتبة وليس عليه طابع البريد ففضه فاذا فيه ورقة عليها هذه الكتابة

«الشخص الذي اشغلت قلبه وخلبت لبه ثم جافيته وتركته معلقاً بخيط من الأمل أوهى من خيط العنكبوت سيقاضيك يوم الدينونة . ولكنه سيرق لك ويشفع بك غافراً جفاءك . وداعاً الى يوم الدين »

وكانت الكتابة بلا تاريخ ولا امضاء ولا عنوان غير عنوان الظرف . فاستغرب

هذه الرسالة كل الاستغراب . ومن كتبها ومن اودعها على المكتب . رام ان يسأل الدكتور فخاف ألاّ يكون له علم بها . لم يستطع ان يعزو هذه الرسالة الى كاتب غير جميلة . ولا سيما لانها كانت في منزل الدكتور جيروم امس . نوى أن يسأل دورا فخاف أن ينبه غافلة تكون جاهلة امر الرسالة فتعلم امرها وتشتبه بامور اخرى وتظن ظنوناً مختلفة

عاد يقرأ الرسالة وهو يرى من خلال سطورها يد جميلة المبدعة الحياة الغرامية في قلبه . فكاد يجن بل كاد ينشق غيظاً من عتابها القاسي . كيف جفاها وهو لم يعد يجد سروراً بغير التفكير فيها

فهام في ذلك اليوم كالمجنون لا يدري ماذا يفعل حتى انهكه التعب . فأوى الى غرفته واهي القوى

وبعد بضعة ايام ورد اليه خطاب في البريد ففضه فاذا فيه ورقتان صغيرتان ورسالة . فقرأ الرسالة اولا كأنه يظنها من جميلة وهذا نصها ..

« جم لال .

« سلاماً . ان عفريتك الذي تداخل في شؤونك الغرامية وافسد خططك يكفر عن ذنبه بان يرسل اليك هاتين الورقتين : الاولى رد على رسالة منك والأخرى بلاغ لك . وكلاهما ارسلا اليك في نفس البريد الذي ارسلت فيه رسالتك الاولى . وانما انت قليل الحرص لا تسعى الى رسائلك . وربما نسيت نص رسالتك الاولى فاكتبه لك هنا وهو :

« ياعلة حياتي . لم اعد احتمل ان اكتم حبي بل عبادتي لك . فان كنت راضية فضعي رداً لهذه الرسالة كلمة مختصرة واخبريني اين يمكن أن نلتقي لحظة واحدة ولو مرة لكي نتفاهم . وبعد ذلك نعتصم بحبل الآمال الذهبي الى ان يتيح لنا الحظ باللقاء الدائم السعيد الشريف »

وفي الحال قرأ الورقة الاولى هكذا :

« يمكن ان نلتقي حيثما التقينا اول مرة لاجل كتاب الاشعاع »

فما أتى « جم » على آخر الجملة حتى لطم خديه وصاح : ياويلي . لقد زارت جميلة دورا خصيصاً لكي تراني . فما اسوأ حظي ؟ يالمقادير المعاكسة . رباه ماذا اذنبت اليك حتى استحق هذا العقاب الاليم فتشغلني بشيء غير شاغل فؤادي ؟

اظن كان ذلك يوم اجتمعت بذلك المصري الافاك الذي لفق تلك الحكاية الخداعة لي لعنة الله عليه . ولكن كيف عرف ان ان في صدري هذا الوشم المجهول الرمز . ليس على الابالسة ببعيد ان تكشف المستتر وتستظهر المضمر

ثم قرأ الورقة الثانية هكذا .

« لقد قطعت حبل الامل . يوم السبت يوم وداع محطة لندن الى سويسرا . الف سلام »

فما شعر « جم » الا وقلبه يثب بين جنبيه وهو يثب في غرفته كالمجنون : ويلي . لقد مات فؤادي وهلكت حياة سعادتي. تباً للمقادير. تباً للبشر ما اشرهم . لقد نغصوا عيشي من غير ان أضر احداً . الى المحطة غداً. وبعد المحطة الى سويسرا الى مصر . ولكن من اين النفقات ؟

في الحال خطرت له الستة عشر جنيها التي اخذها من سنغ فند ثم ردها له . وكاد يندم على ردها . ولكنه ما لبث ان قال في نفسه : لا . لا . اني اجل نفسي عن الشهوة للمال: ولكن يلوح لي ان الانسان بلا مال حيوان بلا قوة . هل يكون اله المال اقوى من اله الحب فيذل هذا له ؟ كلا كلا وحاشا ، بل الناس يتفانون في تنازع المال لاجل الحب . لا لا . معاذ الله ان يقبل الحب تأليه المال لاجله . ان الحب وحده الاله المشتق من الالوهية العليا التي تجعل عبادة المال اثماً .

الحب وحده قوة. فان كنت احب جميلة حقيقة فاطير اليها الا على اجنحة المال بل على اجنحة الحب. فالى الغد والغد يهتم بما لنفسه

ثم عاد جم يفكر في من ارسل اليه هذه الرسالة وضمنها الورقتان . وكيف اطلع على رسالته وكيف حصل على رسالتيها دونه مع انه كان كل يوم يزور ذلك الوكر في الجدار . هذا سر آخر من الاسرار التي تحف به. فكاد عقله يختبل من توالي هذه الاسرار الغريبة

وفهم جم ان جميلة لما زارت بيت الدكتور جيروم كانت تحسب حساب ألا ترى « جم » هناك فاستعدت للرسالة التي اودعتها له في المكتب مكتوبة بالالة الكاتبه من قبيل الاحتياط . ولما صح حسابها كتبت آخر رسالة له واودعتها في الوكر . ولكن هناك يداً تمتد الى الوكر قبل يده فيد من هي ؟

في صباح السبت كان جم في المحطة التي يودع منها الراحلون من لندن الى اوروبا . وهو يرقب القطرات التي ترحل واحداً بعد الآخر ونظره شائح هنا وهناك بين الناس مخافة ان تفلت جميلة من قيد بصره

كان يطوف من هنا الى هناك حتى كاد عمال المحطة والشرطة يشتبهون به. واخيراً صح يقينه ولمح جميلة ويدها في يد رجل

الى جنبها فاسرع وواجهها من بعيد. وما كان اعظم جزعه اذ رأى ان الرجل الذي يمسك بيدها هو نفس الرجل المصري الغريب الذي رآه في المطعم ثم حاول ان يقنعه انه ابوه ، وكان آخر عهده به ان رآه لدى قصر الفيكونتس فيفرو قد اوسعه هو شتما وسباً واهانة . فارتد جازعاً وذاب فؤاده في صدره فرقاً . وقال في نفسه : ويلاه ! الى هنا بلغت مشاكسات المقادير ان تجعلني عدواً لدوداً لأبيها . لقد اصبحت لي امنع من عقاب الجو . ويلي كيف ذلك . ان كان هذا الرجل أبي حقيقة فهي اختي . ويلاه ان هذا التصور لهائل مخيف . رباه . انر بصيرتي . اكشف الحقائق لي . لقد ضل قلبي وتضعضع عقلي وتزلزل ضميري

اني أحب هـذه المعبودة حب البدر للشمس لاحبه الأرض التي هو شقيقها . فهل أنا آثم . ولكن لا . . ليس في رسالة الرجل التي لم أجاوبه عليها ما يشتم منـه رائحة الأبوة لي . لا ينبض قلبي لهذا الرجل نبض قلب الابن للاب. فعسى أن يصدق حدسي .

وكان وهو يفكر هكذا قد رجع حتى توارى . ثم هاجت بلابله وقال : ويحي تكاد تركب القطار . بعد دقائق يرحل القطار . فكيف نفترق من غير أن نتفاهم ولو بالنظرات

وعاد يحوم حولها من بعيد حتى وقع نظره على نظرها وأبوها لا يلاحظ لانه منهمك بالسفر . فوضع جم يده على ايسر صدره وهو يقول : لا ريب انها تفهم

واما هي فما وقع نظرها عليه حتى تراءت له وجنتاها كانها جمرتان . واطرقت كانها لا تستطيع أن تحتمل النظر اليه . وهو يكاد يختطف قلبها او كانها خافت ان يفضحها الوجوف واصطكاك القدمين. وحار جم ماذا يفعل حتى يبلغ اليها وأى كلمة يستطيع أن يبلغها .

ولكن الحب يفتق الحيلة . فاسرع في الحال الى كتبي المحطة واشترى كتابا ـ أي كتاب ـ وكتب عليه «هدية من دورا جيروم الى صديقتها جميلة المصرية» . ثم كتب تحت الكلام: «الجامعة ج . ل . » ثم استدعى أحد عمال المحطة وقال له : خذ هذا شلناً . وقدم هذا الكتاب الى تلك الفتاة التي تتمشى الى جنب ذاك الرجل وقل : هذا الكتاب من الآنسة دورا بنت الدكتور جيروم. اسرع قبل أن يدخلا الى القطار

وبقي جم ينتظر مراقباً من بعيد حتى رأى الرجل بلغ اليها وقدم الكتاب . وانما راعه ان أبا جميلة تناول الكتاب أولا وجعل يقلبه ثم ظهر أنه يقرأ. فهل كان يفحص ما كتبه جم ؟

ثم صعدا الى القطار وتواريا فيه وجم

منبلع الفؤاد متخوف من الرجل يلوح امام القطار لينال آخر نظرة منها. ولكنه شدد قلبه ومشى لدى القطار وهو لا يلتفت مخافة أن يراه أبوها فيشتبه به. وربما كان اشتباهه مصيبة عليها فرذها باباً واياباً وهو لا يلتفت، وانما خيل اليه أن جميلة واقفة في الشباك تنظر اليه. ولما تحرك القطار التفت فاذا جميلة في الشباك شائحة النظر

هل حدث التفاهم فى النظر أو في الروح؟ الله أعلم

وعاد جم كاسف البال مسحوق الفؤاد معلق الآمال في حبال الهواء

وعقد النية على اتقان اللغة العربية في جامعته ونفسه تسبح في اوقيانوس الآمال

الفصل الرابع عشر

تمرد من جهة وانقاض من جهة

نعود الآن بالقاريء الى مصر حيث الالف والياء من تاريخ هذا الحادث الذي تلاعبت فيه المقادير

كان المستر دانلوب مدير المعارف لعهد اللورد كرومر مطلق التصرف يفعل ما يشاء بلا حساب. كان نموذج الاستبداد وكانت « المعارف » فى يده آلة ميكانيكية يديرها كما يدير الطفل الالعوبة. وليس لادارة المعارف غرض تعليم او تثقيف بل كان غرضها وضع حدّ له حتى لا تتجاوزه الناشئة وهو اعداد موظفين صغار للحكومة

فى أوائل الصيف والمدارس على اهبة الارفضاض كان المستر دانلوب آتياً الى احدى المدارس العليا فى القاهرة للتحقيق في قضية تمرد بين الطلبة بلغته بالامس. فلما ترجل من مركبته أمام باب المدرسة حدث دوي هائل كأنه دوي مدفع من مدافع الميدان. فاجفل المستر دانلوب وانهلع فؤاده وارتد الى المركبة كأنه يريد أن يحتمي بها ولكن جوادي المركبة كانا يثبان من شدة روعهما والسائق يبذل جهده في كبح جماحهما وهو لا يدري الى أين يتجه بهما تحامياً للخطر. ورأى دانلوب بعض الغلمان والسابلة يتراكضون من هنا وهناك كالاغنام التي باغتتها الذئاب حتى فرغ الشارع ولم يبق الا هو والحوذي وهذا يكبح جماح الجوادين مخافة جموحهما وانفلات قيادهما من يده. ورأى دانلوب الدم يسيل قليلا من جبين الحوذي فجعل يفحص نفسه ليعلم هل هو سليم. فاذا به سليم والحمد لله. واما الحوذي فلم يشعر بعد أنه أصيب بشظية صغيره في جبينه

في نصف دقيقة كان الشارع أمام المدرسة خالياً من الناس وفي نصف دقيقة أخرى كثر فيه الناس وتراكض طلبة المدرسة ليروا ما الخبر

أما دانلوب فلما علم انه سليم وان الحادث انقضى على سلامة أسرع ودخل الى المدرسة وأشار الى الطلبة ان يرتدوا . فارتدوا لان اسم دانلوب وحده كان مدفعاً يدوخ كل مدارس القطر

واستقبله ناظر المدرسة وبعض أساتذتها وسألوه : ما الخبر؟ وماذا حدث ؟ ما هذا الصوت ؟

وكان جبينه مقطبا وقد أشتد تجهمه فلم يجب على اسئلتهم ! بل سألهم : هل جاء الدكتور لام ؟

فاجابه الناظر ؟ كلا ياسيدي . لم يأت بعد . ينتظر ان يأتي بعد هنيهة

— يجب أن يقف الاساتذة وضابط المدرسة أمام الباب ويمنعوا مرور أحد . نفذ أمري حالا

وأسرع دانلوب الى غرفة الناظر كما أسرع هـذا لتنفيذ امر دانلوب . ثم أقفل دانلوب الباب وتقدم تواً الى التلفون وطلب مخاطبة الوكالة البريطانية وجرى على سلك التلفون الحديث التالي :

— نخامة اللورد كرومر . أنا دانلوب

— ماذا رأيت في المدرسة !

— مكيدة هائلة

— ماذا ؟

— قنبلة انفجرت أمام باب المدرسة حال وصولي ونزولي من المركبة . والظاهر أنها انفجرت في الجهة التي لم أترجل اليها من المركبة فسلمت ؟ وأصيب الحوذي بجرح خفيف في جبهته

— فداك الحوذي . غريب ما تقول . هل قبض على الجاني

— لم يعرف الجاني أذ لا بد أن يكون قد فر مع الناس الذين هرعوا عن مكان الحادثة . فقد أفلت

— وماذا فعلت ؟

— امرت بحراسة المكان ومنع السابلة من المرور أمام المدرسة ريثما يأتي المحققون للتحقيق

— لا . لا . اذا كان الجاني قد فر — ولا ريب أنه فر ولا أمل بالقبض عليه — فالغ أوامرك هذه حالا بعد أن تجمع شظايا القنبلة وتعاين جيداً كيفية انفجارها ومكانه .. واطلق السبيل للسابلة ولا تدع أحداً يفهم انك تعلق أهمية على هذا الامر . ولا تبلغ النيابة . ثم اقض المهمة التي ذهبت لاجلها

— الدكتور لام المفتش لم يأت الى المدرسة بعد مع اني خاطبته تلفونياً اني ذاهب اليها واوعزت اليه أن يلاقيني فيها قبل هذا الميعاد

— ماذا تعني ؟

— اعني أن الدكتور لام يقع تحت الشبهة

— هذه منوط بنتيجة التحقيق الخاص

— اذاً . ماذا تأمر ان أفعل ؟

— اقض شغلك في المدرسة وتحقق ما أمكنك سبب التمرد وتوعد الطلبة بشدة والق شيئاً من المسؤولية على الاساتذة ثم تعال الى هنا

— سمعاً

— مهلا .

— نعم سيدي

— متى جاء المفتش لام دعه يكلمني تلفونياً

وخرج المستر دانلوب من غرفة الناظر وأسرع حالا الى أمام باب المدرسة فرأى ضابط المدرسة وأساتذتها والحوذي يبعدون الناس المتجمعين وقد انضم اليهم بعض الشرطة . وتقدم الى حيث ارشده الحوذي الى مكان انفجار القنبلة ، فرأى آثار اصطدامها و بعض شظاياها فلم يفهم اتجاه نزولها . وجمع ما تيسر من شظاياها وأوعز لحوذيه أن ينتظر أمام باب المدرسة والى الاساتذة ان يعودوا، والى الشرطيين اللذين كانا هناك ان يمنعا تجمهر السابلة ويؤذنا بمرور الناس .

ثم امر باجتماع الطلبة في رحبة المدرسة الكبرى واجتمع الناظر والاساتذة من حوله . وقال : لا تنتظروا أن تسمعوا مني أكثر من بضع كلمات : من لا يدخل الى قاعة الامتحان الشفهي الآن يكون مطروداً من جميع مدارس الحكومة ويخضع لقانون التحقيق و يكون عرضة للعقاب اذا ثبتت عليه تهمة التحريض على التمرد أو الاشتراك به

ثم ادار ظهره واتجه الى غرفة الناظر فسمع صوتاً يقول عريضتنا . عريضتنا

فالتفت وقال : لا أقبل عرائض ولا ارد على عرائض . اني أعرف الناس بصلاحية النظامات المفروضة ولا أقبل مناقشة باوامري

ودخل الى غرفة الناظر وتبعه هذا . فقال دانلوب : ابحث عن الطالب الذي تكلم الآن وذكر العريضة . وقدم لي تقريراً عن تفاصيل سلوكه. وجاوبني بعد ربع ساعة ماذا كانت نتيجة انذاري

بعد عشر دقائق عاد الناظر وابلغ المستر دانلوب ان جميع الطلبة دخلوا الى بهو الامتحان صاغرين ولم يتخلف احد منهم وانه عرف الطالب الذي تكلم وسيقدم تقريراً عنه

— اذاً بعد ربع ساعة تعود الي وتخبرني ماذا كان من سلوك الطلبة . كن شديداً عنيفاً . لا تتساهل البتة بشيء . شدد النكير على الاساتذة

بعد ربع ساعة عاد الناظر وابلغ دانلوب ان كل شيء جار في مجراه الطبيعي . لقد قمع التمرد

وعند ذلك اوصى دانلوب ناظر المدرسة ان يقول للمفتش الدكتور لام

متى جاء ان يلتفن لسعادة اللورد كرومر .
ثم خرج وركب مركبته واسرع الى قصر الدوبارة ودخل توا الى مكتب اللورد كرومر فاستقبله هـذا باسما وقال : صار المصريون يحسنون تقديم الهدايا يا دانلوب فان خدمة بضعة عشر عاماً في المعارف تستحق قنبلة. فهل ترفض هدية كهذه
— لا اهاب يا جناب اللورد القنابل حتى القتالة ...
— اذاً ابق مديراً للمعارف الى ان تحصل على وسام القنبلة الثانية . يزاد معاشك عشرين جنيها في الشهر فضلا عن زيادة العلاوات ايضاً . فهل تلعن القنابل
فضحك دانلوب — (وما رأى احد دانلوب يضحك غير اللورد كرومر) : بل اباركها . ان قنابل المصريين ذهب مصفى
— اخبرني الآن ماذا حدث في المدرسة منذ وصلت اليها الى ان اتيت منها
— قبل كل شيء أقول لم يصل الدكتور لام الى المدرسة حتى الآن
— لا بد ان يصل الآن او قارب ان يصل
— يلوح لي ان عند سعادتك علماً عنه
— نعم منذ عشر دقائق تلفن لي ناظر المدرسة ان سيدة ، لا يدري ان كانت انكليزية او غير انكليزية ، تلفنت له ان الدكتور لام تأخر قليلا ولكنه سيصل قريباً . وحاول الناظر ان يستفهم منها شيئاً فلم ينجح . هاك التليفون يرن
وضع كرومر سماعة التليفون على اذنه وتكلم : من ؟ الدكتور لام ؟ ...
اني انتظرك هنا . تعال بلا ابطاء
ورد كرومر السماعة الى مكانها وقال لدانلوب: ارو الحديث من اوله الى آخره
وجعل دانلوب يروى حكايته وكرومر يسمعها الى ان انتهت . فوصلها دانلوب بالتفسير قائلا : عندي ظن تسعين في المئة ان الدكتور لام شريك الجاني او الجناة بالجناية، لان تأخره عن الميعاد اكثر من ثلثي الساعة بل نحو الساعة تقريباً يدل على انه عالم بالاستعداد لحدوث الجريمة
فابتسم كرومر وقال : ذلك ممكن عشرة بالمئة فقط . فهل عندك ادلة اخرى؟
— لم يبق شك ولا ريب في ان الدكتور لام يحض الطلبة على التمرد
— ليس اكثر من عشرين او ثلاثين بالمئة من صحة هذه الادلة على هذا القول
— بل مئة في المئة لان ثلاثة من الطلبة الذين نثق بهم لحسن سلوكهم اتفقت اقوالهم على ان الدكتور لام كان يقول للمتذمرين : « امامكم باب الاحتجاج فاحتجوا وابدوا احتجاجكم باتحادكم »
فتبسم كرومر وقال : ان هؤلاء الثلاثة الذين تستشهد بهم اكذب الطلبة
— عجباً ياجناب اللورد

— لا تعجب . قد يكون هؤلاء الوشاة في مقدمة المحرضين

— غريب ظنك ياسيدي

— بل غريب ان لا تفهم الى الآن اخلاق الشعب المصري. فانه اكظم الناس للالم . واكثرهم صبراً واحتمالا . فاذا آلمته وسألته هل انت متألم ؟ ابتسم وقال : لا . . ان ظهور الرضى ممن يحفون حولنا من المصريين يخدعنا . نحن لا نرى الا الرضى. ولكن السخط ومرارة النفس لا نراهما ، لان هذا الشعب كثير الاحتمال قليل التذمر فهؤلاء الذين تثق بهم وبشهاداتهم يضللونك. اذا شئت ان تعرف الحقيقة فاسمعها من فم ذلك الجريء الذي قال « عريضتنا . عريضتنا ». لست اعبأ بوشايات الواشين وسعاياتهم لانها مضللة وانما احسب حسابا لصراحة الجريئين

— اذا يجب ان نكم افواه هؤلاء الجريئين ونضرب على رؤوسهم

— بالعكس يجب ان تعلم الحقائق من من هؤلاء . ان نفسية الشعب المصري الآن تبرز في سلوك هؤلاء الذين تقول انهم وقحون

— ان هؤلاء نادرون جداً يا سيدى اللورد فاذا ضربنا على رؤوسهم تلافينا فتنتهم

فضحك كرومر وقال : لا لا . لا تظنهم قلالا . ان مصطفى كامل (باشا) « يكرس » كل يوم الف وطني ويزود الف وطني بالجرأة والحماسة

فدهش دانلوب لحديث كرومر هذا وقال : يالله اهذه عقيدتك بمصطفى كامل

— نعم. وهي عقيدتي بالشعب المصرى. تباً لمصطفى من محرض على الفتنة . من اين نبت هذا الثقيل ؟

— نحن انبتناه وانت اول من سقى غرسه

— كيف ؟

— شدة ضغطنا فجرت عواطفه وعواطف امثاله . فتكوّن الحزب الوطني في معملنا السياسي

— عجباً اذاً لقد اخطأنا في سياستنا الماضية

— . كلا . لم يكن في الامكان ابدع مما كان

— ان كلامك ياجناب اللورد متناقض يحتاج الى تفسير . ماذا كان يجب ان نفعل في الماضي وما علينا ان نفعل الان ؟

— لم يكن في وسعنا ان نفعل غير ما فعلنا وليس علينا ان نفعل غير ما نحن فاعلون

— اننا نضغط ونشدد النكير . وتقول جنابك ان الضغط يفجر العواطف . فهل نتراخي

— كلا بل نستمر في خطتنا . فما نحن الا كسد اصوان، نصد السيول العرمة من عواطف الشعب المصري ما استطعنا ان نصدها، حتى متى امتلأ الخزان تدفقت

تلك السيول ولا حيلة لنا . فوظيفتنا الآن ان نرفع هذا السد ثم ان نفتح من بواباته ما لا يضرنا فيضان المجرى بعده. والغرض ان نؤجل ما استطعنا فيضان المجرى. واعني مجرى العواطف . ولكن لا بد ان يأتي يوم لا نعود فيه نستطيع ان نصد السيول ولا بد ان تتدفق من فوق سدنا ويفيض المجرى ويجرف كل ما في سبيله. فوظيفتنا اصبحت تأجيل ذلك اليوم ما امكننا تأجيله

ففكر دانلوب هنية ثم قال : اذاً رأيك ان نتساهل قليلا لكي نخفف ضغط سيل العواطف على سدنا

— كلا كلا البتة. لا نتساهل بل بالعكس يجب ان نستعمل الشدة كلما رأينا تمرداً كما اننا نبني الثلمة في السد بناء متيناً كلما ثلم فيه الضغط ثلمة . وانما نفتح البوابة لتخفف الضغط . الا ترى الفرق بين ان ندع الماء يتدفق من الثلمة التي ثلمها وبين ان ندعه يتدفق من البوابة التي فتحناها نحن باختيارنا ؟

— ما الفرق

— الفرق ان الماء الذي يتدفق من الثلمة يزيدها اتساعاً ولكن الماء المتدفق من البوابة لا يوسعها

— اذا رأيك . . . .

— رأيي مثلا ان نشدد النكير على الطلبة حتى يرضخوا لاوامرنا . وانما لا نبالي في حادثة القنبلة

— عجباً

— ليس من عجب. لو قبضنا على الجاني لشنقناه في الحال عبرة لغيره. وانما اذا كنا نحقق ونبحث عنه ونملأ الدنيا طنطنة واخيراً لا نجده فنكون قد انكسرنا امام الحادث . كذلك اذا امسكنا شخصاً أو اشخاصاً يخلون بالنظام فعلاً عاقبناهم وجعلناهم عبرة . ولكن الحزب الوطني يصيح ويصخب فندعه غير مكترثين به ولا معترفين بوجوده . هل رأيت في تقرير السنوي ذكراً للحزب الوطني ؟

— لا

— ولكن لو ذكرت الحزب الوطني مرة واحدة اشعر الشعب المصري باهمية وجوده . فاتجاهله حتى أوهمه انه عديم الاهمية والتأثير

— ولكني أرى ان الحزب الوطني بقيادة مصطفى باشا كامل يكاد يصبح قوة يا سعادة اللورد . واخاف ان نندم اخيراً على سكوتنا عنه

— ماذا ترى ان تفعل به

— نأمر بحله واذا بقي مصطفى كامل بحض امته للانضمام تحت لوائه نفيه

فضحك اللورد كرومر وقال : لو فعلنا كما تقول لكان الذين لا يزالون الى الآن يحسبون الحزب الوطني كلاماً فارغا يهزون من رقادهم ويقولون في انفسهم: «اي والله لو لم يكن الحزب الوطني شيئاً مذكوراً

وقوة لا يستهان بها لما كان الانكليز يحلونه وينفون زعيمه. اذاً فلنتحد بالحزب الوطني» وفي الاسبوع الذى يبرح فيه مصطفى باشا كامل منفياً من مصر يتضخم الحزب الوطني ويكبر ويعظم عشرين ضعفاً فيما لو تركناه ينمو بنفسه. ان اضطهادنا للحزب الوطني كالحامض الذي تعصره في الحليب فيخثر الحليب به في لحظة. فدع الحليب يخثر بالخمير على مهله. ان وظيفتنا اتخاذ كل الوسائل لتكوين الحزب الوطني بكل ما يمكن من الابطاء، لان هذا الحزب متكون على كل حال لا محالة، وليس من قوة تستطيع قتله وكل مقاومة له بالقوة تعجل تكوينه

فذهل دانلوب لحديث اللورد كرومر هذا وامتقع لونه كانه انذار بمصيبة وقال: اذاً نحن مقبلون على ...

—... على صدام مع المصريين؟.. نعم نعم وبراعتنا تكون في تأجيل هذا الصدام ما أمكن. كذا يجب أن تكون قاعدة سياستنا. الشدة حيث لا بد منها والتجاهل والتغاضي حيث لا ضرر منهما

— ولكن الا ترى ان حرية الجرائد..

فرفع كرومر يده وقال: لا. لا تجيء الى جهة الجرائد. هي اللسان الوحيد الذي يفصح لنا عن مبلغ استعداد الامة الوطني والكاشف الذي يكشف لنا مبلغ قوتها. فدع الجرائد تتكلم ماتشاء. ودعنا نوهمها ان كلامها كالريح على الصخر. ولكن متى جعلنا نكم افواهها اخذ المصريون يستضعفوننا ويفهمون اننا نحسب لصخبهم حساباً فيزيدون الصخب والصراخ والضجيج في كل مكان

فتنهد دانلوب وقال عجيبة هي أفكارك ياجناب اللورد

— ليست عجيبة يامستر دانلوب. الاحتمال والصبر والجلد ادخار للقوة أي هي عدم اسراف في القوة. فالامة الصبور خزان للقوة فاذا أحرجتها أصدرت قوة عظيمة طويلة المدد. وكل امة فيها حياة وقوة. فاذا جعلت تنازعها حياتها استخدمت قوتها للحرص على بقائها. ولذلك أحسب حساباً لقوة الامة المصرية أكثر مما أحسب لقوة اى أمة اوربية لان الامم الاوربية كثيرة الاسراف بقوتها. وهذه كثيرة الاحتفاظ بها

عند ذلك أقبل الخادم يقول: قدم الدكتور لام

فقال اللورد كرومر: دعني الان اقابل هذا الشاب الاهوج لعلي أصلح من أمره وأما انت فاستمر في سياستك مشدداً من جهة ومتساهلا من جهة

وخرج دانلوب. ثم دخل لام

الفصل الثامن عشر

الكتاب القديم صار جديداً

وجلس الدكتور لام مفتش المعارف لدى اللورد كرومر وهو يتفرس في وجهه كانه يستجلي بواطنه . ولكن رجلا مثل كرومر لا يستطيع لام ولا ميم ولا كل حروف الهجاء ان تستجلي شيئاً من بواطنه

ثم نظر فيه كرومر نظرة ساذجة وهي نظرة الدهاء عند الساسة وسأله : لقد تأخرت عن الميعاد الذي ضربته المستر دانلوب للقاء في المدرسة

— اضطررت لذلك اضطراراً

— لعل السيدة التي اعتذرت عن تأخرك آخر دقيقة كانت سببه ؟

فاختلج الدكتور لام وقال : لم اجتمع بسيدة اليوم قط

— عجباً ! اذاً كيف تعلم احدى السيدات انك تأخرت عن موعدك وتخبر ناظر المدرسة تلفونياً معتذرة عنك وتقول انك قادم . وبعد عشر دقائق تدخل المدرسة

فانـدهش الدكتور لام وما خفيت دهشته على اللورد كرومر النقاد وقال : لو كان احد غير جناب اللورد يقول هذا القول لكنت احسبه مختلقاً

— لقد ابلغني اياه ناظر المدرسة فلعله اختلقه

— لا اعتقد ان الناظر يجسر ان يبلغ جناب اللورد حكاية هو اختلقها . فالحكاية في ظني صحيحة . ولكني لا اعرف سيدة تجسر ان تتكلم بلساني أو تنوب عني

— لا ادري . هذا ما حدث . وانت تستطيع ان تتحق حقيقة الحادثة . وما قولك بحادثة القنبلة ؟

فازداد الدكتور استغراباً وقال : ماهي حادثة القنبلة ؟

— اما دخلت الى المدرسة ؟

— أنا آت من هناك الآن

— اما ابلغك احد حكاية القنبلة ؟

— لا . دخلت فقابلني الناظر وقال لي ان جناب اللورد يريدان تكلمه بالتليفون فتكلمت في الحال ثم اتيت تواً

وروى له اللورد حكاية القنبلة كما سمعها من لسان المستر دانلوب والدكتور لام يستغرب ويدهش ويقول : لم أعلم بها ولا كانت لي فرصة حتى اسمعها من أحد في المدرسة

— ما رأيك في سببها ؟ وهل تتهم أحداً ؟ .

ففكر الدكتور لام برهة ثم قال : لا أقدر ان اتهم أحداً يا جناب اللورد . ولكن هل تعتقد جنابك ان المقصود منها اغتيال جناب المستر دانلوب

— كذا تدل الظواهر . وكذا نظن الى ان تبدو دلائل أخرى تغير هذا الظن ؟ هل تعرف أحداً من الطلبة يمكن أن يكون شريكا بهذه الجناية أوصاحبها

— لا أعرف كل الطلبة ياجناب اللورد والذين أعرفهم لا أقدر أن أتهم أحداً منهم

— ألا تظن أن سبب هذه الجناية متصل بسبب تمرد الطلبة

— ربما كان الامر كذلك . لا اجزم

— الا تظن ان الطلبة تمردوا لانك سوغت لهم تمردهم

فاجفل الدكتور لام وقال: انا ؟ كيف ذلك يا سيدي

— أما قلت لهم . اذ كنتم تستصعبون الامتحان فاحتجوا

— قلت لهم ذلك وزدت عليه : ويجب ان تتحدوا في الاحتجاج

— حسناً أني شاكر صراحتك . الا تعلم أن هذا القول يفضي الى التمرد

— لا لم يتمردوا لهذا القول ياجناب اللورد بل تمردوا لانهم قدموا عريضة يتظلمون فيها . فبدلا من أن تقبل عريضتهم ويجاوبوا عليها وردت الاوامر بارغامهم على الرضوخ الامتحان مهما كان صعباً

— ولو لم تحضهم على تقديم عريضة الاحتجاج ما افضي الامر الى تمردهم فانت مسؤول عنه . هل من وظيفتك أن تقول لهم ما قلت ؟

— كذا رأيت لانهم تذمروا من عقم اسئلة الامتحان لي وتشكوا منها فسمعت شكواهم ووجدتها حقاً . فعرضت الامر على المستر دانلوب بيني وبينه فلم يشأ أن يسمع . ولما عادوا يشكون لي قلت لهم قدموا عريضة احتجاج

— لا أرى سبباً يسوغ لك هذا القول ولا أجد لك فيه عذراً

— عجباً ياجناب اللورد . لقد فحصت اسئلة الامتحان جيداً . فاذا هي معجزات كانه يراد بها اسقاط الطلبة في الامتحان حتماً . انها اسئلة ما انزل الله بها من سلطان . لو سئلتها وأنا دكتور في الفلسفة واعرف كل العلوم التي تدرس في مدارس الحكومة عشرة اضعاف المعرفة المطلوبة من طلبة المدارس واعرف العربية الآن كاساتذها

— لو سألتني تلك الاسئلة المختلفة من علمية ولغوية لاستحال علي ان أجاوب عليها ما لم تضعني في مكتبة مستوفية وتسمح لي أن أراجع الى كل كتاب اريده — فلما اطلع الطلبة على أول قسم منها تذمروا وشكوا . وضميري لم يسمح ان أرد

شكاويهم لان الامتحان على هذا النحو لا يمكن أن يبرهن على استحقاق المستحق منهم بتاتاً فما هو الا تعجيز لهم

فتجهم اللورد كرومر وقال : ولكن ضميرك ليس مسأولا عن صواب اسئلة الامتحان وعدمه . ولا عن الغرض المقصود من الامتحان

— ولكن وظيفتي التفتيش في مدارس الحكومة ومن حقي ان انظر في كيفية التدريس والامتحان للتوصل الى النتيجة المقصودة من التعليم في القطر المصري

— لا . لا لست مسئولا عن نتيجة التعليم في القطر المصري بل عن تنفيذ قوانين التعليم الموضوعة له

— ولكن هذه القوانين عسوفة

— ليس هذا شأنك

— تعني ياجناب اللورد انك عالم ان اسلوب التعليم في مصر عقيم جداً

— ليس شأنك ماذا اعلم

— فتجهم الدكتور لام وقال : بلى هو شأني . لاني لا أريد ان اكون آلة لتنفيذ قوانين جائرة . انتم تريدون أن تحاربوا التعليم فى مصر فلاأريد ان اكون الجندي القاتل الذي تدفعونه لساحة القتال

فنظر فيه اللورد كرومر نظرة غيظ وقال: ويلك ما أحد قبلك جسر أن يقول مثل هذا الكلام أمامي . جميع الموظفين البريطانيين هنا يتولون وظائفهم حسب تعليماتي من غير اعتراض

— لانهم يستسهلون ان يكونوا آلات فى معمل السياسة البريطانية المصرية . أما أنا فلا ولا سيما اذا كانت هذه السياسة غير حق . انى اسمع تذمراً كثيراً فى مصالح الحكومة . فلا بد ان كلها تكون جارية على نفس الخطة الاستبدادية التي أراها فى مصلحة المعارف العمومية . ان هذه الخطة ياجناب اللورد تخالف روح العدل البريطانية وهي استبداد بامة لها جميع حقوق البشر الطبيعية

فازداد اللورد تجهماً وقال : انك لاتجهل كثيراً من أن تستطيع تفسير العدل البريطاني . فخير لك ان تقصر عن هذا الحديث بتاتاً . ولو لم اكن موصّى بك من قبل مقام عال لكنت الآن آمرك ان تركب أول باخرة عائدة الى انكلترا . فاحتراماً للمقام السامي الذى اوصاني بك انصح لك ان تستمر فى عملك بلا اعتراض وان تقلع عن هذه الاقوال المهيجة الضارة لانك لا تفهم شيئاً من عقلية الشعب الذي تقيم بينه وتشتغل معه . فاذا كنت تحترم المقام الموصي بك فاسمع نصحي وارضخ لامري

فاستغرب الدكتور لام هذا الكلام وقال : اني احترم كل مقام سام ولكني لا اعرف مقاماً سامياً اوصى بي ولا انا في حاجة الى توصية أحد لان معارفي ومبادئي القويمة كفيلة بكفاءتي لوظيفتي .

فلا أستطيع أن أحترم مقاماً سامياً واحتقر ضميري .

فاستغرب اللورد كرومر أيضاً كلامه وسأله : أما انت الدكتور ... جايمس لام ؟

— بلى أنا هو واستاذي الدكتور جيروم و . . .

— اذاً أما سعيت لدى سمو الدوق ...

— كلا لم أسع لدى أحد . واني استغرب أن تقول لي أنك عينتني في وظيفتي بناء على توصية من مقام عال

فازداد اللورد استغراباً ثم قال : لعلي أنا مخطيء سأراجع أوراقاً . . . ومهما يكن الامر فاني أنصح لك أن تصمت صمتاً تاماً عن كل ماتظنه مخالفاً لرأيك لأن الادارة البريطانية هنا ليست متوقفة على أفكار موظفين مثلك

— وأنا أقول لك بكل صراحة ياجناب اللورد اني لا أستطيع الصمت حيث يحرجني ضميري للكلام

— اذا كنت لا تعدل رأيك هذا ولا تعدل عن عنادك في برهة أسبوع فاستعد للرحيل من مصر

فتغيظ الدكتور لام وقال : تستطيع أن تعزلني من وظيفتي ولكن بأي سلطان تكلمني هكذا وبأي قانون تلزمني أن أرحل من مصر ؟

— بسلطاني وقانوني

— ليس في انجلترا سلطة لفرد ولا قانون يصدر من فرد

— اعلم انك لست في انكلترا

— أعلم اني في مصر وأنت فيها أيضاً ولكنك تستمد سلطتك من انكلترا أيضاً

فوقف كرومر متغيظاً شديد التغيظ وقال : الزم بيتك الآن وانتظر أوامري

وخرج كرومر لكي يختصر هذا الجدال الذي حسبه افتئاتاً على سلطته . وأما الدكتور لام فخرج متهيجاً شديد التهيج الى حيث لا يدري .

* * *

بالطبع فهم القاريء ان الدكتور (في الفلسفة) لام هو جايمس لام أو جميل الذي قذفته المقادير الى انكلترا ثم ردته من انكلترا الى مصر بعد أن درس العربية جيداً . وطلب وظيفة في مصر فتعين في بدء الامر ناظراً لمدرسة فيها . ثم مالبث أن ترقى الى وظيفة مفتش . بقي للقاريء أن يعرف ما حدث له قبل مناقشة اللورد كرومر

وفي ذلك النهار جرى حديث تلفوني بينه وبين المستر دانلوب مدير المعارف وسيدها وأميرها بل حاكمها المطلق بشأن تمرد الطلبة الذي تقدم ذكره واتفقا على أن يلتقيا في المدرسة الساعة التاسعة صباحاً

للنظر في الامر والتعاون على قمع التمرد . والحقيقة ان دالروب علم أن سلوك الدكتور لام مع الطلبة خطر يفضي الى التمرد فرام أن يؤنبه وان يضع حداً لهذا التصرف

وخرج الدكتور لام من منزله قبل الساعة التاسعة فاستقبله فتى وطنياً يلبس قفطاناً وطربوشاً وقدم له كتاباً وقال : هل تعرف جنابك هذا الكتاب ؟

فتناول الدكتور لام الكتاب وفتحه وقلب صفحاته مستغرباً وهو يقول : ماذا تعني ياهذا ؟ ما هذا الكتاب ؟

فقال الفتى : أما رأيت هذا الكتاب من قبل ؟

فازداد الدكتور لام استغرابا وهو يقلب الكتاب الى أن وقعت عينه على كتابة في أوله . فانتفض اذ تذكر أنه كتب تلك الكلمات بخط يده يوم كان يودع جميلة المصرية في المحطة من بعيد . وقال باهتة : نعم أعرف هذا الكتاب . فماذا تريد أن تقول ؟

— ان صاحب هذا الكتاب يوافيك الآن الى الجزيرة فتجده في مركبة في القسم الشرقي الجنوبي منها

— حاضر

ومضى الفتى كأنّ مهمته انقضت . وأما الدكتور لام فتيقظت شجونه النائمة وصحت عواطفه السكرانة . هذا الكتاب آت من قبل جميلة بلا ريب ، ويمكن أن يكون من قبل أبيها لان أباها استلمه حينئذ . فهل لم يصدق أبوها أنه من دورا بنت الدكتور جيروم هدية لبنته جميلة حتى رام أن يرده لي اليوم . ولماذا المقابلة ؟

هذا ما جال في ضمير جايمس لام حينئذ . وسواء كانت هي أو كان أبوها موافياً له الى الجزيرة فلا بد من الذهاب لمقابلة مرسل الكتاب أيّاً كان ومهما كان غرضه

* * *

ومنذ برحت جميلة لندن عقد جايمس النية على أن يدرس العربية جيداً ويطلب وظيفة في مصر بغية أن يمهد السبيل للاتصال بها . وقد بذل جهده قبل مجيئه أن يعلم عنوان أبيها أو اسمه كاملا فلم يستطع . فدورا لم تعرف جميلة بلقب أو كنية غير «المصرية» ومسز برون التي كانت جميلة مقيمة عندها أخذت منزلها ولم يعد يعرف عنوانها لكي يسألها عن عنوان جميلة . والخطاب الذي أرسله له علي سيف ابو جميله وفيه أمضاؤه فقد منه منذ زار سنغ فند . فلعل سنغ أو غير سنغ أخذه منه والله أعلم . وهكذا جاء مصر متكلا على المقادير أن تجمعه بجميلة . ولكن كيف يتسنى له ذلك والسيدات هنا محصنات وهو لا يعرف مقرها ولا مصيرها حتى ولا اسمها كاملا . فلذلك قضى نحو عامين أو ثلاثة وهو يسأل ولكن بغير الحاح دفعاً

للشبهة فلم يستفد شيئاً . فكاد يمل ويسلوها لو لم يوافيه هذا الكتاب التذكاري الذي جدد غرامه

ولكن من ارسل اليه الكتاب . لم يترك له الرسول متسعاً من الوقت للسؤال لأن وصول هذا الكتاب اليه فجاءة شغل باله عن السؤال

هل يمكن أن جميلة أرسلت الكتاب ؟ يمكن أن يكون ابوها مرسله . ويمكن أن يكون غيره ايضاً .

مهما يكن الامر تجب عليه موافاة مرسل الكتاب لكي يعلم من هو وما غرضه . فركب المركبة وأمر الحوذي ان يتجه الى الجزيرة . وجعل فؤاده يرقص بين ضلوعه لأنه كان يتوقع ان يرى جميلة هناك . ليس غير جميله تطلب مقابلته بهذا الاسلوب وترسل الكتاب علامة أو دليلا

وكان دبيب الجوادين يتفق مع دبيب الهواجس في لبه وتدفق الدم في قلبه وشرايينه . وفي بضع دقائق دخلت المركبة الى الجزيرة فأوعز للحوذي ان يطوف في القسم الجنوبي الشرقي منها . فطاف ولكن الدكتور لام لم ير احد يشتبه به . بالطبع اذا كانت جميله توافيه فلا بد ان تكون في مركبة . فلم يلاق مركبة فيها حريم

فأمر الحوذي ان يرتد عاكساً اتجاهه وان يطوف حول الحديقة الجنوبية مرة اخرى ، ففعل الحوذي . ولكن الدكتور لام لم ير احداً . فضاق ذرعه وقال في نفسه لعل مرسل الكتاب مداعب

ولكن لا . تظل نفس العاشق آملة طامعة . فامر الحوذي ان ينطلق في الشارع المؤدي الى قصر الجزيرة . فما تمادى فيه حتى قال في نفسه . « الطريق طويل ومضيع للوقت . فالافضل ان اعود الى المكان المعين » فأمر الحوذي ان يعود ، فعاد فصادف مركبة آتية من جهة كبري قصر النيل ومنطلقة في الشارع القاطع لشارعه . فأوعز للحوذي ان يعجل ويتجه الى ذلك الشارع

وكان الدكتور لام لا يزال الكتاب في يده فامسكه باسلوب يظهر به جيداً لمن يكون في المركبة كدليل عليه

وما كان اشد فشله حين رأى في المركبة رجلا لا يمكن ان يكون ابا جميله لانه اصغر منه سناً . فتركه وطاف حول الحديقة الشرقية مرة اخرى ولكن بلا جدوى فما شاهد مركبة حريم ولا سيدة وطنية في مركبة . فعاد خائباً وقال في نفسه : لعل مرسل الكتاب مداعب

وامر الحوذي ان يعود من حيث أتى ولكنه ما أقبل على مدخل الكبرى (الجسر) حتى رأى مركبة مقفلة كمركبات الحريم

داخلة الى الكبري فأوعز للحوذي أن يعجل في لحاقها . ففعل الحوذي وما استطاع ادراكها الا بعد أن تجاوز الكبري وأصبح في الساحة أمام قصر النيل وما استطاع أن يشاهد فيها سوى خيال سيدتين مقنعتين وهو يتلاعب بالكتاب بين يديه

فهل كانت جميلة في المركبة ؟ الله أعلم : ثم التفت فاذا المركبة قد اتجهت الى طريق آخر فأوعز الى الحوذي أن يسير في ذلك الطريق . ثم عطفت المركبة في طريق آخر فخجل جايمس لام الدكتور في الفلسفة والمفتش في المعارف أن يظل متعقباً مركبة الحريم . ولذلك استمر في طريقه الى المدرسة ونظر الى ساعته فاذا نحو ٤٥ دقيقة مضت على الميعاد . فراحت السكرة وجاءت الفكرة . بماذا يعتذر للمستر دانلوب ؟

مادخل الى المدرسة حتى استقبله الناظر وقال له . ان اللورد كرومر ينتظره الان في دار الوكالة

— هل جاء المستر دانلوب ؟

— نعم جاء وراح : والتلامذة رضخوا

فاسرع الى قصر الدوبارة حيث توجد دار الوكالة البريطانية وقابل اللورد كرومر وتناقشا كما علم القاريء

* * *

أول خاطر خطر للدكتور لام بعد خروجه من عند كرومر السيدة التي كلمت ناظر المدرسة تلفونيا واعتذرت عن تأخر الدكتور لام المفتش عن الحضور وقالت انه سيحضر بعد بقليل . وهو لم ير سيدة قط . لاريب ان الخاطر الذي يرجح عنده هو ان جميلة هي التي تلفتت للناظر وهي التي ارسلت الكتاب . ولكن لماذا لم توافه في الميعاد الذي عينته للقاء ؟ لعل الظروف قاومتها

المستقبل كشاف الاسرار . ولكن جايمس لا يستطيع انتظار المستقبل بعد . وقد ازدحم ماضيه بالاسرار وكل يوم يضاف الى طامور اسراره سر جديد .

اللورد كرومر اخبره أن مقاماً عالياً في انكلترا أوصى به . وهو لم يطلب توصية من أي مقام لا عال ولا واطيء . فمن هو ذو المقام العالي الذى أوصى به ؟ ولماذا لم يسأل اللورد كرومر عن هذا المقام العالي ؟ لانه كان متهيجاً حينئذ وخاف ان سؤاله يمضي بلا جواب

وهكذا كان جايمس في الساعة الحادية عشر من ذلك النهار مركزا لثلاثة اسرار جديدة دخلت في تاريخ حياته : (١) مرسل الكتاب (٢) السيدة التي خاطبت الناظر بالتليفون (٣) ذو المقام العالي الموصي به

الفصل السادس عشر

العدل الانكليزي

في اليوم التالي ذهب الدكتور لام الى مكتبه كالعادة فوجد خطاباً له هناك ففضه فاذا هو مذكرة صغيرة من المستر دانلوب يطلب اليه فيها ان يخاطبه بالتليفون

فتناول بوق التلفون وخاطب دانلوب فقال هذا له : انك ممنوع عن الاستمرار في عملك منذ الآن . واذا شئت تفسيراً فخاطب جناب اللورد فهو ينتظر ان تخاطبه

فخاطب الوكالة البريطانية فجاوبه اللورد كرومر وسأله : هل أنت الدكتور جايمس لام الذي ...

— نعم . لا ريب في شخصيتي

وهل تعرف الدكتور جيروم والدكتور رولنصون و ...

— ... وكثيرين غيرهما . وعندي شهادات منهما ومن كثيرين

— وعشت لطيما لا أب ولا أم

— نعم انا هو بعينه ابن المقادير والمربي نفسه

وسمع جايمس تنهد اللورد وهو يقول: كانه يكلم نفسه : عجباً . يظهر أن تربية المدارس والجامعات لا تغني عن تربية الابوين . اني يابني اعاملك بكل حلم : أولا رأفة بك ، وثانياً احتراماً للمقام العالي الموصي بك . فاذا كنت قد ندمت على ما فرط منك امس ...

فقاطعه قائلا : —

— ماذا فعلت أمس ؟

— لا أقبل مناقشة لقد فهمت معنى مخالفتك لرغائبي . فاذا كنت قد ندمت وعدلت عن سلوكك .....

— حلماً يا جناب اللورد . أود ان تعلم خلقاً من اخلاقي لم تعرفه بعد ، وهو اني قليل الندم وقليل العدول عن مناهجي . لست ممن يميلون لاقل نسمة

— كفى . كفى . لا تطل فانا ممن يفهمون من النسيم . فقد فهمت كل اخلاقك وبكل أسف أقول لك انك لا تجد جو الحالية البريطانية في هذا القطر صالحاً لهذه الاخلاق . فالافضل أن تبتعد عن هذا الجو لئلا تختنق اخلاقك فيه . متى تستطيع أن تسافر من القطر المصري؟

— لا استطيع أن اسافر بتاتاً

— . عجباً لقد امهلتك امس اسبوعاً فلا اغير ميعادي . في مثل هذا اليوم من الاسبوع القادم تبرح هذا القطر الى حيث تشاء

واقفل اللورد كرومر الحديث باعادة سماعة التلفون الى مكانها . وخرج جايمس من مكتبه شديد التغيظ والتمرمر من هذا التصرف الذي لاقاه

* * *

ان حادثة تمرد الطلبة بناء على كلمات قالها المفتش جايمس لام جعلت هذا الاسم مشهوراً لان الصحف تداولته والطلبة لغطوا به . وبالرغم من اختلاق اسباب كاذبة لحادثة القنبلة حتى يتراءى للجمهور انها غير جنائية فقد تقوّل الناس وبعض الصحف بها

* * *

نادي «ترف كلوب» في القاهرة معروف انه نادي الموظفين والتجار والنزلاء الانجليز يجتمعون فيه ويتحادثون في شؤونهم العمومية والخصوصية

وكان جايمس عضواً في النادي كسائر الموظفين وكان يحضر مجالسهم ويسمع مناقشاتهم السياسية المختلفة فكان يمتعض مما يراه من روح الاستئثار والاستعلاء والكبرياء في ادارة الحكومة، واحياناً كان يناقش بعض الاعضاء في ذلك مستنكراً مافي تلك الادارة من العسف والغبن والاجحاف حتى صاروا يمقتون افكاره بالرغم من صوابها وعدالتها

وأخيراً صارت تنكشف له بعض امور في تلك الادارة لم يكن يعتقد ان حكومة مهما كان نوعها تسلم بها . فكان يظن انها مكتومة عن كبار رجال الادارة وعن اللورد كرومر . ولكن في الاونة الاخيرة صار يعلم انها غير خافية على احد فكان يزداد استغراباً

في ذلك الاسبوع — اسبوع الاستعداد للرحيل — قصد الدكتور لام الى نادي ترف كالعادة فالتقى هناك بزميل له يدعى المستر هايمن مفتش في المعارف . وكان يعجبه في هذا الرجل خفة روحه ولطف مجونه وتوده . وانما كان يستنكر فيه عدم أهليته لوظيفته . وقد استغرب وجوده فيها بعد ان علم انه كان جندياً مكانيكياً في الجيش . ولم يفهم كيف يترقى جندي ميكانيكي الى وظيفة مفتش في المدارس اذ لا علاقة بين فن الميكانيكات وفن التعليم . ولو كان هايمن هذا في انكلترا لما استحق أن ينال ربع او خمس ماهيته التي يتناولها في مصر . فكيف صار مفتشاً للمدارس وهو يطمح الى وظيفة ناظر مدرسة عليا أو نحو ذلك

فلما التقى به هذه المرة في النادي رحب به ذاك كعادته وقال : لقد ساءني ماسمعت يا دكتور لام . عسى ألا يكون صحيحاً

— ماذا سمعت ؟

— قيل لي أن بعضهم يتهمك بتحريض الطلبة على التمرد ... وان لك يداً ... في حكاية القنبلة

فابتسم لام شامخاً وقال : وماذا سمعت أيضاً ؟

فتردد هايمن في الكلام وقال : وقيل ان المستر دانلوب ... انذرك ...

— واللورد عزلني . فاذا كانت وظيفتي ترضيك فليس عليك الا ان توسط المستر دانلوب

— معاذ الله ان اسعى الى ذلك ياعزيزي لام . وانما اسعى الى ازالة ذات البين بينك وبين المستر دانلوب . في امكاني ان افعل بهذه المسألة اكثر مما تظن . ولعلك لم تختبرني بعد ياعزيزي لام

— شكراً جزيلا لمروءتك . وانما لا جدوى من التوسط

— مهما يكن الامر قد فات فيمكن التلافي . فدعنا نتفاوض بهذا الموضوع ونقرر خطة

— لم يعد السعي والتوسط مفيدين يا صاح

— لماذا ؟

— لاني اعترفت للورد بحقيقة الحادثة فعلا وهي اني نبهت الطلبة للاحتجاج لا للتمرد . وفي فلسفة اللورد ان الاحتجاج افضى الى التمرد ولذلك اصبحت في نظره محرضاً

— طبعاً يا اخي اذا كنت قد افهمت الطلبة ان الاحتجاج امر جائز فقد فهموا ايضاً ان الاضراب او الاعتصاب امر جائز

— لقد شكوا لي شكوى حق . فماذا اقول لهم ؟

فضحك مستر هايمن وقال : ليس في شكاوي المصريين مهما كان نوعها مجال للقول

فاستغرب لام وقال : عجباً كيف ذلك ؟

— نعم . ماذا شكا الطلبة لك ؟

— شكوا ان اسئلة الامتحان معجزات لا يقصد منها اختبار ما حصلوه من العلم والمعرفة في الدراسة بل يقصد بها تعجيزهم في الامتحان . وانا وجدت شكواهم في محلها فماذا تنتظر مني ان اقول لهم ؟

— المسألة بسيطة تقول لهم : « هذه اسئلة الامتحان وعليكم حلها ولا وجه للاعتراض عليها . . ومن يعترض يعد ساقطاً في الامتحان » : كذا يجب ان يساس الطلبة المصريون .

فتململ لام وقال: لا اقدر ان اقول لهم هكذا لان ضميري . . . . .

فقهقه هايمن وقال . ضميرك ؟ وهل انت المسئول عن ادارة التعليم في مصر . انت منفذ . فنفذ اوامر غيرك واترك المسؤولية على ضمير غيرك

فتغيظ الدكتور لام جداً وقال : للهمنكم انتم تريدون ان تكونوا آلات في معمل الادارة الانكليزية في مصر فتقدرون ان تكونوا كذلك . اما انا فلا اقدر ولا اريد

فابتسم هايمن وقال : كانك لا تدري ما هو غرض الادارة الانكليزية في مصر فتقول هذا القول

— بلى . ادري ان الغرض من الاحتلال الانكليزي هو تدريب المصريين ان يصلحوا انفسهم بانفسهم وثم نخلي البلاد ونرحل

فقهقه هايمن وقال : وي . وي ، انت في واد ونحن في واد . هل يخطر لك ذلك في بال ؟

— نعم لان دولتنا صرحت مراراً تصريحات رسمية بهذا القول الذي قلته الان . ولا اقدر ان اتصور ان دولة بريطانيا العظمى لا تصدق في وعدها

— دولة انكلترا لا تكذب ولكن رجال السياسة يسوغ لهم الكذب . و....

— مع ذلك لا ابحث في قصد السياسة الانكليزية

وان كنت أعتقد أنه قصد غير شريف فدعنا من غاية الاحتلال الانكليزى . ولنقتصر على الادارة الانكليزية في هذه البلاد . فقد تولينا مصالحها . فعلينا أن نديرها بالاستقامة والامانة كما يليق بامة تدعي نشر المدنية

— أي نعم ونحن نديرها بامانة واستقامة حسب مقتضى غرضنا من الاحتلال . ان احتلالنا لمصر ضروري لنا لانها بوابتنا للشرق أو مخفر طريقنا للهند على الاقل . وهذه الضرورة توجب علينا أن نكون قابضين على أزمتها تماما

— لا أبحث بهذه الغاية الاحتلالية لان البحث فيها يطول . وانما أنا أبحث في مسألة المعارف . نحن أقمنا أنفسنا أوصياء على مصلحة المعارف في البلاد . فبدلا من أن نحسن المعارف رجعنا بها القهقري . لما احتللنا مصر كان القراء فيها ١٢ بالمئة فاصبحوا الآن ٥ بالمئة

— بل زاد الذين يقرأون في البلاد وانما المعدل المئوي نقص لان السكان زادوا جداً . تضاعفوا ضعفين أو ثلاثة

فهب الدكتور لام من مقعده وصاح :

لله منك مماحكا ، ! لا أفهم كيف تجسر ان تفوه بهذا البرهان السخيف أمامي . فلا بد من أحد امرين اما انك غبي او انك تستجهلني .

فاكفهر وجه هايمن وقال : لا هذا ولا ذاك ياعزيزي وليس الغرض الرئيسي من وجودنا هنا احياء المعارف في البلاد ونشر العلوم والفنون . ولهذا تسوغ لنا مصلحتنا ان نجعل اسئلة الامتحان كما هي حتى يمكننا ان لا نجيز الامتحان إلا عدداً معدوداً من الطلبة يكفي لاشغال الوظائف الصغيرة التي تركناها للمصريين

— عجباً . عجباً . اهذا هو برنامج ادارتنا في مصر ؟

— نعم نعم . ليس من شأننا ان نعلم الناس وان يزداد عدد القارئين في البلاد . أما قرأت في تقارير اللورد كرومر ان توسيع التعليم في مصر ضار باهلها ، لأن المصري متى عرف القراءة والكتابة أخلى الغيط وترك زراعته . فاذا جعلنا نعلم تعليما متيناً ونشرنا وسائل التعليم وأخذ المصريون يقبلون على المدارس فمن يفلح ومن يزرع

وكان لام يسمع هذا الكلام ويكفهر تارة ويمتقع اخرى الى أن أجاب : ياللعجب ما خطر على بالي أن تكون هذه المقاصد هي روح الادارة الانكليزية في هذا القطر . فكأنك تقول لي ان مصلحة احتلالنا تقضي بأن نجعل المصريين مزارعين وفلاحين فقط

— نعم نعم . قاربت تفهم روح السياسة الانكليزية في مصر

— وكذلك قضت بان تكون مالية الحكومة عبدة للبنك الاهلي المصري . وقضت بأن . . . .

— نعم نعم . كل ماتراه من الاجحاف للمصريين ليس بالحقيقة اجحافاً بل هو انقاذ لمصالحنا من الخطر

فتهيج غضب لام وصاح : ويحك ياهذا هل تريدون أن تقفوا في سبيل العلم والرقي ؟ وهل يحق لكم احتلال بلاد لانها في طريقكم الى الهند ؟ كان عليكم أن تدفعوا ثمنا موازياً لخفركم الذي انشأتموه في بلاد لحراسة طريقكم الى الهند . واي إله ملككم الهند وسوغ لكم أن تملكوا طريقكم اليه كملك الانسان للمتاع ؟ واين تنتهي حقوقكم للسيادة هذه اذا كان كل ظفرتم ببلاد ادعيتم حق امتلاك الطريق اليها وحق امتلاك البلاد المجاورة حتى تكون سياجاً لها فقد تحاولون غداً امتلاك سوريا كما امتلكم الهند . وبعد غد قد تحاولون امتلاك الحبشة وهكذا يسوغ لكم حب التوسع السيادة على نصف الكرة الارضية . ولعلكم بعد ذلك تطمعون بامتلاك سيارات الافلاك عطارد والزهرة

والمريخ وسائر الاجرام — اذاً الارض لكم ولا حق لا حد ان يعيش معكم .

فقاطعة هايمن وهو يضحك ويقول : رويداً رويداً لقد تماديت في الكلام يا دكتور لام . .

— لم اتمادَ . ألم تكن هذه خطتكم في جنوبي افريقيا؟ نزلت هنالك شرذمة من الهولانديين فذهبتم اليهم وطردتموهم وامتلكتم ما عمروه ففروا الى الداخل وجعلوا يعمرون . فلما عمروا قسما آخر هناك طردتموهم منه ايضاً وملكتموه . وهكذا سقتموهم امامكم : هم يعمرون وانتم تملكون ، الى ان كانت حرب البوير فكانت غضبة من غضبات الله عليكم . على هذه القاعدة تريدون أن تملكوا العالم وهي قاعدة يستنكرها حتى جابي العسل فانه يأخذ من الشهد قسما ويترك للنحل قسما آخر . اما انتم فقد بلغ من طموحكم انكم لا تتركون حتى ولا نقايته . المصريون يلهفون على شيء من المعارف يحصلونه باجتهادهم وينفقون عليه من اموالهم . وانتم تقبضون ثمنه وافراً ومع ذلك تمسكونه عنهم . هذه خطة عسوفة جداً لا اريد أن اخدمها

وتنهد الدكتور لام كانه يريد أن يستريح من شدة حدته فبادره هايمن في الجواب قائلا : تتكلم كانك لست انجليزياً ولو كنت من غلاة المصريين لما تكلمت بهذه الحدة

فقال لام : نعم . بعد ما اطلعت على خطة انكلترا الاستعمارية التي لا تقف عند حد صرت اخجل ان اكون انكليزياً لان قاعدة هذه الخطة تسخير الضمير

فنظر اليه هايمن شزراً وقال : انك تهين كل انجليزي هنا وفي انكلترا بهذا الكلام

— كلا البتة ، لاني لا اعتقد ان كل الانكليز يحبذون هذه الخطة ومعظم محبذيها لا يعلمون قواعدها وما تنطوي عليه . فهم مخدوعون

— عجباً . اليس جميع هؤلاء الانكليز الموظفون في الحكومة المصرية يفهمون هذه الخطة وقواعدها وما تنطوي عليه ؟

— معظمهم مثلك يبررون هذه الخطة بحجة ان المصلحة الانكليزية تقضي بذلك فانتم ارباب مصالح . . .

فضاق هايمن ذرعاً ولم يعد يملك طبعه وقال : لقد تطرفت يا دكتور في قلة الذوق حتى انك تهينني في وجهي . فلا ادري اي قديس انت حتى تتبجح بحسن الذمة والضمير . واظن انه لو كان في وظيفتك ما يحتمل الرشوة بحيث يملأ جيبك كل شهر مرة لكنت تحبذ هذه الخطة وتقدسها

فتميز جايمس لام غيظاً وتطاير شرر الغضب من عينيه وقال : خسئت يا جبان لست ممن يرتقون للمناصب بالرشوة حتى اتذرع بمنصبي للارتشاء مثلك . لقد نلت وظيفتي بكفاءتي واهليتي . واستغرب ان غبياً مثلك لا يصلح مفتش اسطبلات يتعين مفتشاً للمدارس

فوثب هايمن من مكانه ووثب جايمس وهجما احدهما على الاخر يتلاكمان ويتلاطمان . وتنبه بقية من في غرف النادي على صوت شجارهما فاسرعوا اليهما فاذا هما في حالة صراع شديد وقد تمزقت ملابسهما وتناثرت الاوراق من جيوبهما وتهتكت حالتهما أى تهتك . فجعل من في النادي يحاولون فصلهما الواحد عن الاخر وما تمكنوا من ذلك الا بشق النفس فاخذوا يطيبون خاطر كل واحد منهما وكل منهما يجمع سواقطه ويلأم ما تمزق من ثوبه

اما جايمس لام فخرج من هناك حالا لانه استنكف أن يبقى بين اناس لا يتفق معهم في مذاهبه واخلاقه . واما هايمن فبقي يشرح لمن في النادي مفصل الحديث الذي جرى بينه وبين جايمس ويزخرفه كما يشاء . فما انتهى من حديثه حتى اوغر صدور اعضاء النادي على جايمس واقام في يقينهم عقيدة ان جايمس هذا مجنون او أنه مرتش من الحزب الوطني المصري حتى انه مال الى الطلبة يحرضهم ويحملهم على التمرد . وقد تمادوا في اتهامه هذه التهمة حتى صار بعضهم يؤيدها بقوله انه علم من مصدر وثيق انه يجتمع كثيراً بالزعيم مصطفى باشا كامل وانه جاسوس له في النادي . ولذلك اقترح بعضهم ان يشطب اسمه من عضوية النادي . ثم انبرى بعضهم وابلغ الحاضرين ان عنده علماً أن جايمس لام هذا سيبرح القطر المصري قريباً لان جناب اللورد ساخط عليه . وقد علم بجنونه وشواذه من زمان ولولا توصية بعض الكبراء في انجلترا به لطرده من قبل

وهكذا كان الرأي العام في النادي ضد جايمس كما هي العادة في كل موقف يأنف فيه الانوف من الدفاع عن نفسه عند قوم يعدهم كلهم دونه مقاماً وادباً وعلماً ونزاهة

* * *

قبل أن ينتهي اسبوع المهلة ارسل اللورد كرومر مندوباً من داره الى الدكتور جايمس يقول له ان عليه ان يستعد للسفر في ٢٤ ساعة لان باخرة انكليزية آتية من الشرق وجهتها انكلترا سترسو في بورت سعيد صباح بعد الغد

ثم عاد المندوب الى جناب اللورد كرومر يقول له ان الدكتور جايمس لام

لا يريد أن يسافر من مصر الا بحكم محكمة تقضي عليه بذلك . وبعد ساعة بلغ الى جناب اللورد ان ذلك الاهوج جايمس لام ابرق الى فخامة المستر اسكويث وزير الاحرار الجديد في انكلترا يشكو من معاملة اللورد كرومر له . وفيما يلي نص التلغراف الذي نقلت صورته الى اللورد بصفة غير رسمية . ولا بدع في ذلك فان الشخص الذي يستطيع ان يرسل من قبله مندوبين يفكون اختام المحكمة من باب مطبعة (المطبعة العثمانية) ويكسروا الباب ليستخرجوا اوراقاً قيل أن فيها تهما لشخص مغضوب عليه من قبل السلطان عبد الحميد — لا يصعب عليه الحصول على صورة التلغراف الآتي قبل أن يرسل

« فخامة المستر اسكويث رئيس الوزارة الانجليزية

« اعرض لفخامتكم ان جناب اللورد كرومر يأمرني بالرحيل من القطر المصري من غير استصدار حكم قانوني من محكمة قانونية تسمع دعواه ودفاعي . أرجو أن تستعملوا العدل الذي يقضي به القانون الانكليزي لمنعه من تنفيذ امره الجائر هذا . والا فامهلوني ريثما اثبت اني لست انكليزياً ولا سلطة للورد علي واني اخضع للمحاكم الاهلية والمختلطة فتحاكمني ان كان ثمت من ذنب لي »

الدكتور جايمس لام

مفتش في المعارف المصرية

فلما اطلع كرومر على نص التلغراف هذا ابتسم كانه يزدري هوج هذا الاهوج ويعتقد أن المستر اسكويث لا يلتفت الى شكواه . وما كان اشد دهشة اللورد كرومر في صباح اليوم التالي حين ورد اليه التلغراف التالي

« جناب اللورد كرومر الافخم

« ارجو ان يحاكم الدكتور جايمس لام في المحكمة المختصة بالحكم عليه والا ينفذ فيه حكم غير قانوني »

(الامضاء)

اسكويث

فتجهم اللورد كرومر وعلا الدم الى رأسه وهاجت فيه كل العاطفة الغضبية لانه لم يعتد أن يخاطبه وزير الخارجية ولا وزير المستعمرات ولا رئيس الوزارة بمثل هذه اللهجة . بل اعتاد ان يسمع النواب الاحرار في البرلمان يعترضون على اعماله الخطيرة الشأن كحادثة دنشواي مثلا ويقبحونها فيجاوبهم الوزير : « عندنا في مصر رجل في تمام الاهلية ونعتمد عليه كل الاعتماد وليس عندنا مثله . فلا نسأله ماذا يفعل

بل نطلق يده ونحن واثقون انه يدبر الامور بمقتضى المصالح البريطانية تماماً »

— كذلك اعتاد كرومر ان يسمع الوزراء في وزارة المحافظين يدافعون في البارلمان عن تصرفاته واعماله مهما كانت . ولكن وزارة الاحرار الجديدة أبت الا أن تتداخل حتى في اتفه اموره فهاج غضبه وقال مخاطباً نفسه انا المحكمة وانا القانون . يجب أن يرحل الدكتور جايمس غداً . ولست اعبأ بهؤلاء الاحرار غلمان السياسة الاغبياء

ثم تناول القلم وكتب التلغراف التالي

« جناب المستر اسكويث الافخم رئيس وزارة جلالة الملك

« تشرفت بتلغرافكم . سلوك الدكتور جايمس ثوري ضار يستوجب نفيه . ولا ارى من الحكمة محاكمته بذنب غير محدود بيد انه خطر لئلا تفتح المحاكمة العيون »

ثم أوفد مندوباً الى الدكتور جايمس يأمره بالسفر في الحال والا استعمل القوة في تسفيره رغم انفه . فقال الدكتور جايمس للمندوب . ابلغ جناب اللورد ان عنده امراً من جناب المستر اسكويث بمحاكمتي . اذ ابرق لي الوزير بذلك . فليحاكمني في المحكمة الاهلية لاني لست انجليزيا . وفي امكاني ان ابرهن اني لست انجليزياً

فقال المندوب . اذا لم تكن انجليزياً فماذا تكون ؟

— اقدر أن اثبت اني لست انجليزياً . واذا امهلتموني برهة اثبت جنسيتي الحقيقية ولذلك لا اخرج من القطر المصري الا بحكم محكمة

فعاد المندوب وابلغ الخبر الى اللورد كرومر ذلك فازداد اللورد تغيظاً . وارسل جندين انكليزيين فقبضا على الدكتور جايمس وارسلاه الى قشلاق قصر النيل لكي يؤخذ من هناك الى بور سعيد

وانما قبل ان يؤخذ الى المحطة ورد تلغراف من مستر اسكويث يقول : « ان طلب الدكتور جايمس حق فارجو أن تجيبوا طلبه »

وورد اليه تلغراف آخر من مقام عال آخر يرجوه أن يعامل الدكتور جايمس بالرفق . فوجد اللورد كرومر نفسه حينئذ في موقف حرج . كيف يتخلص منه من غير ان يظهر أنه تقهقر الى الوراء . واستغرب جداً ان يوصي به شخص عالي المقام وهو لا يستحق هذه النعمة . وتفيظ من تداخل المقامات العالية بشؤونه الخاصة . ولكنه استنكف أن يظهر عناداً في مسألة يعدها حقيرة . وانما كيف يفرج عن الدكتور جايمس من غير ان يفهم هذا ان اللورد

انكسر له . وجعل يفكر باسلوب رشيق لبق يحفظ كرامته . وفيما هو في ابان تفكيره قرع جرس التلفون فتناول السماعة وتكلم

— من ؟

— الدكتور جايمس لام

— ماذا تريد ؟

— اعلن جنابكم اني مصري والمحاكم المصرية وحدها ان تحكم علي بالنفي

– اتريد ان تكون مصرياً ؟ فكن اذاً . وانما حاذر ان تأتي امراً اداً . فان المحاكم المصرية لا تقبل وساطات ولا توصيات ولا تحيد عن العدل المرسوم لها

– اني راض باحكامها

وامر اللورد باطلاق سراحه فاطلق وعاد حراً . ولكن هذه الحرية لم تطل

الفصل السابع عشر

غيري جنى وانا المعذب فيكم

في مساء كل يوم جمعة تعزف الموسيقى العسكرية في حديقة الازبكية ويجتمع كثير من الناس حول منصة الجوقة وفي الحانة التي الى شمال تلك المنصة . وبعض الناس يتمشون في طرق الحديقة

وكان ذلك اليوم يوم جمعة والموسيقى تعزف والناس بعضهم جالس وبعضهم يتمشى . وقبل ان تتم الساعة الثامنة استرعى الناس دوي ثلاث طلقات نارية متتالية فظنوا ذلك في ساحة الاوبرا . فخرج بعضهم ليرى ما الخبر وبعضهم لم يبال . ولكن الذين كانوا قرب الاكمة الصناعية أو « الجبلاية » التي في الحديقة شعروا أن اطلاق الرصاص قريب . ورأوا نفرين من الشرطة يجرون الى الجهة التي صدر منها اطلاق الرصاص . فاسرع بعضهم وراء الشرطيين . وفي دقيقة كان الشرطيان امام حادث جنائي في سفح « الجبلاية » من جهة ساحة الاوبرا وبعض الناس وراءهما . فماذا رأوا ؟

رأوا رجلا واقفاً لدى رجل آخر صريع . وكان نور ساحة الاوبرا وبعض أنوار الحديقة المشتتة هنا وهناك تساعد على رؤية الحادث . فما تردد الشرطيان ان قبضا على الرجل الواقف من غير أن يقاوم كانه أصيب ببله أو بخبل . ثم فحصا الصريع

فاذا هو لا يزال يتنفس ويتحرك ولكنه لا يعي . وعثرا على مسدس لا يبعد عنه أكثر من متر. فاسرع أحدهما الى الشارع واستدعى شرطيين آخرين فحملوا الصريع وساقوا الشخص الآخر الى خارج الحديقة حيث ركبوا مركبة الى دائرة بوليس الازبكية . وهناك تبين للملاحظ أن كلا الشخيصين انكليزيان احدهما يدعى الدكتور جايمس لام وهو الذي كان واقفاً والآخر يدعى المستر هايمن المفتش فى المعارف وهو الذي كان صريعاً . فطير الملاحظ الخبر في الحال الى القنصلية الانكليزية بالتلفون . فجاء مندوب من القنصلية ومعه طبيب . فنقل الطبيب المستر هايمن في مركبة الى دار القنصلية وروى المندوب للقنصلية تفصيل الحادثة بالتلفيون : وبعد نحو ساعة، جرت فيها المفاوضة بين القنصلية والوكالة البريطانية ، ثم تلقى ذلك المندوب أمراً بابقاء المتهم الدكتور جايمس لام في دائرة البوليس واستدعاء وكيل النيابة والتحقيق معه وحبسه في حبس الدائرة

فاستغرب الملاحظ الأمر وقال : هذا مخالف للعادة . فقال المندوب . هذا أمر الوكالة البريطانية يجب أن ينفذ لان الدكتور لام يزعم انه مصري

فقال الدكتور لام . لا انكر زعمي . اني مصري وأخضع للقانون المصري

فازداد الملاحظ استغراباً ولكنه اضطر أن يصدع بالامر بلا اعتراض . فاستدعى وكيل النيابة وجرى التحقيق وكان الشرطة قد اصطحبوا بعض من شهدوا الحادثة . فشهد هؤلاء كما روينا الحادثة للقارىء . وظواهر الحال تدل على ان الدكتور جايمس رمى المستر هايمن بثلاث رصاصات من المسدس الذي وجده الشرطة هناك وكان في المسدس ثلاث خرطوشات فارغة

وأما الدكتور جايمس فقال انه ورد عليه منذ يومين بطاقة من سيدة مجهولة ترجو منه أن يقابلها عند سفح الجبلاية الجنوبي في حديقة الازبكية في الميعاد ليرى من هي هذه السيدة . وما انعطف الى جنوبي الجبلاية حتى روعه دوي الرصاص على مقربة منه وسمع صرخة فنظر رجلاً يتخبط . فوقف قليلا ليملك روعه . فاذا بالصريع قد وهنت قوته . فحاول أن ينهضه. فاذا به قد اغمي عليه. عند ذلك أحس بوطء الاقدام من هنا وهنالك فلم يعد يدري ماذا يفعل . وقد راعه الامر جداً اذ علم ان الصريع هو المستر هايمن . فما الذي جاء به الى تلك الناحية ؟ ومن هذا الذي اطلق عليه ثلاث رصاصات ورمى المسدس الى مقربة منه؟ واين كان كامناً ؟ ان في الجبلاية

كثيراً من المكامن التي تسهل ارتكاب الجنايات . ولكن من هو هذا المجرم الداهية الذي يجرأ على ارتكاب جناية كهذه في مكان تتغلغل فيه الناس في كل ناحية واستطاع أن يسلم من التهمة

هذا تقرير الدكتور جايمس لام ولكن ليس ما يؤيده البتة . أما المستر هايمن فظهر ان اصابته غير خطيرة وقد أسعف بالعلاج. فلما تحسنت حاله قرر أنه بعد المشاجرة التي حدثت بينه وبين الدكتور جايمس لام في «نادي ترف» وبعدما «لملم» ما تضعضع منه وجد في جيبه بطاقة مكتوب عليها باللغة العربية هكذا : ارجو مقابلتكم الساعة ٨ مساء الجمعة في جنوبي «الجيلاية» في حديقة الازبكية لامر ذي شأن »

الامضاء الصديقة القديمة « ج »

قال : فاستغربت وجود البطاقة معي ولكني ما لبثت أن خطر لى انها من اوراق الدكتور جايمس لام التي تناثرت من جيبه حين المصارعة وقد حسبتها حينئذ من اوراقي فاودعتها في جيبي . ومن ثم صرت أود ان اعلم من هي هذه الصديقة القديمة التي تواعد الدكتور جايمس في الازبكية لتقابله هناك . وخطر لي ان تكون من شخص يجتمع أحياناً سراً مع الدكتور جايمس للمفاوضة في المكايد او لعله شريك جايمس في التجسس . ولذلك عقدت النية على أن أذهب الى هناك لارى ماذا يكون من أمر جايمس ودسائسه . فذهبت في الميعاد متلصصاً ولكن ما هو الا بعض الدقيقة حتى رأيته قادماً وفي لحظة اخرى باغتني بثلاث رصاصات . ولم أر هناك سواه

وأكد هايمن انه رأى جايمس يسدد المسدس اليه بسرعة ويطلق الرصاص عليه

هذا كان مجمل التحقيق من الجانبين وهو ما تقدم لمحكمة الجنايات في مصر. وما استطاع جايمس ان يدافع عن نفسه وينفي التهمة عنه . وبالاختصار حكمت المحكمة عليه بحبس سبع سنين مع الاشغال

وهكذا اضيف الى مجموعة اسرار جايمس سر جديد وهو سر هذه الرصاصات التي اصيب بها هايمن . من اطلقها فعوقب هو بجريرته وأين كان كما ناوما غرضه يا ترى؟

الفصل الثامن عشر

الخط الاحمر الموازي لخط الخطية

الى هنا نقف وندع جيمس لام في سجنه يقاسي الشقاء ونعود بالقاري الى عهد قديم لكي نمسك سلسلة اخرى من هذا التاريخ موازية لهذه السلسلة التي مررنا بها الى ان نلتقي بالعقدة التي تتصل بها السلسلتان

يتذكر القاري ان عرابي باشا لما عاد الى مصر مدحوراً اتفق هو وأعوانه على ان يرفعوا الى الجناب العالي الخديوي عريضة استرحام يعرضون بها خضوعهم ويلتمسون المغفرة والعفو . وكان من رجال الوفد الذي حمل العريضة الى الاسكندرية علي باشا الربيعي . ولما وصل الوفد بالعريضة الى الجناب العالي الخديوي توفيق باشا أمر بالقبض على علي باشا هذا وبزجه في السجن

وقد قيل في ذلك الحين ان ابن عمه حسن بك المهندي ذهب يومئذ الى الاسكندرية واوغر صدر الخديوي عليه . ولا يبعد ان يكون الخبر صحيحاً لان حسناً واخاه حامداً يستطيعان بعدئذ ان يمتصا كثيراً من ريع ثروة صهرهما وابن عمهما عن يد اختهما

وهكذا كان . فحوكم الربيعي وحكم عليه بالسجن عشر سنين وجعلت زوجته تسعى في استصدار العفو عنه . ولذلك لم يشأ أن يطلقها ولا ان يكف يدها عن ثروته واثقاً باخلاصها الكاذب له . وهي كانت كل مدة تزوره في السجن وتمنيه بالافراج عنه وتسعى لتحسين معاملته في السجن فكان الربيعي يعلل النفس بالآمال . وزوجته تتمتع بريع ثروته الطائلة واخواها حسن وحامد يأخذان منها كل حين بعد آخر مبلغاً

أما سبب مكر لطيفة هانم زوجة الربيعي على زوجها فهو انها علمت بزواجه الشرعي من تلك الفتاة الانكليزية التي زعم في أول الامر انه محتظيها ، وعلمت انها ولدت له صبيا . فتغيظت جداً وخافت ان تذهب ثروة الباشا الطائلة من يدها اذا مات في عهد قريب ، لانه كان عليلا ، وتتحول الى تلك الانكليزية ولذلك منذ بدء الامر حملت عليه هي وأخواها وسائر اهله واحرجوه ، فطلق الانكليزية حين كانت لا تزال في شهر النفاس . ومن ثم جعلوا يتحينون الفرص لاغتيال الطفل . وشعر علي باشا الربيعي بذلك فصار همه ان يخلص الطفل من شرهم

وابوا الفتاة الانكليزية اللذان شق عليهما جداً زواج بنتهما السري من غير أن

يعلما بأثره احرجاها على ترك الطفل في عهدة أبيه والعودة معهما الى انكلترا واخفاء حكاية هذا الزواج الوقتي الذي حسباه مشيناً لها وعقبة في سبيل زواج آخر

لذلك وضع علي باشا الطفل سراً في عهدة صديقه علي بك سيف . وهذا تظاهر ان الطفل ابن لصديق آخر وتبناه ـ الى آخر ما كان من الحكاية مما علمه القاري

وكان علي باشا الربيبي عليلا فلم يستطع احتمال السجن طويلا فمات في السنة الخامسة من مدة سجنه . وهب ابناء عمه لاستلام ارثهما منه ومقاسمة اختهما أي زوجته التركة الوافرة

وانما قبل ان يتم شيء من هذا القبيل انبرى صاحبنا علي بك سيف وقدم للمحكمة الشرعية دعوى بطلب الارث كله ـ ماعدا حصة لطيفه هانم زوجة الربيبي — لجميل الابن الشرعي للباشا من زوجة انكليزية شرعية . وشفع عريضة الدعوى او القضية بعقد الزواج الشرعي بين علي باشا الربيبي والانسة مرغريت بنت جون صوان الانكليزي .

ثم اردفه بوصية قانونية بخط علي باشا الربيبي وامضائه ينص فيها على ان ابنه جميلا الذي رزقه من مرغريت صوان الانكليزية هو وريثه الشرعي بلا منازع . وان ابنه هذا في عهدة الميرلاي علي بك سيف الذي تكفل بتربيته وهو القيم عليه . وفي ايسر صدر الغلام علامة هلال وفي وسطها صليب

وطلب علي بك في عريضة الدعوى ان يتعين حارساً قضائياً على حق الغلام جميل من الارث ريثما يهتدي الى الغلام لانه سرق منه وانه في امكانه ان يبحث عنه ويجده ، وأتى بشهود شهدوا ان الغلام سرقه هندي ومعه شخص زنجي والشهود هم حسن حسني السمهري ومحمد حسن الصنوبري وابنه وزوجته

وبناء على وصية علي باشا الربيبي وقرائن الاحوال عينت المحكمة علي بك سيف حارساً قضائياً على التركة ريثما يفصل في القضية . واصبحت تركة علي باشا الربيبي معلقة في الهواء لا يعرف لها وريث . وكل حين بعد حين يهجم الخصوم هجمة في القضية ويعودون بخفي حنين

وقد صار علي بك لا يدري كيف يهتدي الى مصير الغلام . ويبحث عن عنبر أغا لعله هو الزنجي الذي كان مع الهندي شندي لام فيستعلم منه بابة الوسائل والحيل عن مصير الطفل . ولكنه لم يجد لعنبر أغا اثراً وقيل له أنه ظهر حياً ثم اختفى . واذا كان قد ظهر فلا بد أن يكون المهنديان واختهما زوجة الربيبي قد اجتمعوا به وعلموا منه شيئاً أو أشياء عن الطفل

وخطرت لعلي بك خواطر عديدة بشأن الطفل : أولا ، يمكن أن يكون شندي الهندي وعنبر اغا صنيعتي المهنديين وقد سرقا الطفل بناء على امرهما . ومن ثم اغتالوه . وفي هذه الحالة لا يعترف المهنديان بهذه الجناية

ثانياً . يمكن أن يكون عنبر اغا قد تذرع بالهندي لسرقة الطفل حتى يأخذه لنفسه ويربيه . ولكن ماذا كان غرضه منه . ومن اين له ان ينفق عليه

ثالثاً . قد يكون الزنجي شخصاً آخر غير عنبر . اذاً لماذا اختفى عنبر . وهل ظهر حقيقة ثم اختفى ؟

رابعاً . قد يمكن أن تكون ام الغلام مرغريت صوان قد أوعزت للهندي أن يسرق الغلام فاستعان هذا بعنبر أغا بناء على تعليماتها وسرق الغلام وأخذه له وذهب عنبر اغا معه اليها . ولعل الاشاعة بان عنبر اغا ظهر ثانية ثم اختفى غير صحيحة . وقد تكون صحيحة أي انه اتى الى مصر ثم برحها الى حيث الطفل موجود . ولعل ماري صوان ام الطفل جاءت الى مصر وعنبر اغا معها ثم عادا

ولذلك بعد أن رفع القضية ضد المهندبين سافر الى انكلترا وأخذ بنته جميلة وأودعها في مدرسة عالية لانها كانت بارعة . وقد تقدمت في معرفة اللغة الانكليزية تقدما يذكر منذ كانت تدرس هنا . وهناك جعل يبحث عن المستر جون صوان فلم يهتد اليه و بالطبع لا يهتدي اليه لان جون صوان كان بهذا الاسم في بمباي ، ولكنه بعد أن عاد الى انكلترا وأقام فيها برهة أصبح اسمه اللورد فيفر وصارت بنته اللايدي فيفر فيصعب جداً أن يهتدي الى مرغريت وقد مات أبوها وأصبحت في طبقة النبلاء

فعاد يخفي حنين ولكنه بقي يحاول المناطلة في القضية وتسويفها بحجة أنه قارب أن يهتدي الى الغلام

وسافر الى انكلترا بعد سنتين لهذا الغرض فلم ينجح أيضاً . وبعد سنة أخرى سافر أيضاً لكي يستقدم بنته اذ انهت دروسها وهناك التقى بجايمس في المطعم كما علم القارىء وجرى ما جرى مما افضى الى اجتماعة بجايمس ثانية في باب قصر فخم عند سيدة نبيلة لا يعرف عنها شيئا . وقد سمع من كلام جايمس المهين له ما رده عنه موقناً أنه ليس الغلام جميلا . وانه لما سأله ان كان في صدره الوشم فاجاب بالايجاب كان كاذباً في جوابه . ولعله كذب لكي يستدرج على بك أن يقول كل ما في نفسه . هذا ما رجحه على بك

وفهم علي بك أن المهندبين تعقبوه الى لندن لانهم حسبوا أنه برح اليها لكي يبحث عن الغلام ، فكانوا يراقبونه بكل انتباه وربما اقاموا جاسوساً يتجسس عليه ، فلما رأوه يخاطب جايمس لام حسبوه اهتدى الى ضالته المنشودة فحاولوا أن يغتالوا جايمس لام لاعتقادهم انه هو الفتى جميلا بعينه فاذا أظهره علي للوجود حرمهم الارث الهائل . وكانت لطيفة اخت المهندبين تنفق من حصتها في هذا السبيل بسخاء لانها اتفقت اخيراً مع اخويها على الظفر بالثروة باي الوسائل

ثم عاد علي بك ببنته من لندن غير نائل وطراً ، لكنه بقي يختلق الوسائل لتسويف

القضية والمطل فيها نكاية بالمهنديين وأملا بان يهديه الله الى الغلام أو ان المهنديين يملون ويسترضونه بقسم من التركة فيسكت أو يتنازل ولكن المهنديين بقوا أيضاً يجاهدون وعرضوا عليه ترضية بسيطة فلم يقبل

وهكذا بقيت قضية ابن القضاء والقدر معلقة في الهواء الى أن ذكر في الجرائد ودار على الالسنة اسم الدكتور لام المفتش في المعارف بمناسبة تمرد الطلبة ، فخطر لعلي بك أن يكون لام هذا هو الفتى الذي اجتمع به في لندن مرة أو مرتين ولا بد أن يكون هذا الخاطر خطر للمهنديين أيضاً . وسأل عن حقيقة اسمه فعلم أن اسمه جايمس لام فرجح أنه هو . وحدثته نفسه أن يقابله ليستدرجه في الحديث الى مسألة أصله وفصله ولكنه ما عتم أن سمع باتهامه بالجناية وبوقوعه تحت يد القضاء . ثم مالبث أن قرأ أن المحكمة حكمت عليه بالسجن فاستغرب امره كل الاستغراب وفهم أنه حدث بينه وبين الانكليز عداء شديد وأتهموه أنه يحرض الحزب الوطني والطلبة على الثورة ، فمقته الانكليز وصاروا يحسبونه رجلا مشاغباً داعياً للثورة وانه لكي يسلم من نقمتهم ادعى أنه مصري وطلب أن يحال على القضاء المصري فحكم عليه بقساوة

ولذلك لم يستنسب علي بك في ذلك الحين أن يحرك ساكناً ، وتربص ريثما يرى ماذا يكون من أمره لانه رأى أن سياسة البلد الداخلية مضطربة جداً . وفي ذلك الحين استعفى اللورد كرومر وبرح القطر المصري وتعين بدله السر الدن غورست مفوضاً سامياً على قاعدة سياسة الوفاق . أي الوفاق بين انكلترا والخديوى . لأن الخديوي عباس والسير غورست كانا صديقين . وشرعت الحكومة تقاوم الحزب الوطني ارضاء لخاطر الخديوي عباس . ولذلك لم يعد علي بك يجسر أن يتوسل بأي وسيلة لعلاقة بينه وبين السجين الدكتور جايمس لام لئلا يحسب في زمرة المتطرفين . فتربص وبقي المحامي وكيله يخترع الوسائل القانونية لتسويف القضية والمماطلة فيها .

* * *

كان علي بك سيف لما استلم الطفل من صديقه علي باشا الريبي ثم استلم وصية الريبي نفسه بشأن الطفل ومعها عقد الزواج عقد النية على أن يربي الطفل ويزوجه ابنته الوحيدة فيكون هو مسيطراً على تلك الثروة الطائلة

ولكن لما خاب فأله واخطأ حسابه صرف فكره عن هذه الامنية . وكان يتقدم لبنته طلاب فترفضهم وأبوها لايعلم سر ما بها . وأخيراً صار يناقشها في ذلك فيسألها : لماذا ترفض فلاناً وهو كفء وفلاناً وهو اكفأ . فكانت تراوغ وتحتج حججاً مختلفة حتى رابه أمرها . فسألها : هل تحبين شخصاً معيناً ؟ فترددت وانكرت . ولكن اباها ازداد شكا في أمرها ورجح أنها تحب شخصاً

وانما تعذر عليه أن يكتشفه لانها أصرت على الانكار . فوكل الامر لامها عسى أن تكتشف سر قلبها . وهمه أمرها لانها صارت حول الثلاثين من العمر فحتى متى ؟

* * *

وحان موعد جلسة من جلسات تلك القضية الممطولة ففاجأ المهنديون خصمهم علي بك سيف بادعاء غريب مدهش وهو أنهم وجدوا ابن علي بك الربيعي المفقود وأثبتوا وجود الوشم في صدره كما تنص الوصية التي قدمها علي بك سيف للمحكمة . وسردوا حكاية عن كيفية فقده واهتدائهم اليه وزعموا أن عنبر أغا الذي كان عبداً عند الباشا هو الذي سرقه وأودعه عند مرأة غريبة ومات عنبر أغا ومانت المرأة وبقي الغلام عند أقاربها الى ما هنالك من قصة غريبة مؤيدة بوقائع وشواهد تثبت صحتها حتى كاد علي بك سيف نفسه يعتقد بصحتها بل لم يبق عنده الا شبه شك فيها . فكاد يجن من هذا الفشل الذي صادفه في هذه القضية . ولكنه بقي مؤملا أن يحرج المهنديين أن يسترضوه بترضية مالية كافية . فأعمل هو والمحامي جهدهما في اختراع أسباب قانونية للطعن في بنوية ذلك الفتى لعلي باشا الربيعي . وتأجلت الجلسة النهائية الى حين آخر لتناقش الخصمين .

الفصل التاسع عشر

سجن الابرار

نعود الآن الى الدكتور جايمس لام وهو في سجنه ، من المعيشة الانكليزية في منزل جميل أنيق الرياش والاثاث والاضجاع في سرير على فراش من ريش النعام ولدى مائدة فاخرة الطعام ـ الى سجن مصر بين طبقة من الغوغاء لا فرق عندهم بين الحلال والحرام . من تلك الحياة الهنيئة الى هذا السجن الجهنمي .

أجل وجد جايمس لام نفسه في جحيم من الشقاء والتعاسة . ماهمه النوم على الارض من غير وسادة والالتفاف ببطانية فقط . فان هذا أمر يتعوده وقد عاش في عهد صبوته عيشة قشفة ، فما نسيها . ولا همه أن يأكل الخبز اليابس والادام الزنخ فان المعدة متى جاعت استطابت هضم أي طعام . ولا همه شغل السجن من كنس « وشطف » ونحوهما وشغل الكراسي لان الشغل علاج الملل والضجر .

وانما همّ الدكتور لام معاشرة هؤلاء المتشردين والاجلاف المجرمين من لصوص

وقتلة ومشاجرين الخ . عشرة هؤلاء كانت كابوساً على نفسه وقلبه . لا يستطيع تحايدهم لانه في وسطهم وهو ملزم أن يمتزج بهم وهم ممتزجون به رغم أنفه ، ملزم أن يواكلهم ويشاربهم ويشتغل معهم جنباً الى جنب وأن يبيت واياهم تحت سقف واحد . ملزم أن يتحمل سماجتهم وفظاظتهم وقذارتهم . واذا اعتدوا عليه كان ملزماً أن يحتمل منهم

اذا حايدهم وجافاهم حقدوا عليه واتفقوا على مكايدته . واذا داعبهم وضاحكهم تطاولوا في مداعبته وتطاولوا عليه فماذا يفعل حتى يخفف شقاء سجنه ويلطف بلواه ؟

خطر له ان العمل الحميد يثمر حتى في الجحيم وان الفضيلة تنال جزاءها حتى في بحر الرذيلة . لذلك عقد النية على أن يكون في ذلك السجن معلماً مرشداً روحياً وعقلياً لأولئك المجرمين . فيكون خادماً للانسانية حتى في وقت عقوبته وفي جحيم سجنه

وكان قد برع بالعربية العامية فضلا عن الفصيحة فشرع في بدء الامر يجمع السجناء في ساعات هرجهم ومرجهم ويقص عليهم قصصاً غريبة سارة مما اطلع عليه ومما شهده بنفسه في حياته ومما سمعه أو قرأه . فكانوا يستلذون قصصه جداً ويصغون اليه ، حتى صاروا كلما فرغوا من عملهم يجتمعون حوله ويقولون : « هلم يا لام احك علينا »

ولما استوثق من رغبتهم في سماع قصصه واخباره صار يختلق لهم قصصاً يضمنها المغازي الادبية والتعاليم الشريفة والمبادىء العالية حتى اسماعهم اليه وحببهم به وصاروا يكرمونه ويجلون قدره ويلقبونه بالمعلم المرشد

وكانت قصصه وحكاياته وأخباره تدور على الصدق وشرف النفس والنبل والشمم والكرم والمسامحة الخ . وللملك عنان قلوبهم صار يروي لهم قصصاً مغزاها حب الوطن والتفاني لاجل الوطن ، فحرك في انفسهم النعرة الوطنية . وصار يعلمهم أن الاتحاد الوطني دين بعد الدين الروحاني . ثم صار ينبههم الى حب الاستقلال ويبث فيهم مبادىء الحرية ويفهمهم ان الحرية حق طبيعي لكل فرد . فكادوا يعبدونه لشدة اعجابهم به . وكان في جميع معاملته معهم خير نموذج لمبادئه وتعاليمه التي كان يبثها فيهم

مضى على هذا النحو نحو ٤ سنين فصار يشعر اخيراً بلذة في وسط هؤلاء المجرمين وهان عليه السجن كثيراً حتى لم يعد يبالي لان سجنه صار وسيلة لخدمة الانسانية قد لا تتسنى له في خارج السجن وهو يستلذ هذه الخدمة

* * *

في ذات يوم كان بين بعض من السجناء ممازحهم تارة وبعظهم اخرى فحدث بينه وبين واحد منهم يدعى علي الحيزوم تنافر خلافاً للمألوف وكان هذا الواحد جديداً في السجن لم تخلبه بعد اخلاق جايمس فاهانه ولطمه فعاتبه جايمس بكل حلم . ولكن الاخرين غضبوا

على ذلك المعتدي وهموا ان يضربوه . فاعترض جايمس بينه وبينهم ومنعهم عنه . فمضوا وتفاوضوا مع رفاقهم وأوغروا صدورهم على المعتدي . فشعر جايمس ان هذا السجين المنقوم عليه اصبح تحت خطر منهم . فاوعز اليه أن يختبىء في أي مكان ريثما يتسنى له ان يسكن ثائرهم

وخرج جايمس اليهم وجعل يعظهم ويلومهم لاعتصابهم ضده ويقول لهم : اني أنا قد سامحته فليس لكم ادنى حق في أن تعاقبوه . وما زال يعظ فيهم حتى سكن ثائر غضبهم وحملهم على مصالحة ذلك المجرم كاخ لهم . فاثر هذا الامر على السجين الجديد وصار شديد الوداد لجايمس يسمع قصصه ويستلذ كلامه

وفي ذات يوم اجتمع به هذا السجين وحدهما وسأله :— الا قل لي ياجايمس ياأخي ان مثلك لايمكن ان يدخل السجن فكيف دخلت اليه ! ان مثلك لحري بان يكون قاضياً أو شيخاً أو معلماً واعظاً فبأي ذنب حكم القاضي عليك ؟

فضحك جايمس وقال : وماذا يهمك ذلك ؟

— اعلم ان الاشرار ثملي يدخلون الى السجن بعدل وأما الابرار مثلك فكيف يدخلون ؟

— يدخلون لارتكابهم جرائم

عجباً . هل يجرم الابرار ؟

— ربما اجرموا خطاء ولكل جواد كبوة

— الايمكن ان تخبرني ما هي جريمتك . وكيف هفوت بها ؟ اجعلها قصة كسائر قصصك اذ لا بد أن يكون فيها عظة لنا

فجعل جايمس يروي له حكايته مع المفتش المستر هايمن منذ تناقشا في « نادي برف » الانكليزي الى أن أصيب هايمن بثلاث رصاصات في حديقة الازبكية

فلما انتهى قال المجرم « علي الحيزوم » الذي كان يسأل جايمس باهتمام وسمع له : ومن أطلق الرصاص فعلاً ؟

— الظاهر اني أنا أطلقته

— هذا هو الظاهر ولكن الحقيقة ؟

— فابتسم جايمس وقال : لو كنت أعرف الحقيقة لأحسنت الدفاع عن نفسي

— اذاً غيرك أذنب وأنت تعاقب

— هذا كان حكم القضاء والقدر يا أخي

فتململ علي الحيزوم وقال : « والله مافيش انصاف في الدنيا »

فقال جايمس : لو كنت أنت قاضياً ماذا كنت تفعل ؟

— كنت أسأل وادقق وابحث في المصاب من أي جهة جاءته الرصاصة مثلاً . وكيف كان واقفاً أو ماشياً حتى اصابته . وهل جاءته من مكان واطىء أو من مكان عال ؛ وحينئذ يظهر له أن الذي أطلق الرصاص لم يكن حيث كان جايمس لام واقفاً أو قادما

فتنبه جايمس وقال : حقيقة انك قاض

نبيه بل تصلح نائباً عمومياً . لم يفطن أحد لهذه النقط الجوهرية فكيف خطرت لك ؟

— لاني شيخ المجرمين، ولطالما ارتكبت جرائم ونجوت منها ، ولطالما وقعت في التحقيق وحكم علي ، هذه هي الزيارة الرابعة لي لهذا السجن ياسيدي فبرعت في دقائق التحقيق . ولا تصدق أن المحقق لم يفطن لهذه النقط . ولكن يظهر أنه كان لك خصوم حتى في التحقيق ، وكان على المحامي عنك أن يدقق في هذه المسائل

فتبرم جايمس وقال : لقد اعتمدت على نفسي أكثر من اعتمادي على موكلي في الدفاع ولكن يظهر ان القضاء والقدر كان ضدي يا صاح . لاني جعلت نفسي محامياً عن نفسي وكان علي أن اتكل على المحامي الفني

— لا تصدق . فلطالما كان القضاء ضدي فكنت أحوله ضد غيري

— هل حدث لك مثل هذا الحادث وقدرت أن تتملص من المسؤلية ؟

— كثيراً . واليك أهم حكاياتي

فقال الدكتور لام : هات قص علينا وسلينا يا حيزوم

فتربع علي استعداداً لقص الحكاية وطفق يقول :

ماسألني نائب عمومي أو قاض أوملاحظ بوليس عن صنعتي وصدقت في جوابي

— عجباً . لماذا لا تصدق في صنعتك ؟

— لان صنعتي الاجرام ياسيدي وقد عرف أمري جميع الناس :

— ولي الأمل أن تشرع في التوبة منذ اليوم .

— اني على يدك ياسيدي تائب منذ الآن أعدك وعداً صادقاً

ـ أشكر وعدك عظيم الشكر . ولك أن تعتمد على صداقتي في المستقبل

ـ وسأكون خادمك الامين فاسمع حكايتي

— جاءني ذات يوم رجل وقال : هل تريد أن تكتم نفسك بضع دقائق وتأخذ خمس مئة جنيه ؟

فقلت بجنيه واحدا كتم نفسي خمس دقائق

فقال لا بل تكتمه خمس دقائق وتأخذ خمس مئة جنيه

فقلت دعنا من المزاح ومن كلام الالغاز ماذا تريد ؟

فقال . اريد أن تقتل شخصاً برصاصة أو رصاصتين أو ثلاثة لكي تتأكد أنه قتل

فقلت مرحباً بك . هات نصف المبلغ

فقال . وما هي الضمانة انك تنجز عهدك

فقلت . خسئت يجب أن تعلم أن من يرتكب جناية كهذه لايكون جباناً ، والشجاع لا يكذب .

قال . هذه مئة وحالما تنجز الوعد تقبض الأربع مئة الاخرى

فقلت . لا بأس هات . وقل لي من هو الشخص ؟

فسماه لي ووصفه وأخبرني عن كل أحواله

فقلت : ان الشخص صعب الوصول اليه والمهمة صعبة فيجب أن تزيد الاجر

فقال : ثق أنك اذا نجحت تنال الف جنيه

فقلت ، وانما بقي علي أن أجد وسيلة للاستحكام من الشخص

فقال عندي وسيلة أظن أن للشخص علاقة قديمة بامرأة فاذا أرسلنا اليه رسالة بحرف من اسم المرأة وفيها ميعاد معين للقائه فلا بد أن يأتي المكان المعين في الميعاد

فقلت ، حسناً جداً . اذاً أرسل للرجل الرسالة وعين له « جبلاية » الازبكية مكاناً والساعة الثامنة من مساء الجمعة موعداً

فانتفض فؤاد جايمس واكفهر وكاد يتكلم

فقال له علي الحيزوم ، مهلا يا عزيزي ، اسمع القصة حتى آخرها . . .

قال لي ذلك الرجل الدساس ، ويحك كيف يمكن أن ترتكب الجناية في وسط البلد في وقت يكون فيه جمهور من الناس هناك ؟ لماذا لم تختر الاهرام أو القناطر الخيرية أو أي مكان منفرد ؟

فقلت له ، أرجو ألاّ تعلمني حرفتي هذا فن لا تفهم شيئاً منه أنت فلا تعترض ولا تتفلسف . أرسل الرسالة وعين الموعد في ذينك المكان والزمان . لطالما قتلت أناساً ومشيت في جنازتهم

فقال : ولكني لا أرى هذا التدبير معقولا

فقلت : بل هو المعقول . لاني اذا قتلت قتيلا حيث يوجد جمهور امكنني ان اتغافل في الحال بين الجمهور ولا ادع أحداً يشعر اني القاتل

وبالفعل ارسل الرجل رسالة لذلك المقضي عليه ، فوافى في الساعة المعينة

فارتجف بدن جايمس وقال ، وهل اطلعت أنت على الرسالة

فبتسم علي وقال : لا أعرف القراءة ياسيدي . ولماذا اطلع عليها ؟

ـ أود أن أعلم هل هي ورقة خطاب أو بطاقة .

ـ هذا أمر لا يهم ، فصبراً حتى انتهي من الحكاية وتم فسر على هواك . ففي الميعاد المعين كنت في أسفل سفح « الجبلاية » الجنوبي ، حسب ما تعين في الرسالة ، كامناً بين الشجيرات اراقب الشخص عسى ان يلبي دعوة السيدة التي يؤمل ان يراها هناك . وبالطبع لابد ان يطوف في مسالك « الجبلاية » . ولما حان الميعاد تماماً رأيت شخصاً يمشي متلصصاً متلفتاً هنا وهناك ولم يكن النور كافياً ليتبين لي وجهه . فما شككت أنه هو . وما ترددت أن أطلقت عليه ثلاث رصاصات فوقع في مكانه وفي الحال قذفت المسدس اليه وانسللت حتى صرت في طريق عمومي فرأيت بعض الناس يتساءلون . فقلت : ما هذا الصوت الذى سمع ؟

فقال بعضهم . يشبه صوت اطلاق الرصاص

فقلت : كذا ظننت . ولكني لم اتحقق

من أي جهة . العله في ميدان الاوبرا

فقال آخر بل هو قريب يتراءى كأنه في الجبلاية

وعند ذلك رأيت جاويشاً قادماً يمشي متردداً

فقلنا جميعاً له : أما سمعت صوت اطلاق الرصاص

فقال : بلى ولكن أين ؟

فقلت : نظن أنه في الجبلاية . هلموا . تعال ياجاويش . هلموا

وتقدمنا نحو الجبلاية فاذا جاويش آخر وبعض الناس يركضون الى جهة الجبلاية فركضنا معهم وكنت أنا وراء الجاويشين تماماً . وما زلنا نصعد في طريق الجبلاية حتى وصلنا الى مكان الحادثة ، وانا الى جنب الجاويش الاول . فرأينا شخصاً واقفاً أمام شخص آخر يتخبط . فقبضنا على الرجل الواقف وثم حملنا الصريع الى خارج الحديقة حيث أودعه الجاويش في مركبة ومعه بعض الشهود . أما أنا فتخلفت حتى لا أكون شاهداً . وركب الانفار الآخرون الذين اتوا بعدئذ لضبط الواقعة ومعهم المتهم البريء وذهبوا الي دائرة البوليس . فما قولك ؟

وكان جايمس يسمع حكاية علي الجيزوم مدهوشاً مستغرباً وهو لا يكاد يصدق ما يسمع فقال : اظنك سمعت الحكاية من شخص آخر أو حضرت محاكمتي والآن تريدها لي هكذا من قبيل المداعبة

ـ كلا ياسيدي . اني اروي لك حادثة حقيقية جرت معي : فانا الذي أطلق الرصاص على جايمس لام لانه هو كان المقصود اغتياله ولكن القضاء والقدر شاء أن يصاب به المستر هايمن ويتهم جايمس لام . والحمد لله ان هايمن لم يمت والا لاستحال علي هذا الاعتراف لئلا اذهب الى المشنقة رأساً

فتنهد جايمس وقال . ولكن قصتك هذه تحتاج الى اثبات وهو صعب

ـ لا . لا . ما اسهل من تأكيد قصتي واثبات التهمة علي . اصيب المستر هايمن برصاصة في كتفه الايسر وأخرى في ذراعه الايسر واخرى في فخذه الايسر اليس كذلك ؟

ـ نعم كذا كان التقرير الطبي

ـ ذلك لأن المستر هايمن كان قادماً من جهة الشرق الى الغرب من جنوبي «الجبلاية» فكان يساره نحو ميدان الاوبرا وانا كنت كامناً في أسفل السفح من تحته على بعد مترين منه فدخلت الرصاصات فيه صعوداً . ولو كانت الرصاصات من الجهة التي كنت قادماً انت منها لاخترقت ظهره لانك كنت قادماً وراءه . وما رأيتك حينئذ قط لاني انسللت حالا بعد فعلتي . ولم التفت قط لما هو جار . هكذا كان يقضي علي فن الاجرام

قال جايمس ـ مع ذلك يبقى وجه للشك في صحة روايتك

ـ هناك علامة أخرى وهي انه حيث كنت كامناً نسيت خنجراً كنت احمله لاجل

الدفاع عن نفسي فيما لو وقعت في قبضة الشرطة اذ كان قصدي ان أهرب على كل حال . واذا افلت فلا أحد يستطيع أن يدركني أو يهتدي الي . ولا بد ان يكون أحد البستانيين هناك قد وجد الخنجر في الصباح التالي ووجد بعض أغصان الشجيرة مقطعة لجعلها مكتماً لي في مخبئي

فابتسم جايمس وقال : ترى من هو ذاك الرجل الذي كان يبتغي قتلي

— اعذرني الان . لقد اقسمت ان لا ابوح باسمه ولا أود ان احنث بيميني

— بارك الله ياعزيزي بامانتك ولكن هل يمكنك ان تخبرني لماذا كان ذلك الرجل يريد قتلي ؟

— لا ادري يا سيدي . لم يكن واجباً ان اسأله في ذلك فما سألته

— اني استغرب ان يحاول بعض الناس اغتيالي وانا لم اؤذ احداً . وانما هل يمكن ان تخبرني عن جنسية ذلك الشخص

— نعم هو وطني

— عجباً لم اسيء لوطني قط . وقد عرضت نفسي لكل اذى وضرر لاجل الوطنيين فلماذا ياترى يريد هذا الرجل اهلاكي ؟ اود ان اعرفه لكي اتفاهم معه

اعذرني لا اريد ان ابوح باسمه وقد دفع اجري مع اني لم اقض وطره كما علمت

فقال جايمس متنهداً الصعداء : اذاً لقد فديتك ايها الاخ وليتها كانت آخر الجرائم حتى لا تدخل السجن ثانية

فقال علي الحزوم : ولكني اصبحت الان في سجنين معاً ياسيدي واودان اخلص من اشقهما

فقال جايمس : ماذا تعني ونحن في سجن واحد فقط

— نعم المحكمة زجتني في سجن وانت زججتني في سجن آخر اصعب من ذاك

لقد احببت ضميري الميت ياسيدي وصرت اتعذب من فكرة اني انا سبب عذابك في هذا السجن وانت بريء . لا يهمني سجن الحكومة كثيراً لاني اعتدته والفته وأما السجن الذي بنيته انت في ضميري لعذابي وما اعتدت احتماله فاود ان اخرج منه يا صاحبي . اني اعترف امام المحكمة وأمام الناس اجمعين اني انا مطلق الرصاصات على هايمن . بل ازيد على ذلك اعترافاً آخر وهو اني انا الذي رمى القنبلة أمام باب المدرسة . وكنت اقصد بها اهلاكك تلبية لرغبة اعدائك الذين ساوموني على اغتيالك ولكني اخطأت اذ وقعت القنبلة امام مركبة دانلوب التي كنت اظنك فيها . كان الله كان يأبى الا أن يفديك باعدائك . ولكني استغرب انه جل وعلا رام ان تفديني في جريمتي . بيد اني لم اتب الى الله فاوقعني في جريمة اخرى دفعت بي الى السجن بلا رحمة . فعفوك وصفحك ياسيدي لقد سببت لك عذاب السجن بضع

سنين . والان اريد ان اكفر عن ذنبي العظيم لك بعض الكفارة بان احمل بقية عقوبتك عنك . اني في الحبس على كل حال فلا يزيدني هذا الاعتراف شقاء . وأما أنت فبريء . فلماذا تعذب بجريرتي . سامحني ياسيدي فقد ظلمت بسببي

وجثا علي الحيزوم أمام جايمس يريد ان يقبل رجليه . فصده جايمس قائلا : معاذ الله يا اخي ان اقبل منك استغفاراً كهذا . لقد أثمت لله لا لي فالله استغفر . أما انا فسامحك من صميم قلبي ولست بآسف على راحتي التي ضيعتها في هذا السجن بل أنا مسرور اذ قيض الله لي ان انعش فيك حياتك الروحية . بل أنا مسرور بالاكثر اذ اتاح الله لي ان أبث في جميع هؤلاء السجناء روح الوطنية وأحيي فيهم ضمائرهم حتى يكونوا وطنيين صادقين متخلقين بالاخلاق اللازمة للوطن . فاذا خرجوا من هذا السجن القاسي سالمين امكنهم ان يخدموا وطنهم . واسأل الله ان يقدر لك الخروج من هذا السجن سالماً معافى حتى تستخدم ذكاءك ونشاطك وعافيتك في خدمة امتك .

لقد رأيت أيها الاخ ان الامة المصرية مظلومة فتمنيت ان أكون واحداً منها حتى يكون لي الحق ان اتجند في جندية وطنيتها . وأجاهد مع رجالها المجاهدين في سبيل تحريرها

— شكراً لك يا سيدي لهذه الغيرة . ولذلك ارجو ان تخرج من هذا السجن الى ميدان الجهاد الوطني حيث تعمل مع العاملين . اني مستعد من هذه الساعة ان اعترف بالجريمة التي عوقبت انت لاجلها وانت بريء منها وفي امكاني ان اثبت التهمة علي بكل سهولة . فماذا يجب ان افعل ؟

— اطلب مقابلة النائب العمومي واشرح له الحكاية . فان استطعت ان تقنعه انك مرتكب الجريمة انقذتني والا فدعني صديقاً لك ولسائر السجناء الى ان يقضي الله امراً كان مفعولا

وهكذا كان : فرفع على الحيزوم عريضة الى وزير الحقانية يلتمس فيها مقابلة النائب العمومي لاجل كشف اسرار لاتزال مجهولة ومنها حكاية القنبلة

فما تردد وزير الحقانية في أن أوفد الى السجن النائب العمومي لسماع اقوال علي الحيزوم »

الفصل العشرون

الدستور القديم صار مدينا

لا متسع عندنا لتفصيل ما حدث بعد ذلك في قضية جناية الجيلاية . فقد نظرت المحكمة في القضية في جلسة واحدة وثبتت من صحة اقوال علي الجيزوم وحكمت ببراءة الدكتور جايمس لام . فخرج من السجن نظيفاً من ادران الجرائم . وكان المنتظر من وزارة الحقانية ان تدفع له تعويضاً على ما قاساه في السجن ولكن الحقانية لا تدفع من نفسها الا بناء على حكم المحكمة بتقدير التعويض . والدكتور لام لم يرفع قضية بطلب تعويض الى المحكمة المدنية فقد حسب براءته ترضية كافية له

وخرج من السجن وهو لا ينتظر من الانكليز اقل عطف بعد ما بدا منه من الحملات الثورية ضد الاحتلال الانكليزي . وانما لقي عطفاً عظيما من بعض رجال الحزب الوطني وعرض عليه كبير من كبرائهم وظيفة ذات شأن في احدى المدارس الاهلية العليا . فسر بهذا العطف وشكره للحزب الوطني

وكان الحزب الوطني منتعشاً حين ذلك في أواخر ايام السير الدن غورست الذي خلف اللورد كرومر . فكان الدكتور جايمس لام من انصار الحزب ولكن ما لبث ان تبين اللورد كتشنر خلفاً لغورست بعد موته وصار يقاوم الحزب بكل قوته

ولما خرج الدكتور جايمس من السجن جعل كثيرون يزورونه في المنزل الذي كان يقيم فيه وهنأوه ببراءته

وفي تلك الايام القليلة دخل عليه الخادم ببطاقة عليها هذا الاسم « علي بك سيف » فتذكر أنه رأى الاسم من قبل ولكن أين كان ذلك ؟ لم يتذكر . فأوعز اليه أن يدخل فوجف حين رأى الداخل وتذكر أنه هو ذلك الرجل الذي رآه لاول مرة في المطعم في لندن ثم ماشاه في الحديقة العمومية ووبخه توبيخاً مراً . ثم تذكر الرسالة التي وردت منه وهو يطلب فيها مقابلته ولم يقابله بل قابل « سنغ فند » الهندي وهناك فقد الرسالة . ثم رآه في باب قصر الفيكونتس فيفر حيث أوسعه من الاهانة والشتم والقذف ما لا يطيقه رجل . ثم شاهده اخيراً في المحطة ممسكا بيد بنته جميلة التي كان يعبدها حباً . فانهلع فؤاده حينئذ اذ علم انه أبوها

كل هذه التذكارات مرت في مخيلته مرور الحلم السريع . وما درى كيف يقابل أبا حبيبته بعد ان اغضبه . فتقدم اليه وصافحه مطرقاً . ثم جلس الاثنان وهنأ علي

سيف جايمس ببراءته وقال له : لا ادري ان كنت تتذكرني يا دكتور

وبقي الدكتور جايمس مطرقاً ولكنه قال : لعلك الشخص الوحيد الذي لا أنساه وما تغيرت في المدة التي مضت الا قليلا . ان الرجل في بدء كهولته لا يغيره عقد من السنين

— أخاف أن تكون زيارتي مسيئة لك يا دكتور

— انها لكذلك ياسيدى

فاختلج علي بك سيف وهب من مكانه يريد الخروج وهو يقول اني آسف لازعاجك يا دكتور . ما جئت الا لاهنئك كسائر من زاروك

ـ أما أنا فارجو بقاءك ولو دقائق قليلة أشكرها لك شكراً عظيما

— اني اشفق من أن أزعجك ياد كتور بزيارة مسيئة

— اجل ان زيارتك ازعجتني يا سيدي وساءتني لانها احرقت ضميري بنار مستعرة . لا أنسى اني اهنتك اهانات لا يحتملها الا الحكيم الكريم الذي لا يجارى في حلمه وليس في وسعي أن اكفر عنها . فزيارتك الان جمعت كل نيران الجحيم في ضميري . فارجو منك صفحاً ومغفرة والا فلا قبل لي على احتمال تبكيت ضميري

فتهلل علي بك سيف لهذه المقدمة واطمأن وقال: لقد عذرتك يا جناب الدكتور منذ ذلك الحين وماحسبتك مسيئاً لمن تعرض لما يعنيه . ولكن ثق يا سيدي اني لما أكتشف مكيدة ضدك رأيت ان التعرض واجب مهما كان فضولا . هل علمت حينئذ ان زيارتك لرقم ٢٣ في شارع غندي في في لندن كانت نتيجة مكيدة مدبرة ضد حياتك وقد تداركتها ولكني لم أفهم كيف انتهى بك الامر الى منزل سيدة كنت فيه كصاحب الامر والنهي . ولا فهمت شأن ذاك الرجل الذي نقلك الى هناك

فنظر اليه الدكتور جايمس كانه يستفهم عن أمر خطر له حديثاً وقال : اذاً كيف عرفت المكيدة ؟

— عرفتها لاني كنت أعرف الرجلين اللذين أخذاك من بيت سنغ فند ووضعاك في الاتوموبيل بينهما . والذي ظننته حينئذ أن الحوذي المتآمر معهما خدعهما

— عجباً . اذاً كنت تعرف شخصين أخذاني من عند « سنغ فند » وأنا في سبات ولم أرهما قط ولا علمت بامرهما ؟

ـ نعم كنت أعرفهما وأعرف أنهما يطلبان دمك ؟

ياللعجب ! لماذا يطلبان دمي . ومن هما وكيف تعرفهما ؟

ـ هما الشخصان اللذان حاولا اغتيالك هنا مرتين ففشلا كما قرأنا أخيراً تفصيل اقرار « علي الحيزوم » الذي كان معك في السجن

فحملق جايمس لام في علي بك وقال :

يا لله أتعرفهما ؟ . .

فقال علي بك ، أجل اني أعرف جيداً الشخصين اللذين اغويا علي الحيزوم أن يلقي قنبلة عليك حين تكون أمام المدرسة ، فكادت القنبلة تصيب مركبة المستر دالبوب . ثم اغرياه ثانياً ليقتلك في حديقة الازبكية فاصابت الرصاصة صديقك المفتش المستر هايمن

ـ ارجو منك أن تخبرني من هما هذان الشخصان . ولماذا يطلبان حياتي مع اني لم أسيء الى أحد ؟

ـ نعم . ولو شئت يوم التقينا في لندن أن تجيب طلبي الذي قدمته لك بخطاب خاص ، أي أن نتقابل مرة أخرى ، لشرحت لك كل الاسرار المكتنفة حياتك

ـ الحق ان حياتي أصبحت غريبة عندي فما وجدت في العالم شخصاً في بحر من الاسرار مثلي . فاخبرني ياسيدي . اني مسرور بهذا اللقاء السعيد الذي تفتح فيه كتاب حياتي المجهولة

ـ وانا سعيد بان يتاح لي أن أتلو عليك هذا الكتاب المختوم الآن

ـ أشكرك .

ـ انت تعرف انك كنت في حضانة شندي لال الهندي اولاً

ـ نعم

ـ الا تذكر اين كنت قبلا ؟

ـ اذكر كالحلم اني كنت مع اناس آخرين ولكن من هم وماذا كانوا لا اتذكر لاني كنت صغيراً . ولما كنت اذكر هذه الامور التي كالاحلام لشندي لال الذي كان يزعم انه ابي كان يقول لي : « نعم . بعد ان ماتت أمك اضطررت ان اتغيب فاودعتك عند أقارب لي ريثما عدت . وكان عمرك حينئذ ثلاث سنين تقريباً

ـ لقد كذب شندي لال . كنت أولا في منزلي مع امرأتي وبنتي التي تكبرها أنت نحو سنتين . وكان حينئذ ذانك الشخصان اللئيمان يريدان اغتيالك . فابعدتك الى مكان كنت أظن أنه آمن لك من منزلي ، اذ كنت أنا حينئذ قائداً في ثورة عرابي ، وكنت من جملة قواد جيشه والحالة فوضى . ومن حسن الحظ أن طالبي دمك لم يظفروا بك وانما جاء شندي لال ومعه زنجي وسرقاك بحيلة غريبة

وهنا روى علي بك سيف حيلة شندي لال السحرية أو الشعوذية ، فقال جايمس . نعم انه كان يشعوذ احياناً . هذا امر يصدق عليه . واين كنت قبل ان اكون في منزلك

ـ جاء بك الى منزلي رجل صديق لي زعم انك ابن غير شرعي له وانه حائر ماذا يفعل بك . فتمنيت الى زوجتي أن تقبل ذلك الطفل وهو في اشهره الاولى وتربيه فتجعله ابناً لنا . لانها لم تلد اولاداً الا بعد وجودك عندنا بسنتين اذ ولدت بنتاً . فرضيت . هذا ما ظهر لزوجتي والحقيقة غير ذلك . وانما كذبت على زوجتي بهذه الحيلة حتى لا تبحث عن اصل الطفل وعن اهله ولا تزعجني باسئلتها

ـ اذاً اين كنت قبل ان يؤتى بي اليك ؟

ـ كنت عند مرضعة ترضعك وهي لا تعرف ابويك

ـ اذاً لست انت أبي فمن هما ابواي ؟

ـ قبل ان ابوح لك بالسر اود ان اتأكد اولا ان كان الوشم الذي هو علامة الطفل الحقيقية موجوداً حقيقة في ايسر صدرك

ـ نعم هو موجود . هل تريدان تراه ؟

ـ اشكرك . ارني

وكشف جايمس عن صدره ورأى علي بك سيف العلامة التي تقدم ذكرها غير مرة وهو لا يكاد يصدق لأن الشخص الذي قدمه المهنديون للمحكمة كان في صدره مثل هذه العلامة ايضاً . ولكن وجود العلامة في صدر جايمس لم يبق محلا للشك في ان ذلك الشخص مزور . فقال علي بك حينئذ . الآن اطمأنت نفسي وقد بانت الوطر . هذه العلامة صادقة لاغش فيها . اذن انت ابن علي باشا الريبي من زوجته السرية الشرعية مرغريت بنت المستر جون صوان . فانت اذاً الوريث الشرعي لتركة علي باشا الريبي التي تربو على المليون جنيه واسمك الحقيقي « جميل »

فبهت جايمس لأم ثم قال . ياللعجب العجاب . احقيقة ما تقول ام انت مازح يا علي بك ؟

ـ هاك نص الاوراق الرسمية التي تثبت كلامي . هذه نسخة خطاب من علي باشا ابيك يفوضني فيه بتربيتك وتنفيذ وصيته فيك . وهاك نص الوصية التي تجعلك الوريث الشرعي الوحيد لانك ابنه الشرعي الوحيد . وهاك عقد الزواج الشرعي بينه وبين امك مرغريت جون صوان التي طلقها بعد ان ولدتك ببرهة قصيرة . وترى في وصية ابيك نصاً صريحاً على انه هو الذي وشم هذه العلامة في ايسر صدرك لتكون علامة لك ، فلا استطيع انا أو غيري ان نجعلها في طفل آخر وندعي له الارث . تفضل اقرأها

فتناول جايمس الاوراق وجعل يقرأها مندهشاً كأنه يقرأ رواية خيالية ولا يكاد يصدق ان ما يقرأه حقيقة الى ان انتهى من القراءة فنظر الى علي بك متنهداً وقال : هذه نسخ عن الاصول فاين الاوراق الاصلية القانونية ؟

ـ اعلم ياعزيزي اني رفعت الى المحكمة قضية اكشف فيها زوجة ابيك لطيفة هانم واخوها ابني عمه عن تركته ريثما اجد ابنه الذي فقده ، وقالوا انه مات . وبهذه القضية كففت ايدي بني المهندي المذكورين عن التركة نحو عشرين سنة الى الآن . واخيراً زوروا شخصاً آخر سواك ووشموا صدره بالعلامة وكادوا يأخذون حكماً لمصلحتهم

فظهرت الدهشة العظيمة على جايمس وقال : يا للدهاء والمكر ! الحق أقول لك يا علي بك ان اكتشافي ثروة هائلة كانت مكتومة عني لم يحرك عواطفي عشر معشار

ما حركها قولك ان اولئك الاشخاص زوروا شخصاً بحل محلي. اني في شك من قرابتهم لان دم القرابة لا يصير ماء وهل يغتال ابناء الاعمام بعضهم بعضاً. فلماذا لقبتهم مهنديين اذا كانوا اولاد عم ابي

— لان جدهم كان يلقب اباهم بالمهندي اذ كان يحب الفروسية والقتال وقد اضاع نصيبه من ارث ابيه وصار هو واولاده يطمعون بحق علي. ولذلك زوجوه اختهم أي ابنة عمه لكي تبقى أيديهم متداخلة في شؤونه. ولسوء حظهم ان اختهم عاقر لم تلد. فلما تزوج أبوك أمك مرغريت سراً واكتشفوا انك ولدت منها وانك الابن الشرعي الوحيد الذي ستأول اليه تلك الثروة كادوا يجنون وصاروا يطلبون دمك. ومازالوا يحاولون اغتيالك الى اليوم. ولكنهم كانوا دائماً يفشلون لان الله ينصر الحق على الباطل

فبهت جايمس لام وبقي برهة مكفهراً لا يتكلم كأن سحراً وقع عليه الى ان قال: يالله. ماذنبي اذا كان ابواي شرعيين وقد ولداني شرعاً، فلماذا لم ينتقموا من ابوي؟

— ما كانت النقمة تهمهم وانما كانوا يطمعون بالتركة، كانوا يحاولون ان يزيلوا من طريقهم مانعاً يمنع ايلولة التركة اليهم. فلو استطاعوا أن يهلكوك لآلت التركة اليهم بلا نزاع لانهم الوارثون الاولون لوالدك

— تقول ان زواج ابي من امي بنت صوان كان سراً. فلماذا؟

— لان أباك كان متزوجاً بنت عمه لطيفة اخت حسن وحامد المهندي. فزواجه ثانية يغيظهم طبعاً ويغيظ زوجته على الاخص. وزوجته لطيفة كانت داهية ذات سلطان عليه كأنها السحر الفاتن. ولهذا تزوج سراً مرغريت صوان الى ان تسنح له فرصة لاعلان زواجه بها. فلما اكتشفوا هذا الزواج «اقاموا القيامة» وما زالوا هم وأبوه، أي جدك، يحرجونه حتى سلم بطلاق امك فطلقها مكرهاً. وبعد ذلك نمي اليهم انها ولدتك وأن أباك كتب سراً لوراقاً تثبت شرعية بنوتك له لانه كان يكرههم لجشعهم وسوء نياتهم، فكان يريد ان يغيظهم ويحبط آمالهم ولا سيما اذ علم سوء مقاصدهم، فتغيظوا شديد الغيظ وصاروا يطلبون دمك

وكان جايمس يسمع الكلام وهو يتقلب الواناً من امتقاع الى اكفهرار ومن تورد الى ازمهرار لشدة انفعالاته فقال: وامي؟ هل كانت غبية حتى تقبل أن يتزوجها ابي متى شاء ويطلقها متى شاء؟

— كانت تحب أباك. وكان أبوك يمنيها انه سيعلن زواجه بها ويطلق تلك متى سنحت الفرصة — كان ابوك صديقي الحميم وكان يشكو الي همومه. ففهمت

منه حينئذ انه تزوج امك سراً لان أهلها كانوا يحولون دون حدوث هذا الزواج ولاسيما اذ علموا أن أهل أبيك يرفضون . ولما حدث الزواج بغير علمهم استاءوا جداً وكادوا ينكرون بنتهم لاجله . ولما حدث الطلاق راموا ان يحسبوا الزواج كانه لم يحدث وكأن بنتهم لا تزال عذراء . وكانوا يطمعون أن يزوجوها نبيلا من النبلاء لان أباها جمع ثروة في الهند وعاد الى انكلترا لهذا الغرض ولكي يعيش فيها عيشة النبلاء

— وكيف عرف علي باشا ابن الربيبي امي مرغريت ؟

— كان ابواها عائدين من الهند الى انكلترا فمرجا الى مصر وقضيا فيها فصلا. فتعرف ابوك بمرغريت مصادفة وجرى الحب بينهما جري الكهرباء في الاسلاك وشعر كل منهما بممانعة ابويه . فعقدا زواجهما سراً

وبعد ان فكر جايمس لام طويلا قال

— لنعد الى عهد شندي لال يا علي بك . لماذا سرقني منك شندي لال : هل تعرف ؟

— هذا هو السر الذي حيرني جداً ولا يزال لغزاً . ففي أول الامر خطر لي ان شندي لال كان صنيعة المهنديين وقد سرقك لكي يأخذك لهم . ولكني لما علمت بعدئذ أن المهنديين لا يزالون يبحثون عنك ظننت أن شندي لال سرقك بايعاز من أمك. وما سافرت أنا الى انكلترا الا لابحث عن أمك فسألت كثيرين عن جون صوان فلم أقف له على اثر . ثم ظهر لي بعدئذ أن شندي لال لم يكن ذا اتصال بامك . وهكذا بقي سر شندي لال محيراً لي

وبقي جايمس بعد ذلك برهة يفكر الى أن قال باسما : الحق انك كشفت لي الان سفر اسرار حياتي التي كنت اجهلها . أما ابي فقد مات ...

— نعم مات في السجن لانه كان من المتهمين بالحركة العرابية

— بقي اذن سر واحد فقط وهو أمي . أين أمي يا ترى ؟ هل لم تزل حية أو ماتت؟ على المستقبل ان يكشف هذا السر

— اذاً تسمح لي منذ الان ان اعلن للمحكمة والملاء اسمك الاصلي اي « جميل بك الربيبي » وان اضيف اليه لقب الدكتور لانك حائز باجتهادك على رتبة الدكترة في الفلسفة . ثم اسمح لي ان اقدم للمحكمة معارضة لتزوير المهنديين وان اقدمك بصفة كونك الابن الشرعي لعلي باشا الربيبي

— بلا شك ، لك ان تفعل ذلك وتنفذ وصية ابي وتتقاضى اتعابك حتى لو استغرقت التركة كلها . فلا بأس . اني رجل لا احب المال ولا اسعى اليه

وانما انا عبد للفضيلة واحب اهل الفضل. فانا مدين لك بحياتي لانك حرصت على سلامتي في عهد الطفولة وحاولت انقاذي مرة في عهد الشبيبة . وهذا فضل عظيم جداً لا أتساويه تركة الربيبي . واعتبر اني ما زلت كابنك الذي عنيت به في عهد الطفولة . وتبنيته

وتصافح الرجلان وعيونهما مغرورقة تأثراً

وخرج علي بك وترك جميلا او جايمس ينتعش آمالا

الفصل الحادي والعشرون

ولقاء قد كان فيه دواء

وكان علي بك مبتهجاً بالنتائج العظيمة التي وصل اليها بعد ان هيأ المذكرة الهائلة التي سيقدمها للمحكمة هادماً كل ما بناه آل المهندى من القصور والعلالي . كان جالساً في مجلسه الخاص فجاءت ابنته جميلة تسأله امراً اعتيادياً فقال لها اجلسي يا ابنتي فان لي كلمة معك جوهرية

فجلست جميلة متوردة كانها احست بما يريد ان يقول . وقال : لقد تجاوزت يا ابنتي الثلاثين بالرغم من ان امك تدعي انك لم تتجاوزي الرابعة والعشرين بعد . فاذا كانت نضارة اهابك الان تموه على حقيقة سنك واذا كان سناء طلعتك يجحد زهور ربيع حياتك كل يوم فقد تذبل هذه النضارة ويكمد هذا السناء وتصبحين قليلة الصلاحية لزواج صالح

فقاطعته قائلة : قلت لك يا ابت مراراً اني لا اريد ان اتزوج . فحتى متى تعود الى هذا الموضوع ؟ ان كنت تهتم بامر عيشي فانا لا اهتم. استطيع ان اكون معلمة في مدرسة راقية لاني تعلمت اكثر مما يلزم للمعلمة . والفضل في ذلك راجع لك على كل حال . . . .

— ويحك يا بنيتي . كم ولد لي حتى اتذمر من وجودك في بيتي وانت حشاشتي الوحيدة . وانما اقصد بزواجك خيرك . وفي نفسي ان اجعلك زوجة خير الفتيان وقد . . .

فازداد تورد جميلة وقالت : رحمةً يا ابي . لقد ضاق ذرعي. ارجو ان تلقي هذا الهم عن ظهرك فلا اريد أن أتزوج

— هذا كلام لا يسمع يا بنتي. الزواج امنية كل فتى وفتاة . فلا بد ان يكون في نفسك مطمع بفتى ولا تزالين تؤملين ان

بخطبك . فاكشفي لي ما في نفسك . واذا كان من تودينه كفؤاً لك وبينك وبينه حجب وعقبات فاني وحياتك ازيلها . فبوحي لي بما في ضميرك وأنا نصيرك . انا لا ابتغي الا سعادتك وسعادة قلبك . فهل تحبين فتى معيناً ؟

فازداد تورد جميلة وقالت : لا

— اجل . لا تمكري عليَّ . اقسم لك بقلبي الذي يحبك فوق كل شيء اني لا استاء اذا بحت لي بما في نفسك من هذا القبيل . واني اسهل الامر اذا افضيت الي به

فسكتت جميلة ولم تجب . ففهم ابوها ان ظنه اصاب كبد الحقيقة فعاد يلح على ابنته ان تخبره عن الشخص الذي تحبه وتؤمل ان تتزوجه ، ويقنعها ان حبها له سراً لا يوصلها الى نتيجة بل لا بد من توسط اشخاص في الامر يغرون الشخص او يزينون له أو يسهلون السبيل له . والا فتقضي حياتها تحب وليس من يعلم فتكون كالمصباح تحت المكيال لا ينير لاحد غير نفسه

فتشجعت الفتاة وقالت : اذاً امهلني يا ابت بضعة ايام قليلة فاجيبك على سؤالك هذا

— امهلك . ويسرني ان تثقي بابيك وباخلاصه وتكشفي اسرار نفسك له فهو اكفل الناس بمسرة قلبك

— اذا كانت هذه عواطفك نحوي يا ابي فارجو منك الا ترغمني على زواج ولا تمنعني عن زواج اوده

— وحياتك يا جميلة اذا لم يكن من اقدمه لك عريساً افضل جداً ممن اخترته انت فلا ارغمك قط على اخذه

— اذاً تترك الحكم لي بين من تقدمه انت واقدمه لنفسي

— لك الحكم بامرك يابنتي اولا وآخراً على كل حال . وما عليّ الا ان اقدم نصيحتي لك ولا الزمك بقبولها

— شكراً لاخلاصك وثقتك بي يا ابي. اذاً سأجاوبك بعد بضعة أيام

وخرجت وهو يقول في نفسه. تحب الملاينة كتوطئة للاعتراف . اما المقاومة فتزيد التشبث والعناد . سأمزق قلبها عن اي فتى حتى ولو كان اميراً ولا ازوجها الا لجميل فاكون سيد بيتي

***

وفي تلك الاثناء جاء الى جايمس لام او بالاحرى جميل الربيي فتى يقول له : ان الشخص الذي ارسل لك الكتاب منذ خمس سنين تقريباً يرجو منك الان ان تقابله في داخل حديقة الجزيرة الشرقية الجنوبية

فتنبه جايمس وحملق في الفتى قائلا : أأنت نفس الشخص الذي جاءني بالكتاب حينذاك ؟

— نعم

— لقد كذبت عليّ حينئذ

فاكفهر وجه الفتى وقال : كيف ذلك يا سيدي ؟

— نعم . في ذلك الحين قلت لي مثل هذا القول وذهبت الي الجزيرة فما رأيت احداً ينتظرني هناك

— ما على الرسول الا البلاغ ياسيدي. ذلك ما قيل لي حينئذ وهذا ما قيل لي اليوم

— من ارسلك وقال لك ؟

— عذراً ياسيدى . ان مهمتي انتهت وانت حر في ان تصدقني او تكذبني . السلام عليكم

وادار الفتى ظهره وخرج وجايمس يستمهله فلم يصغ اليه وانسل في لحظة وتوارى . وبقي جايمس يفكر . هل يمكن ان تكون جميلة موفدة هذا الرسول ؟ لم يجسر ان يسأل اباها كلمة بشأنها في جلسته الماضية معه بل بقي متجاهلا اياها ومتظاهراً أنه لا يعرفها حتى ولا يعرف ان كانت بنت علي بك لا تزال في بيت ابيها او تزوجها أحد . خاف أن يقرب الى هذا الموضوع لئلا تقوم الشبهات في ذهن علي بك لانه كان يخاف أن يستاء فيما لو عرف أن بينه وبين بنته علاقة سرية قديمة ولو كانت علاقة بسيطة . لذلك بقي صامتاً مسلماً الامر للمقادير

وكان يتوقع أن علي بك سيدعوه الى منزله يوماً . ولكن كيف يرى جميلة وهي متحجبة في خدرها

فلما جاء الرسول كان اول ما خطر له ان يكون رسول جميلة اليه . لان ذلك الكتاب الذي كان علامة السر بينهما لا يمكن أن يأتي الا منها . ولكن لماذا لم تنجز وعدها في المرة الاولى منذ خمس سنين وتلاقيه في الجزيرة كما انبأه الرسول ؟ هل يمكن ان يكون في الامر مكيدة ؟

هذا محور الافكار التي حامت في ذهن جايمس حينئذ وقال في نفسه أخيراً : يحتمل ان يكون في الامر مكيدة ، ويحتمل أن يكون الرسول من قبل جميلة فعلا . فلا استعدن للامرين

* * *

وأودع مسدساً في جيبه وركب مركبة الى الجزيرة ودخل الى الحديقة المعينة وطاف فيها وهو يلتفت الى هنا وهناك كأنه يخشى شراً ، مع ان الوقت كان الساعة العاشرة صباحاً وارتكاب الجرائم والتهرب غير سهلين في تلك الحديقة . ولكن جايمس خشي أن يكون الغادر خارج سور الحديقة الذي معظمه نبات متعرش ، وان يطلق الرصاص عليه من خلال ذلك السور ويمضي فلا يدري به أحد . ولذلك كان يمشي متباعداً عن السور حذراً متلفتاً . فطاف الحديقة على هذا النحو . وما كان

فيها الا القليل من الناس لأن الوقت ليس وقت نزهة . فلم يشتبه باحد ينتظره حتى ولا رأى سيدة متأزرة مقنعة . فكاد يخيب أمله وانما رأى سيدة بزي افرنجي تتمشى وتتلفت اليه كأنها ترمقه بنظراتها من خلال قناع كثيف يشمل وجهها وقبعتها . فاشتبه بهذه السيدة ثم أوجس منها وخشي أن تكون مكيدة له . فتتبعها وهي تلتفت حيناً بعد آخر لفتات خفيفة جداً كافية لان ترمقه في اثنائها . ثم جلست على مقعد في زاوية الحديقة تخاف ان يقترب اليها لئلا يكون وراء السور من يضمر الغدر به . وقد صدق ظنه اذ شعر بشخص يتردد وراء السور . فتوقف وجعل يتمشى مقابل المرأة عن بعد

ثم رفعت المرأة نقابها وتراءى له وجهها جميلا فحسبها من بنات الهوى . وازداد ايجاساً وتخوفاً اذ ردت قناعها على وجهها وبقي يتمشى بعيداً عنها وعيناه قلما ترتدان عنها .

ثم نهضت المرأة ومشت الهوينا في طريق يتصل بالمكان الذي كان يتمشى فيه حتى اقتربت منه متجهة نحوه ، وقد أصبحت على قيد خمسة أو ستة أمتار منه فاخرج مسدسه وسدده اليها قائلا : مكانك يا هذه لا تقربي قبل أن أتأكد اصديقة أنت ام عدوة

فتراجعت المرأة الى الوراء جازعة فتعثرت ووقعت على الارض وقد صرخت صرخة حينذاك . ثم نهضت راكعة تحاول النهوض فلم تستطع كأن قوتها وهت وقالت: رحمتك . عفوك! اما انت الدكتور جايمس لام

— بلى . ولكن ذكر اسمي لا يكفي لاطمئن اني في مأمن من غدرك

— رباه لماذا ترتاب بي وتخاف غدري ؟

— لاني علمت ان حياتي محفوفة بصنوف الغدر

— اما ابلغك رسولي رسالتي ؟

— نعم . ولكنه لم يبلغني من قبل من هو موفد

— اما ذكر لك الكتاب كعلامة ؟

— بلى . وانما هذه العلامة ضللتني منذ خمس سنين ومرسلها كذب علي فلم اعد اثق بها .

— اما انقذك ذلك الميعاد المكذوب من شر القنبلة ؟

— حقيقة انقذني . . . .

— كفى اذاً صدقاً من رسالة بميعاد . ذاك فقط كان الغرض من الرسالة والرسول وعلامة الكتاب . فهل تريد علامة اخرى ؟

— نعم لقد اصبحت قليل الثقة بالناس

— هل تذكر الشكولاته وضمنها رسالتك وقد اتيت بها بنفسك الى قصر اللادي فيفر في لندن ؟

— لم انس ولن انس . هل من علامة اخرى ؟

— هل تذكر رسالتك في زاوية بيت مسز برون ؟

— لا انسى . كفى كفى ياجميلة

ورمى المسدس على الارض وتقدم اليها متضرعا قائلا : حتى لو كنت غادرة فالغدر منك نعمة . عفواً ياملیکة فؤادي . ان زيك الاوربي بالقسطان الضيق (كذا كانت الموضة حينئذ) وقبعتك الواسعة وقناعك (فوال) الكثيف صرفت ذهني عنك الى مظنة الغدر بي . كنت اتوقع ان اراك في ثوب مصري بحت مستترة بازار (حبرة) ومبرقعة او منقبة (بيشمق)

— فقالت جميلة : ما تزيبت بهذا الزي إلا تنكراً . ان اجتماعي بك الآن تحرمه التقاليد والعادات فخفت ان امسك بجرمة هذا الجرم ، ويحكم عليّ بعار . فتزيبت بالزي الذي يسوّغ لقاء المرأة برجل في حديقة عمومية كهذه . وهـذا النقاب الكثيف كاف لان يحميني من أنظار من يعرفونني ان كان لاحدهم سبيل الى هنا مصادفة .

— هلمي اذاً نتفيا تلك الشجرة الغضة في زاوية الحديقة على المقعد حيث لا رقيب ولا عذول ولا شاهد الا الله وهو خير الشهود . ان النصف الاعظم مما مضى من عمري ضيعته في انتظار لقائك مرة واحدة .

وعاد الى حيث كانت جميلة اولا وهو يقودها منتفض اليد والقلب معاً ، كأن هزة عصبية اعترته وهي ترتجف كمن خرج من السباحة في بحر بارد الماء

ولما جلسا جعل ينظر اليها وهي مطرقة حياء مرتجفة خوفاً وتاثراً . ثم قال لها : انظري اليّ لاتحقق هل انت جميلة

فتفرست فيه وهي تتورد حتى صار خداها كالجمر وقالت محاولة الابتسام : كدت تقتلني

— اما انت فقدقتلتني مراراً وكل مرة كان الامل يحييني ثانية

— من اين لي ان اعرف هذا ؟

— ما معنى الكتاب المهدى اليك من دورا . اما عرفت انه ليس من دورا بل مني؟ اما رأيتني في المحطة قبيل تركك لندن؟

— رأيتك طبعاً . وانما بقيت في شك لاني كتبت لك قبلا رسالتين اودعتها في حفرة الزاوية التي عينتها صندوق بوسطة لنا ورسالة اخرى اودعتها في مكتبك ، فلم تجبني على واحدة منهما مع اني قصدت الى تلك الزاوية مراراً

— لم اظفر بالرسالتين ياعزيزتي الا قبيل سفرك بيوم واحد اذ ورد عليّ مع نص رسالتي الاولى لك ضمن ظرف مختوم بواسطة البريد مع رسالة من شخص مجهول لم اعلم من هو ولم افهم كيف اتصلت

الرسالتان به . وانما ظننت انه هو الشخص ذو اللحية الذي كنا نراه كلما التقينا به كأنه ظل لنا . هل تذكرينه ؟

— نعم . لا انساه وكثيراً ما كنت اراه هناك فظننته من سكان الحي الجدد ، ولكن ما شأنه حتى يراقبنا ويقنص رسائلنا

— انه لثقيل وان كان له علي فضل اذا صحت الرواية ، أي فضل المنقذ ، اذ خلصني من مكيدة . اظنه كان صنيعة الفيكونتس فيفر وجاسوساً لها

ـ ولكن ماغرضها من التجسس عليّ . فقد هلع فؤادي لما بدا منها يوم جئت بهديتك الحلوة المتضمنة رسالتك الشعرية .

ـ هل قرأت الرسالة ؟

ـ لم يتسن لي أن أقرأها جيداً لاني رأيت الفيكونتس في غضب شديد كالمجنونة والظاهر أنها عصبية المزاج ولعلها هستيرية أيضاً . لانها بعد مناقشتها معك عادت اليّ تكلمني وهي تنتفض من شدة التهيج وجعلت تسألني ما هي علاقتي بك . فخفت من سوء العقبى وانكرت كل علاقة بك واكدت لها اني لا أعرفك ولا رأيتك . ولم أعد استلذ البقاء عندها . وبعد ما خرجت من عندها صرت الاحظ ذا اللحية فحسبته في أول الأمر من سكان الحي المستجدين ولكن مالبث أن خامرني الشك بانه جاسوس لها . فصرت شديدة الحذر والخوف ولا سيما لاني متصونة في عهدة اناس . فخفت ان ذاك الرجل يختلق عليّ حكايات شائنة . ولهذا لم أعد أجسر أن التقي بك

ـ ولكني الى الآن لم أفهم تداخل تلك السيدة المتكبرة فقد قابلتها مرة قبل تلك المرة بمدة طويلة فقابلتني بخشونة وفظاظة لم أعهدهما من امرأة في العالم . فصرت اكرهها ولكنها بعد كل من المقابلتين كانت تحاول أن تسترضيني باي الوسائل . وفي المرة الثالثة أي بعد خروجك من عندها ساقتني المقادير اليها بالرغم مني فبذلت جهدها في أن تسترضيني فانتقمت منها شر نقمة اذ اوسعتها من الاهانات ما لا يحتمل ومع ذلك احتملت . فلا أدري كيف صبرت عليّ حينئذ . والى الآن لم أفهم سر تصرف تلك المرأة معي تارة شموخ واخرى رضوخ ، كما اني لم أفهم سر مراقبة ذلك الرجل الملتحي لنا . وأرجح أنه هو الذي كان يقنص رسائلنا وقد أرسلها الي في آخر ساعة

ـ ولماذا لم تسع اليّ بعد مجيئك الى مصر

ـ لم اهتد الى عنوانك وأنت لم تكتبي لي عنوانك مع انه كان غرضي من ارسال الكتاب اليك في المحطة ان تفهمي قصدي هذا . فانتظرت طويلا رسالة منك

ـ لم أجسر أن أكتب لك لاني لم أكن واثقة منك

ـ وأنا لم أستطع أن اعرف عنوانك لاني لم أعرف اسم ابيك وكنت معروفة عند معارفك في لندن باسم جميلة المصرية وهو اسم عام

فابتسمت جميلة وقالت : وما معنى اني أحفظ الكتاب عندي وأرسله لك كعلامة

— حضرت حسب ايعازك مع رسولك الى الجزيرة فلم أصادف أحداً

فضحكت جميلة وقالت : عجباً اذاً لماذا كنت تطارد المركبة التي كانت فيها سيدتان من الحريم ؟

— اشتبهت فيها ولكني لم أتأكد . ولماذا لم تدعيني أراك حينئذ

— لقد كانت أمي معي في المركبة وهي غير دارية بقصدي . وكان في عزمي أن أخرج بالمركبة وحدي في ذلك الصباح ولكن أمي أبت الا أن ترافقني ، ولهذا لم استطع أن أقابلك . ولكن الغرض الذي لاجله اجتهدت أن أقابلك انقضى كما أروم والحمد لله اذ نجوت من شر القنبلة

— أما أنت التي كلمت ناظر المدرسة تلفونياً تعتذرين عن تأخري ؟

— نعم خفت أن تنجم مسؤلية عن تأخرك ولكني بعد ذلك شعرت بخطائي في التكلم بالتلفون مع الناظر لانك كنت عائداً الى المدرسة على كل حال

— ولكن كيف كنت تعرفين بمكيدة القنبلة قبل وقوعها حتى حاولت أن تجنبيني خطرها ؟

فاكفهرت جميلة وقالت : في تلك الايام ذاع بين طلبة المدارس اسمك كثيراً وكان يقال انك تحب الطلبة وتعترف بان نظارة المعارف تعاكس التعليم . وكان لي بين الطلبة قريب متهوس يحدثني بهذا الحديث . وحينئذ رجحت أن الدكتور جايمس لام هو الشخص الذي أعرفه . فكنت اتوق لمقابلتك ، وبحسب عاداتنا لا أستطيع أن أسعى اليك . ولكن يظهر ان الله رام أن ينقذك فجعلني أعثر على شخص خادم روى لي حكاية لم أصدقها في أول الامر ، وهي أن أناساً يستعدون أن يقذفوا قنبلة في طريقك أمام باب المدرسة بقصد اغتيالك

— عجباً كيف عرفت ذلك ؟

— بعض الناس يظنون الخدمة البرابرة بلهاء فيتكلمون أمامهم كلاما يظنونهم لا يفهمونه وأحياناً يثقون بهم ويظنونهم لا يفشون الاسرار ولكن هؤلاء البرابرة يتسارون فيما بينهم ويحسبون أنهم لا يزالون يكتمون السر . فقد علمت من بربري عندنا أن اناساً يستعدون لقذف قنبلة عليك في صباح ذلك اليوم . فلم أر بداً من وسيلة لاعاقتك عن المدرسة في الميعاد المعين . فارسلت لك الكتاب كعلامة مني حتى تقابلني ، ولكن يظهر أن أمي أحست في ذلك الصباح أن في نفسي شيئاً فأبت الا أن ترافقني لكي تكتشف أمري . وقد تأخرنا فجعلنا طريقنا أمام المدرسة وعلمنا أن القنبلة انفجرت وانقضى الأمر . ولم كان سروري عظيما حين رأيتك في الجزيرة سالماً

فكاد جايمس أو جميل يلتهمها بنظره حباً ، وما منعه عن ضمها الى صدره وتقبيلها

لا خشية غضبها لما يعهده من تصونها وتحصنها بعفافها وقال : افديك الف مرة ياجميلة لقد لاح في بالي أن تكوني بدالعناية التي انقذتني من شر تلك القنبلة ، ولكني ما سلمت من التهمة بالمكيدة لدا نلوب . ثم ان أولئك الكائدين ما فتئوا يكيدون لي حتى أودوا بي الى السجن أخيراً كما علمت ولا بد . ولذلك لم يعد يتسنى لي أن أبحث عنك . أما الآن وقد قيض الله لنا اللقاء وأطلق لساننا للتكلم بحرية في موضوع هو أهم المواضيع في حياتنا فاسمحي لي أن اسأل : هل من مانع عندك أن اكون محبك في العلانية كما في السر وعاشقك الشرعي ؟

ـ ليس المانع عندي ياجايمس وانما عند أبي

ـ عند ابيك ؟

ـ نعم فقد اخبرني انه اصطفى لي عريساً اذا لم يكن أفضل من العريس الذي اخترته لنفسي فلا يلزمني على الزواج منه

ـ وهل علم من هو العريس الذي اصطفيته ؟

ـ كلا الى الآن لم أقل له لاني خفت سوء المغبة

ـ كيف ؟

ـ خفت أن يغضب اذا علم اني اصطفيت عريساً ليس من ديني ولا جنسي

ـ اذاً لافائدة اذا كان أبوك سيجد من اختاره لك أفضل مني

ـ ولكن اذا كنت تغير دينك وجنسيتك فلا يعود يقدر أن يجد من ينازعك حق الافضلية عندي في شيء

ـ انك ياعزيزتي تطلبين مني مالا استطيعه

ـ عجباً . انت متعلم وعصري وتعلم أن الله واحد ويمكن الانسان ان يعبده على أي دين من أديانه

ـ ولكني لا أريد أن أغير الدين الذي ولدت فيه ولا الجنسية التي نشأت منها

فاكمدت جميلة وصار فؤادها يخفق في صدرها وقالت : اذاً لقد خاب الامل . وانقطع الرجاء

ـ أخاف أن يمقتني أبوك اذا رأى اني اغير ديني وجنسيتي بسهولة . فهل تضمنين ...

ـ اضمن كل شيء فاذا زالت هاتان العقبتان من السبيل فهو يترك لي الحكم اخيراً

ـ ولكني لا أجد في تغيير دين آبائي وجنسيتهم ما يزيدني قيمة في عيني أبيك يا عزيزتي

ـ بلى . بربك . افعل كما أقول لك والا فلا أضمن ...

***

عند ذلك راعها ظهور علي بك أبيها بغتة أمامها كانه ابليس الذي نبت من قلب الارض . فارتعدت جميلة واكفهر وجهها فرقاً وصارت ترتجف جزعاً . وكذلك جايمس شحب لونه ثم تورد حياء . وقالت جميلة : أبتِ ! لقد اثمت واستحق العقاب فارجو ألاّ تعاقبني هنا لئلا يكون عقابي مضاعفاً

وقال جايمس . بل ارجو منك أن تصب جام غضبك علي . فما هي المذنبة بل أنا

أما علي بك فقابل هذا الكلام بالابتسام قائلا : أهذا هو الرجل الذي اصطفيته عريساً يا جميلة ؟ لا تكذبي قولي الصدق . فما انا باب ظالم ولا غبي . اني احترم العواطف الشريفة وافهم لغة القلوب . فهل تحبين جايمس لام حقيقة ؟ قولي لاتخافي

فنظرت اليه مستيئسة وقالت : نعم . يا ابت . لا انكر عليك اني احبه واحبته منذ كنا تلميذين في لندن . وما اجتمعنا في حياتنا الا هنيهات تعد بالثواني وتفاهم قلبانا من ذلك الحين . وما تسنى لنا ان نتفاهم بلغة البشر الا الآن . فان كان هذا يغضبك فاضفه الى ذنوبي وعاقب . فالانسان ان لم يكن في نعيم فلا يكون في غير الجحيم

ـ وهل انت واثقة انه يحبك ؟

ـ اي وواثقة ، غير مخدوعة ، أو فليكذبني

ـ فقال جايمس : اقول لك الحق اني عرفتها قبل ان اعرفك ولاجلها درست العربية لكي آتي الى مصر موظفاً انكليزيا . وفي سبيل حبها عرضت نفسي لنقمة الناقمين

فقال علي بك متنهداً : اذاً لقد تمت كل أماني يا بنيتي فهذا عريسك . وهذه عروسك ياجميل

فقالت جميلة : اذاً لا تذكر لي بعد الآن العريس الذي اصطفيته لي

ـ هذا هو العريس الذي اصطفيته لك منذ ولدت يابنيتي

ولكنه يصر على دينه وجنسيته .

فهلا تعترض ؟

ـ كيف اعترض يابنتي ودينه الاسلام وجنسيته المصرية

فدهشت جميلة وقالت . يا لله . ماذا تقول يا ابت ؟ هل انت ساخر مني ؟

ـ كلا يا جميلة : هذا هو جميل الربيعي الذي ابحث عنه من ثلاثين سنة وقد شخت وانا ابحث وشاخ المهندسون وهم يطلبون دمه وكادوا يورثون اولادهم هذه المهمة . فاهنئي ياحبيبتي . ان قلبك حيث قلبي . ان جميل عاش معك سنتين في عهد الطفولة وسيعيش معك بقية العمر . فليبارككما الله

ـ ان وجودك هنا بغتة يا ابي يريبنا

ـ لا ترتابي بي يا ابنتي . لقد خفت ان يكون الشخص الذي تختارينه غير لائق بك فيتعذر علي ان اصدك عنه وقد وعدتك اني لا اعارضك فيه اذا كان اكفأ ممن اخترته لك . وشعرت انك كنت اليوم تقصدين ان تقابليه سراً لتتفقي معه الاتفاق النهائي . فتجسست عليك حتى علمت انك خرجت من البيت بحيرة ثم لبست البرنيطة في المركبة وخلعت الحيرة ودخلت الى هنا وانا اراقب من خلال سور الحديقة . وقد شاهدت كل شيء وسمعت معظم الحديث . وكان قلبي يغتبط اغتباطاً عظيما وانا اسمع الحديث الذي يحقق اماني فالحمد لله والف حمد . هلم بنا الى منزلنا الآن

وما هي الا ايام معدودة حتى كتب كتاب جميلة على جميل بك الربيعي

الفصل الثاني والعشرون

فصل الخطاب

وفي تلك الاثناء حانت الجلسة التي كان ينتظر فيها ان تحكم المحكمة حكماً نهائياً لمصلحة آل المهندي بناء على ان الشخص الذي قدموه للمحكمة هو جميل الذي نصت عليه وصية علي باشا الربيبي وكلف علي بك سيف تنفيذها بعد موته

ولكن ما بسطت القضية على بساط البحث حتى قدم علي بك سيف للمحكمة مذكرته وقدم لها جايمس لام بصفة كونه جميلا ابن علي باشا الربيبي بعينه. وقد شرح في مذكرته جميع الاسباب التي تؤيد صحة دعواه واسهب فيها ولم يدع شاردة ولا واردة حتى انه أتى على ذكر المكايد التي كادها آل الربيبي لاغتيال جايمس لام او جميل الربيبي

فوقعت المحكمة في حيص بيص ولا سيما حين رأى القاضي بعينه العلامة الموشومة في كلا الشخصين المزعوم كل منهما انه جميل ابن علي باشا الربيبي . واخيراً قال القاضي ان كلاً من الشخصين يصح ان يكون جميل بك الربيبي ابن علي باشا لأن في كل منهما الشروط المرجحة. فلا بد ان يكون احدهما مزيفاً والآخر حقيقياً . فعلى كل من الخصمين أن يدحض حجج الاخر ويؤيد حجته ودعواه والمحكمة اخيراً تفصل في القضية بحسب الارجحية .

فقال المحامي عن المهنديين : ان الحق واضح معنا يا سيدي كل الوضوح فان هذه العلامة الموشوم بها جميل الربيبي الحقيقي هي كما ترونها واضحة للعيان هي قوس وسهم في وتر القوس . فترون هنا الوتر منحنياً كان الرامي يشده الى الوراء لكي يرميه . ولكن في وشم الشخص الاخر واسمه الحقيقي جايمس لام وقد زور علي بك سيف هذا الوشم في صدره ترى الوتر غير منحن كأنه لم يفهم معنى هذه العلامة. زد على ذلك ان الوشم في جميل الربيبي الحقيقي واضح ولكنه في جايمس لام المزور مطموس . وهكذا التقليد لا ينطبق على الاصل

عند ذلك تقدم شخص الى المحامي من جهة علي بك سيف وقدم اليه خطاباً مكتوباً عليه « مستعجل » ففضه واطلع عليه وقال ـ عندنا هنا ياسعادة القاضي برهان دامغ قطعت جهيزة فيه قول كل خطيب

ـ ما هو ؟

ـ هنا خطاب بخط يد المرحوم علي باشا الربيبي الى زوجته مرغريت بنت جون صوان

والخط يشابه تماما خط الوصية التي كتبها المرحوم علي باشا نفسه لعلي بك سيف يفوضه بتنفيذها. وهذا نص الخطاب -

« عزيزتي مرغريت جون صوان - اتأسف ان التقاليد الاجتماعية العسوفة حالت بيننا . ابننا الطفل جميل مودع في مكان امين يربى فيه الان . وثقي اني سأضمن شرعية بنوته لي بموجب وصية اودعها عند احد اصدقائي . وسأكتب لك حينئذ اذا استطعت . وقد وشمت ايسر صدر الطفل بعلامة مميزة له حتى لا يتيسر التلاعب بشخصيته او ابداله . والعلامة هي هلال في وسطه صليب كرمز لأن ابا الطفل مسلم وامه مسيحية . فاذا لاح لك يوماً ان تتعرفيه فبهذه العلامة. كتبت هذا باللغة العربية ليكون كمستند رسمي في يدك . وشفعته بترجمة انكليزية سقيمة باللغة علي ما اظن ولكنك تفهمينها . لا انساك . وعسى ان يتاح لي ان اراك ولو في الاخرة . سامحيني فقد كان ما كان عن اضطرار »

« علي باشا الربيبي »

فلما سمعت المحكمة والحضور والخصوم نص الخطاب دهشوا . ثم قدم المحامي الخطاب الى القاضي فقابله بالوصية فلم يجد فرقاً في الخطين كانهما كتبا في وقت واحد . فقال الحق ان هذا خط علي باشا الربيبي لا ريب فيه. فاذاً الرسم الذي فيه خط منحن كانه وتر القوس مزيف . والرسم الحقيقي هو هلال وصليب لا رسم قوس ووتر وسهم . وانما تبقى امامنا مسألة طموس الرسم في جايمس لام ووضوحها في الشخص الاخر

فقال علي بك سيف على الفور كانه يخاف ان تضيع الفكرة منه أو تطير . لا يخفى على سعادة القاضي ان الوشم الذي وشم في زمن الطفولة لا يبقى واضحاً بعد ٣٠ سنة كان الجسم فيها ينمو ويتغير كثيراً . واما الوشم الموشوم حديثاً فيبقى واضحاً . ثم لا يخفى على سعادتكم ان جميل الربيبي ابن مصري وانكليزية . فاي هذين الاثنين وارث من الملامح الانكليزية اكثر ؟ ان المزعوم أنه جميل الربيبي يظهر كانه على شاكلة خصيان الفراعنة. أما جميلنا ففيه شيء من الملامح الاوربية . وان شئت برهاناً اوضح فاطلب علي الحيزوم من سجنه واستحلفه بالله وبرسوله العظيم الكريم (صلعم) من كان يغريه على اغتيال جايمس لام . فاذا قال لك أن المهندين اغروه فسلهم لماذا ؟ فيقولون لك : لانه هو جميل الربيبي بعينه ونريد ان نزيله من سبيلنا الى ميراث علي باشا الربيبي

فكاد الحضور يصفقون استحساناً لولا ان القاضي انتهرهم وعند ذلك لم يسع المحكمة ان تحكم الا بالعدل لجايمس لام انه جميل الربيبي الحقيقي وأنه يستحق الارث شرعا . وصاح الجمهور فليحي العدل اساس الملك . فليحي جميل الوطني

وارفضت المحكمة وجمهور الحضور خرجوا يهنئون جايمس لام او جميل الربيبي بفوزه على خصومه . وما تماص منهم الا كتماص الشعرة من العجين . فركب الى جنب علي بك سيف حميه في مركبته وذهب تواً الى منزل علي بك حيث استقبلتهما جميلة وامها بالزغردة والتهليل

ولما استقر بهم المقام قال علي بك : بقي امر يا عزيزي جميل

— ما هو

— ان نعاقب المهنديين على جرائمهم

— عذراً يا سيدي لقد سامحتهم من صميم فؤادي

— ولكني قاسيت منهم

— لم تقاسِ اكثر مما قاسيته انا فلا تدعني اكثر منك حلماً

فالتفت علي بك وقال : اذاً ندع الامر للنيابة فهي تحمي الجرائم الميتة . اذ لا بد ان تحاسب المهنديين على مكايدهم اذا كان علي الحيزوم يعترف

وقد صح ظن علي بك سيف فان النيابة اشتغلت شغلها وعوقب المهنديون

الفصل الثالث والعشرون

انكشاف السر الاخير

وكان جميل في ذلك النهار ضيف حميه وهو يتمتع بلقاء عروسه جميلة وتمر الساعات وهما لا ينتهيان من الاحاديث المختلفة عن الماضي الى ان سكت جميل مفكراً تفكيراً عميقاً فقالت جميلة : ماذا بك يا عزيزي؟

— افكر في امي . لا يزال امرها لغزاً اتوق ان اعرفها وافكر في كيف استرشد اليها

— عسى أن تكون لا تزال حية فتتمتع بمشربها وعطفها ان كانت لا تزال تعطف

ثم دخل عليهما علي بك وقال : اما خطر لك خاطر بشأن الخطاب الذي وافى من عالم الغيب الى القاضي ؟

— خطاب ابي لامي بنت صوان ؟ نعم اني افكر فيه . كيف جاء هذا الخطاب اليه في احرج الاوقات

— الا تظن ان امك ارسلته ؟

— هذا ما افكر فيه . وهو ما حيرني . ترى هل سمعت امي بقصتي فارسلت الخطاب الى المحامي ؟

— ليس ظنك بعيداً عن الحقيقة يا عزيزي فان جرائدنا هنا كانت تروي وقائع القضية بالتفصيل لانها أهم قضية في المحاكم الان . حتى جريدة الايجيشن غازت كانت تروي تفاصيلها . وكانت شركة روتر تنقل ملخصها

الى جرائد لندن كما علمت . فلا بدع ان تكون امك قد قرأتها هناك

— كل هذا ممكن . ولكنه لا يزال في موضع الشك . وهناك امر آخر اتذكره الان وهو قول اللورد كرومر لي يوم تنافرنا في الحديث الاخير ان مقاماً سامياً اوصاه بي . فهل لامي صلة بالمقام السامي ولا تريد ان تتظاهر ؟ ومن هو المقام السامي يا ترى . لو كنت اعرفه فلعلي اهتدي منه الى امي

عند ذلك دخل الخادم يقول : يا سيدي هنا سيدة انكليزية سائحة تريد ان تزورك

فانتفض جميل وقال لا يبعد ان تكون امي

فاسرع علي بك واستقبلها ودخل بها الى البهو فبادرته قائلة : اني اتيت لزيارة الانسة جميلة فهل تسمح بمقابلتها

— اعرفها جيداً فقد قضت في ضيافتي اسبوعاً في لندن

— ستكون بين يديك في لحظة

وخرج علي بك يروي الخبر فقالت جميلة : لعلها ام دورا زوجة الدكتور جيروم

فقال جميل : وانا اود ان اراها ايضاً

ودخل جميل يقود جميلة . فلما وقع نظره على الزائرة ارتد الى الوراء متجهماً لانه رأى اللايدي فيفر

أما اللايدي فيفر فابتسمت وتهللت ملء محياها وقالت : يسرني ان ارى جميلا ايضاً فلطالما تقت ان استرضيه فلم انجح فعسى ان انجح الان

فقال جميل لقد خبت سعياً يا سيدة فما جمعه الله لا يفرقه انسان . كنت تودين الحيلولة بيني وبين جميلة ولكن الله ابى الا اللقاء الابدي

— لقد سئت ظناً يا عزيزي فما كان لقاؤك بجميلة غريمي وانما جفاؤك لي كاد يقتلني

عجباً ! جفائي لك ؟

— نعم لطالما سعيت الى لقائك فعاندتني المقادير لانك اسأت بي ظناً

— ولماذا سعيت الي بعد ان خاشنتني حين جئت اليك بكلام من شندي لال ؟

— لم اكن اعرفك . وقد باغتني مجيئك في احرج اوقاتي اذ كنت على اهبة زواج ، ولكن راحت السكرة وجاءت الفكرة بشندي لال فندمت على ما فرط مني لاني ادركت بعد خروجك من عندي ان شندي لال كان يقدم لي ضالتي المنشودة . فالغيت الزواج بتاتاً وشرعت اسعى الى ضالتي . ولا تدري كم كلفني ذلك السعي

— عجباً . كيف كنت ضالتك المنشودة ؟ كنت ضالتي المنشودة التي أمنت عليها لال ثم لما علمت ان شندي لال مات ذبت خوفاً عليك وقد اصبحت بلا ملاذ . وكيف يهنأ عيشي بعد ذلك ؟

وانفجرت الدموع من عيني اللايدي فيفر فلم يبق لجميل شك بانه واقف لدى امه فقال وهو متأثر شديد التأثر : اذاً شندي

لال لم يكن الا وصياً عليّ من قبلك

ـ بالطبع لاني لم أجد آمن منه عليك وقد كان صديقاً لنا صادقاً . فلم اجد غيره وصياً على ابني الوحيد حشاشتي

فذهل جميل والحاضرون واسترسلت اللايدي فيفر بالبكاء

فقال عفواً يا اماه . كيف طقت ان تبقي جاهلة احوال ابنك مدة حداثته

ـ كنت مضطرة يابني فلا تسل . ان التقاليد وطيش الشباب الهتني عنك وكنت مطمئنة عليك مع شندي لال . فلما علمت انه مات ثارت في كل عواطفي الوالدية فعكفت على الزهد بالدنيا والبحث عنك ولما ضقت ذرعاً استسلمت للمقادير . ثم علمت أنك برحت الى مصر . فاوصيت بك مقاماً سامياً فصدق بوعده واوصى بك . وكنت اعالل النفس بان اعود الى مصر واجتمع بك فحال دون ذلك مرض عقام هد حيلي . ثم سمعت بحكاية جريمتك فسكت على الضيم الى أن ثبت انها جريمة مزورة. فشكرت الله وتشددت واتيت لكي اهنئك ببرائتك . ولما جئت اطلعت على قضيتك مع خصومك في جريدة الايجبشن غازت فارسلت خطاب ابيك الى القاضي مع خطاب مني لكي يكون تزكية لدعواك . والحمد لقد نجحت فاهنئك

وهنا استرسلت اللايدي بالبكاء فانقض جميل عليها وعانقها وعانقته وكانت برهة عناق ظللتها ملائكة السماء

ثم تقدمت جميلة وعانقتها وقالت باركيني يا اماه فاني كنتك اذا كنت تريدين

فقبلتها اللايدي فيفر وقالت لقد تمت سعادتي بقرانكما يا ولدي .

ثم قبلت اللايدى فيفر علي بك وقالت ان فضلك عظيم يا علي بك اذ عنيت بأمر ابني . انك لجدير بان تكون حماه

— اذاً تكونين معنا يالايدى لتشاركينا باتراحنا الى المهات

وهكذا حضرت اللايدي فيفر عرس ابنها وعاش الجميع معاً مسرورين الى الان تارة في مصر واخرى في لندن .

تمت